

ما هو الإيمان؟

ج. جريشام ماتشن



ما هو الإيمان؟

ج. جريشام ماتشن

الكتاب: ما هو الإيمان؟

الكاتب: ج. جريشام ماتشن

ترجمة: مايكل حكيم

مراجعة: جوزيف أنطون

الناشر: الرابطة الإنجيلية في الشرق الأوسط، ميرف.

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للرابطة فلا يجوز أن يستخدم اقتباس أو إعادة طبع أو نشر

للكتاب أو جزء منه بدون إذن الناشر، وللناشر وحده حق الطباعة.

المحتويات

١.....	الفصل الأول: مقدمة
١٨.....	الفصل الثاني: الإيمان بالله
٣٨.....	الفصل الثالث: الإيمان بالمسيح
٥٧.....	الفصل الرابع: الإيمان المُتَوَلَّد عن الاحتياج
٧١.....	الفصل الخامس: الإيمان ورسالة الإنجيل
٨٠.....	الفصل السادس: الإيمان والخلاص
٩٢.....	الفصل السابع: الإيمان والأعمال
١١١.....	الفصل الثامن: الإيمان والرجاء

الفصل الأول

مقدمة

إن سؤال "ما هو الإيمان؟" والذي يُشكّل موضوع المناقشة التالية قد يبدو لبعض الناس سؤالاً وقحاً أو غير ضروري. قد يُقال إن الإيمان لا يمكن أن يُعرّف سوى عن طريق الخبرة، وعندما يُعرّف عن طريق الخبرة، فإن تحليله وفصله منطقياً عن الخبرات الأخرى سيُسبب فقط في تدمير قوته ورؤيته. على سبيل المثال، إن الإنسان الذي يُعرّف عن طريق الخبرة ما هي الثقة بالمسيح، والاستناد عليه من أجل الخلاص، يمكن أن يُقال، إنه لن يحتاج أبداً أن يشترك في فحوصات نفسية بخصوص تلك الخبرة التي هي أساس حياته؛ وبالتأكيد ستتسبب مثل تلك الفحوصات حتى في تدمير ذلك الشيء المُراد فحصه.

إن اعتراضات مثل هذه ما هي إلا ظهور لميل مُنتشر اليوم، ميل للانتقاص من الجانب الفكري للحياة الدينية. يُعتبر الدين خبرةً تفوق الوصف؛ يمكن للتعبير الفكري عنها أن يكون رمزياً فقط، تُعتبر أكثر الآراء تنوعاً في الدائرة الدينية متوافقة مع وحدة أساسية للحياة؛ يمكن للفكر اللاهوتي أن يختلف لكن المسيحية تبقى كما هي.

من الواضح أن هذا المزاج الفكري مُعادٍ للتعريفات المُحددة. بالتأكيد لا يوجد ما يجعل الإنسان أقل شعبيةً في جدالات اليوم أكثر من الإصرار على تعريف المُصطلحات. يبدو أن أي شيء آخر يمكن أن يُغفر بسهولة أكبر مما يُغفر لذلك الأمر. يتناقش البشر ببلاغة شديدة اليوم حول موضوعات مثل: الله، والدين، والمسيحية، والكفارة، والفداء، والإيمان؛ لكنهم يثورون غضباً عندما يُطلب منهم أن يُعرفوا بلغة بسيطة ماذا يقصدون بهذه المُصطلحات. لا يُعجبهم أن تُفحص سلاسة بلاغتهم بواسطة شيء مُبتذل مثل تقديم التعريف. ولذلك غالباً سيثورون غضباً بسبب السؤال الذي يُمثّل عنوان هذا الكتاب؛ في وسط احتفالات الإيمان البليغة - عادةً ما يُوضع الإيمان في مواجهة المعرفة - يبدو من المُربك أن يُسأل الشخص عما هو الإيمان.

إن الميل المُعادي للتفكير والموجود في عالمنا الحديث ليس أمراً سطحياً؛ بل يضرب بجذوره بعمق في التطور الفلسفي للعصور الحديثة بأكمله. إن الفلسفة الحديثة منذ أيام كانط (Kant)، والفكر اللاهوتي الذي تأثر بها، كانت نغمتها الغالبة، كما هو الحال مع نتيجتها الحالية، انتقاصاً من قيمة المنطق وتجاوياً مُتشككاً لسؤال بيبلاطس، "ما هو الحق؟" لقد قام بهذا الهجوم على التفكير رجالاً معروفون بالقوة الفكرية؛ لكنه ما زال هجوماً على التفكير. وفي النهاية، بدأت نتيجته المنطقية في الظهور، حتى في مجال الممارسة. إن إحدى الخصائص المميزة ليومنا هي تدهور فكري مؤسف، والذي ظهر في كل مجالات المجهودات البشرية

ما عدا التي تتعامل مع أشياء مادية بحتة. لقد تعرّض التفكير المنطقي للضرب المبرح ولمدة طويلة نظريًا، لدرجة أنه لا يُمكن أن يتفاجأ المرء إذا توقّف عمليًا الآن عن دوره. من الممكن التأكيد بشكل عادل على أنه بالرغم من مواهبهما الفكرية، ساهم شلايرماخر (Schleiermacher) وريتشل (Ritschl) بشكل كبير في إنتاج تلك الانطباعية الكسولة والتي، مثلًا في مجال دراسات العهد الجديد، حلّت بشكل واسع مكان البحوث المتأنية والتي كانت موجودة منذ جيل سابق أو أكثر.

إن التباطؤ الفكري لليوم ليس مُقتصرًا على الكنيسة، أو موضوع الدين، لكنه يظهر أيضًا في التعليم العلماني. يُساعد أحيانًا بواسطة نظريات تعليمية سخيفة، والتي مهما اختلفت في تفاصيلها، تتساوى في انتقاصها من قيمة العمل على تعلّم الحقائق. تمرّ الحقائق في مجال التعليم بوقت صعب. إن الفكرة قديمة الطراز والتي تتعلّق بقراءة أحد الكتب أو الاستماع لمحاضرة ما وتخزين ما يحتويه الكتاب أو المحاضرة، تُعتبر فكرة عفا عليها الزمن بالكامل. سمعتُ منذ حوالي عام أحد الأساتذة المعروفين يُعطي نصيحة لمجموعة من أساتذة الجامعة -كانت نصيحة نموذجية للميل الحالي للتعليم. في الواقع قال إنه خطأ كبير أن يفترض أحدهم أنه ينبغي على أستاذ الجامعة أن يُعلّم؛ على العكس، عليه ببساطة أن يُعطي الطلاب فرصة لأن يتعلموا.

إن هذه النظرية التعليمية التي تدور حول اتّباع مسار أقل مقاومة في التعليم وتجنّب كل المصاعب وكل العمل الشاق أنتُ بنتائجها الطبيعية؛ لقد وَحدت قواها مع كسل الشباب الطبيعي لإنتاج تدهور مؤسف بشدة في التعليم الحالي.

بالتأكيد، لم يكن التدهور شاملاً؛ في مجال العلوم المادية مثلًا، لا يُعتبر الوصول إلى الحقائق أمرًا عفا عليه الزمن كليًا. بالتأكيد، إن الميل المُعادي للتفكير في الدين وفي تلك الموضوعات التي تتعامل بالتحديد مع الأشياء المُتعلّقة بالروح كان ولو جزئيًا على الأقل، نتيجةً لامتلاك احتكاري للفكر من ناحية العلوم المادية وتطبيقاتها النفعيّة. لكنه على المدى البعيد أمرٌ مشكوك فيه، ما إذا كانت ستستفيد حتى فروع البحث هذه من خلال ادعاءاتها الاحتكارية؛ بالكاد سيستفيد الفكر على المدى البعيد من خلال استبعاده من الاهتمامات العليا للروح البشريّة، وتباطؤه سيظهر حينها حتى في المجال المادي.

لكن مهما يكن، سواء امتد التدهور الفكري بالفعل أو سيمتد قريبًا إلى العلوم المادية، فإن انتشاره في المجالات الأخرى -في الأدب والتاريخ، على سبيل المثال، وبشكل أوضح في مجال دراسة اللغة- يُعد واضحًا بالكامل. إن نمو الجهل يُعد خاصيّةً مُبهرةً للتعليم المُعاصر في تلك المجالات؛ لقد توافقت النظرية التعليمية مع نمو الجهل.

إن طالب الكلية في هذا الأيام يُخبر بأنه لا يحتاج إلى تدوين الملاحظات عما يسمعه في الفصل، وأن استخدام الذاكرة هو أمر طفولي وميكانيكي، وأن ما هو موجود فعلاً في الكلية ليعمله هو أن يُفكر بنفسه ويوجد عالمه. ويقوم عادةً بعمل ضعيف تجاه توحيد عالمه. والسبب واضح. لا ينجح في توحيد عالمه لسبب بسيط وهو أنه ليس لديه عالم ليوحد. لم يتحصّل على معرفةٍ لعدد كافٍ من الحقائق لكي يتعلّم حتى طريقة وضع الحقائق جنباً إلى جنب. يُخبر الطالب بأن يُمارس عمليّة الهضم الذهني؛ لكن الأزمة هي أنه ليس لديه طعام ليَهضمه. إن الطالب الحديث، وعلى عكس ما يُقال كثيراً، يتصوّر جوعاً بشكل حقيقي بسبب نقص الحقائق.

نحن بالتأكيد لا نُنبط أصالة التفكير الذاتي. على العكس، نرغب في تشجيعها بكل طريقة مُمكنة، ونعتقد أن تشجيعها سيعود بنفع كبير على انتشار المسيحيّة. إن المُشكلة مع طُلاب الجامعة في يومنا هذا، من وجهة نظر المسيحيّة الإنجيليّة، ليست أن لديهم أصالة زائدة عن الحد، بل أنه ليس لديهم حتى نصف أصالة. يأخذون نفس الطريق الروتيني، يتبعون قادتهم مثل قطيع من الغنم، ويكررون نفس العبارات المُخزّنة بقليل من المعرفة لما تعنيه تلك العبارات، ويبتلعون كل ما يختار الأساتذة أن يُعطوهم – ويتخيّلون طوال الوقت أنهم جريئون، وأشداء، وشباب مُستقلّون، فقط لأنهم يُسيئون مُعاملة ما يُسيئ الجميع مُعاملته، أي الدين المؤسّس على المسيح. في هذه الأيام، من الشائع أن تُسيء إلى ذلك الشيء غير المحبوب والمعروف باسم المسيحية فائقة الطبيعة، لكنه بالتأكيد ليس أمراً أصيلاً. يُمكن للأصالة الحقيقيّة أن تتسبّب في بعض المقاومة لتيار أو مسار العصر، وفي بعض الاستعداد لأن يكون المرء غير محبوب، وعلى الأقلّ لبعض الفحص المُستقل، إن لم يكن قبولاً، لتصريحات المسيح. إذا كان هناك شيئاً واحداً ينبغي علينا نحن المؤمنون بالمسيحيّة التاريخيّة أن نُشجعه في شباب يومنا أكثر من أي شيء آخر فهو استقلاليّة العقل.

إنه خطأ كبيرٌ إذاً أن يفترض المرء أننا نحن الذين نُدعى "مُحافظين" نتمسّك بشدة بعقائد معيّنة فقط لأنه قديمة، ونقاوم اكتشاف الحقائق الجديدة. على العكس، نُرجّب الاكتشافات الحديثة بكل قلوبنا، ونؤمن بأن قضيتنا ستنتصر مُجدداً فقط عندما يطرح الشباب كسلهم الفكري الحالي عنهم، ويفرضون أن يعيشوا بلا عقل مع التيار المُعادي للتفكير في هذا العصر، ويستعيدون بعض الاستقلال الفكري الأصيل. بمعنى ما، نحن بالتأكيد تقليديون؛ نوّكّد على أن أي مؤسسة عظيمة حقاً لها جذور في الماضي؛ لذلك لا نرغب في استبدال الكنيسة التاريخيّة بالطوائف الحديثة. لكن بشكل مُجمل، في ضوء الظروف الموجودة حالياً، ربما سيكون أكثر دقةً أن نُدعى راديكاليين "radicals" بدلاً من أن نُدعى مُحافظين "conservatives". لا نسعى إلى مجرد استمرار الظروف الروحيّة الموجودة حالياً، بل إلى انفجارٍ لقوةٍ جديدة؛ نسعى تحديداً إلى إنهاء الشباب من ترديدهم الحالي وغير النقدي للعبارات الحالية إلى نوعٍ من الفحص الأصيل لأصل الحياة؛ ونؤمن أن المسيحيّة لا تزدهر في الظلمة، بل في النور. نؤمن أن نهضةً للمسيحيّة ستُنقذ البشريّة من

عبوديتها الحالية، ومثل النهضة العظمى في القرن السادس عشر، ستأتي بالحرية للبشرية. لن تكون نهضة من هذا النوع من عمل البشر، بل بعمل روح الله. لكننا نؤمن أن واحدة من الوسائل التي سيستخدمها الروح القدس هي صحة للفكر. إن الحركة الرجعية والمعادية للتفكير والتي تدعى الحداثة، وهي حركة نُقل من التفكير حقًا عن طريق استبعاده من دائرة الدين، ستُهزم، وسيستعيد التفكير مساره الصحيح من جديد. بكلمات أخرى، سيُصاحِب الإصلاح الجديد عصرٌ جديدٌ للتنوير؛ وآخر شيء نريد أن نفعله هو أن نُحبط أصالة أو استقلال العقل.

لكن ما نُصرُّ عليه هو أن الحق في الأصالة يجب أن يُكتسب، وأنه لا يمكن أن يُكتسب عن طريق الجهل أو الكسل. لا يستطيع المرء أن يكون أصيلاً في تعامله مع موضوع ما إلا إذا كان يعرف ماهية الموضوع؛ إن الأصالة الحقيقية يسبقها انتباهٌ صبور للحقائق. كتطبيق للنظرية التعليمية الحديثة، يُهمل ذلك الانتباه الصبور للحقائق بواسطة شباب العصر الحالي.

في إصرارنا على الإلزام بالحقائق في التعليم، نُثَمِّم أحياناً بأننا نرغب في فرض آرائنا في صورتها النهائية على طلابنا. يُقال إننا نحن الأساتذة نَقِف خلف مكاتبنا ونقوم بإلقاء المحاضرات. ويُتَوَقَّع من الطلاب المساكين لا أن يستمعوا فقط بل أن يُسجِّلوا الملاحظات؛ ويُتَوَقَّع منهم أن يحفظوا ما شرحناه، مع كل ما نقوله بترتيبه؛ وفي النهاية، يُتَوَقَّع منهم أن يُقدِّموا لنا كل تلك المعلومات في الامتحان. فتستمر التهمة قائلةً، إن نظاماً تعليمياً مثل هذا يخنق الأصالة والحياة تماماً. بدلاً من ذلك، يحمل خبير التعليم المعاصر رسالة رجاء قائلاً: بدلاً من حفظ الحقائق، يتكوّن التعليم الحقيقي من تعلّم التفكير؛ يُعتبر العمل الشاق أمرٌ من الماضي، وسيحل محله التعبير عن الذات.

ربما تتطوي تهمة مثل هذه على جانب من الحقيقة؛ ربما كان هناك عصرًا تعليمياً فيه تم تقدير حفظ المعلومات بشكل زائد، وحرّم التفكير من حقوقه. لكن إذا كان التعليم في الماضي يُركِّز على جانباً واحداً وهو تحصيل المعلومات عن الحقائق، فإن البندول تأرجح بالتأكيد إلى الطرف المعاكس والذي سيظل أكثر كارثية. إنها صورة زائفة عن أسلوبنا التعليمي عندما نُقدِّم كأننا نُرَاعِي فقط تخزيناً للمحاضرات في عقل الطالب، باعتباره غايةً في حد ذاته. في الحقيقة، نُرَاعِي ذلك التخزين باعتباره وسيلةً تُحقق غايةً ما، لكنه وسيلة ضرورية لها؛ لا نعتبره بديلاً للتفكير المستقل، بل شرطاً مسبقاً ضرورياً له. إن الطالب الذي يقبل ما نقوله دون نقد أو تفكير من ذاته يُعتبر طالباً غير مُرضٍ بالتأكيد؛ لكن الطالب الذي ينخرط في نقد ما لا يعرف عنه أي شيء هو طالبٌ غير مُرضٍ بنفس القدر. لا يمكن القيام بالتفكير دون وجود خامات التفكير؛ وخامات التفكير هي الحقائق، أو التأكيدات التي نُقدِّم باعتبارها حقائق. إن مجموعة من التفاصيل والمُخرَنة في العقل لا تجعل في حد ذاتها المرء مُفكِّراً؛ لكن على الناحية الأخرى، سيكون الأمر مُستحيلاً تماماً بدون وجود تلك المجموعة من التفاصيل. وإن هذه العملية الأخيرة المُستحيلة المُتعلِّقة بالقيام بالتفكير

بدون خامات التفكير هي التي يُدافع عنها التدريس المُعاصر ويقوم الطلاب المُعاصرون بتنفيذها ببراعة كبيرة. في ظل وجود هذا الميل، نؤمن أن الحقائق والعمل الشاق ينبغي أن يُسمح لهما بأن يعودا إلى مسارهما الصحيح: من المستحيل أن يُفكر الإنسان بعقل فارغ.

إذا كان تزايد الجهل يُعد أمرًا مؤسفًا في التعليم العلماني، فإن مدى تزايد أسوأ بعشرة أضعاف في دائرة المسيحية وفي دائرة الكتاب المقدس. كثيرًا ما تتجنب دروس الكتاب المقدس في يومنا هذا دراسة المحتويات الحقيقية للكتاب المقدس مثلما تتجنب وباء أو مرضًا؛ بالنسبة للكثيرين في الكنيسة، تُعد فكرة فهم المحتويات التاريخية البسيطة للكتاب المقدس بوضوح فكرة حديثة بالكامل.

عندما يُطلب من المرء أن يعظ في كنيسة ما، أحيانًا يطلب الراعي من الواعظ الزائر أن يُقدّم فصل الكتاب المقدس، وأحيانًا ما يُقدّم الراعي تلميحًا بخصوص طريقته هو في تقديم الفصل عادةً. يقول الراعي إنه يُقدّمه بشكل عملي جدًا؛ يُعطي الفصل إشارات بخصوص كيف ينبغي أن يعيشوا طوال الأسبوع القادم. لكن عندما أقوم أنا بتقديم فصل مثل هذا، فأنا بالتأكيد لا أعطي الحاضرين إشارات بخصوص كيف ينبغي أن يعيشوا طوال الأسبوع القادم. لا لأن تلك الإشارات ليست مفيدة، بل لأنها ليست كل ما هو مفيدة. سيكون أمرًا مُحزنًا للغاية إذا لم تُقدّم توجيهات عملية في فصل الكتاب المقدس؛ لكن فصلًا لا يُقدّم له إلا التوجيهات العملية هو فصل يُعد حاضره للحياة بشكل سيء. ولذلك عندما أقوم بتقديم الفصل، أحاول أن أعطيهم ما لا يُقدّم لهم في المرات الأخرى؛ أحاول مساعدتهم على فهم المحتويات العقائدية والتاريخية للمسيحية بوضوح.

إن غياب التعليم والوعظ العقائدي هو بالتأكيد أحد أسباب الجهل الحالي المؤسف والموجود في الكنيسة. لكن سببًا له تأثير أكبر يوجد في فشل أهم مؤسسة تعليمية مسيحية. إن أهم مؤسسة تعليمية مسيحية ليست المنبر أو المدرسة، رُغم أهمية هذه المؤسسات؛ بل هي العائلة المسيحية. ولقد توقفت تلك المؤسسة إلى حد كبير عن القيام بعملها. من أين حصل أولئك الذين وصلوا مِنّا إلى منتصف العمر على معرفتهم بالكتاب المقدس؟ أفترض أن خبرتي تُشبه الكثير مِنّا. لم أحصل على معرفتي بالكتاب المقدس من دروس مدارس الأحد أو من أي مدرسة أخرى، لكنني حصلتُ عليها في أيام الأحد بعد الظهيرة مع والدتي بالمنزل. سأجروا على قول إنه رُغم أن قدرتي العقلية بالتأكيد لم تكن من نوع غير عادٍ، لكن كانت لي معرفة بالكتاب المقدس بعمر الرابعة عشر أفضل من المعرفة التي لدى العديد من الطلاب في كليات اللاهوت في يومنا هذا. يأتي أغلب طلاب كليات اللاهوت من بيوت مسيحية؛ وهم بالتأكيد بنسبة معقولة من بيوت رعاة الكنائس. لكن عندما يُنهون دراستهم في الكلية ويذهبون إلى كليات اللاهوت يكون العديد منهم غافلين بدرجة كبيرة للمحتويات البسيطة للكتاب المقدس المترجم بلغتهم.

إن الأمر المُحزن هو أن الخطأ ليس خطأ الطُّلاب بشكل رئيسي. إن الكثير من هؤلاء الطُّلاب هم أولاد الخُدَّام؛ ومن خلال نقاط ضعفهم يكشفون عن حقيقة أن خُدَّام هذه الأيام لا يستبدلون فقط التعليم بالنصح، واللاهوت بالأخلاقيات، في وعظهم؛ بل يتجاهلون حتى تعليم أولادهم. إن الحقيقة المؤسفة هي أن البيت المسيحي، بصفته مؤسسة تعليمية، توقَّف عن القيام بوظيفته.

بالتأكيد، تُساعد هذه الحقيقة إلى حد بعيد على تفسير تزايد الجهل في الكنيسة. لكن التفسير نفسه يحتاج إلى تفسير؛ نجحنا حتى فقط في دفع المشكلة إلى ما هو أبعد من ذلك. يُفسَّر الجهل في الكنيسة بفشل العائلة المسيحية بصفتها مؤسسة تعليمية؛ لكن ما الذي يُفسِّر بدوره ذلك الفشل؟ لماذا تجاهل الآباء المسيحيون تعليم أولادهم؟ لماذا توقَّف الوعظ عن أن يكون تعليمياً وعقائدياً؟ لماذا أصبحت مدارس الأحد وفصول الكتاب المقدَّس تهتم فقط بتطبيقات المسيحية دون دراسة المسيحية التي ينبغي تطبيقها؟ تأخذنا هذه الأسئلة إلى قلب الموقف؛ تزايد الجهل في الكنيسة، وتزايد اللامبالاة فيما يتعلَّق بالحقائق البسيطة المُدوَّنة في الكتاب المقدَّس، كلها تعود إلى حركة روحية كبيرة، والتي بطبيعتها ذات ميول شكوكية، والتي كانت تمتد منذ المائة عام الأخيرة - حركة لا تظهر فقط في الفلاسفة واللاهوتيين مثل كانط وشلايرماخر وريتشل، لكن تظهر أيضاً في توجُّه مُنتشر عند الرجال والنساء البسطاء عبر أنحاء العالم. إن تدهور الفكر، مع تمجيد المشاعر أو الإرادة بدلاً منه، هي أمور نعتقد أنها حقائق أساسية في الحياة المعاصرة، والتي تقود بسرعة نحو حالة فيها لا يعرف البشر أو يهتمون بأي شيء بخصوص المحتوى العقائدي للمسيحية، وفي ذلك يوجد بشكل عام تدهور فكري مؤسف.

لا يظهر هذا التدهور الفكري بالتأكيد بشكل حصري بين الأشخاص الذين يُحاولون أن يكونوا إنجيليين في وجهات نظرهم للكتاب المقدَّس؛ لكنه على الأقل بنفس القدر بين أولئك الذين يتبنون وجهات النظر المُعارضة. إن أحد الميزات المُلفتة للنظر في الأدب الديني الحالي هي التخلّي عن الأسلوب التاريخي العلمي حتى بين أولئك الذين يعتبرون أنفسهم راكبي عربة التطور العلمي.

يَتطلَّب أسلوب التفسير التاريخي العلمي للكتاب المقدَّس أن يُسمَح لكُتَّاب الكتاب المقدَّس أن يُعبِّروا عن أنفسهم. منذ جيل سابق أو أكثر، رُفعت تلك الخاصية للأسلوب العلمي إلى مكانة المبدأ، وكُرِّمَتْ باسم طويل. أطلق عليها اسم "التفسير التاريخي اللغوي". إن الفكرة الرئيسية وراء هذا الأسلوب كانت أنه ينبغي على الطالب الحديث أن يُميَّز بدقة بين ما كان يُمكن أن يقوله أو كان يود لو أن كاتب الوحي قاله، وبين ما قاله كاتب الوحي فعلاً. كان يُعتبر السؤال الأخير وحده ما يُشكِّل موضوع علم التفسير.

في الولايات المتحدة الأمريكية على الأقل، يتم التخلي عن هذا المبدأ بشكل سريع. بالتأكيد، لا يتم التخلي عنه نظرياً؛ يتم تقديم الدعم له بالكلام لا بالعمل. لكن يتم التخلي عنه في الواقع. يتم التخلي عنه من قبل الباحثين الأبرز.

تمّ التخلي عنه، على سبيل المثال، من قبل الأستاذ جودسبيد (Goodspeed) عندما قام في ترجمته للعهد الجديد بترجمة الكلمة اليونانية التي تعني "يُزَرَّر" في مقاطع هامة إلى "يُصَحَّح". أعترف أنه من المحزن أن أرى عقيدة التبشير بالإيمان، والتي هي أساس الحرية الإنجيلية، تُحذف هكذا من العهد الجديد؛ من المحزن أن نتخلى عن الإصلاح بأكمله ونعود مع الأستاذ جودسبيد إلى ديانة الاستحقاق للعصور الوسطى. لكن النقطة التي أُشير الآن إليها، ليست أن ترجمة الأستاذ جودسبيد لم تكن مُوفقة لأنها انطوت -وهي بالفعل كذلك- على انتكاسة دينية، بل أنها انطوت على تخلي عن أسلوب التفسير التاريخي. من الممكن أن يكون أن هذا السؤال عن كيف يُمكن أن يُصلح موقف إنسان خاطئ مع الله، ليس مُهماً بالنسبة للمترجم الحديث؛ لكن كل مؤرخ حقيقي يجب عليه بالتأكيد الاعتراف بأنه كان مُهماً بالنسبة للرسول بولس. والذي يُترجم رسائل بولس يجب عليه، إذا كان أميناً فيما أوكل إليه، أن يُشدّد على ما شدّد بولس، وليس حيث يتمنى المترجم لو أنه شدّد.

ما هو صحيح في قضية بولس هو صحيح أيضاً في قضية يسوع. لقد تخلى الكتاب المعاصرون عن منهجية الأسلوب التاريخي. يستمرون في التخبُّط في السؤال عما تَمَنُّوه بخصوص هوية يسوع والسؤال عن هويته الفعلية. عند قراءة أحد أشهر الكتب الحديثة عن موضوع الدين، أتيت إلى التصريح المذهل التالي، يقول الكاتب: "لم يشغل يسوع نفسه كثيراً بالسؤال عن الوجود بعد الموت." أمام تصريحات مثل هذه، قد يقف أي طالب للتاريخ مذعوراً. ربما لا نهتم كثيراً بالعقيدة حول الحياة المستقبلية، لكن السؤال عما إذا هم يسوع بذلك ليس مسألة ذوق بل سؤالاً تاريخياً، والذي يُمكن الإجابة عليه فقط على أساس فحص مصادر المعلومات التاريخية التي نُسَمِّيها الأناجيل.

وتُعد نتيجة فحص من هذا النوع واضحة تماماً. في الواقع، لا تتغلغل فكرة السماء فقط بل الجحيم أيضاً في تعاليم يسوع. إنها تظهر في كل الأناجيل الأربعة؛ تظهر في المصادر التي يُفترض أنها وراء الأناجيل، والتي تم إعادة بنائها، بشكل صحيح أو خاطئ، بواسطة النقد الحديث. إنها تُعطي التعليم الأخلاقي صراحته المُميزة. لا تُعتبر جانباً يُمكن إزالته بواسطة أي عملية نقدية، بل ببساطة تُلَوّن كل تعاليم يسوع وحياته. "وَلَا تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلَكِنَّ النَّفْسَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ." "خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تُثَلَّى فِي جَهَنَّمَ النَّارِ وَلَكَ عَيْنَانِ" - لا تُعد هذه الكلمات زائدة على تعاليم يسوع بل تأتي في قلب تعاليمه.

على أي حال، إن كنت ستقوم بإزالة الفكرة المتعلقة بحياة مُستقبلية من تعاليم يسوع، إن كنت سترفض عند هذه النقطة الدليل البديهي، فبالأكيد ينبغي عليك القيام بذلك فقط من خلال أساس نقدي لأسلوبك. وما أشير إليه هو أن الأساس النقدي يُعتبر الآن غير ضروري إلى حد كبير. ينسب الكتاب الأمريكيون المعاصرون تفضيلاتهم ببساطة إلى يسوع، ويبدو أنهم يفعلون ذلك دون أي فحص دقيق للحقائق.

باعتبار هذا الكتاب الصغير مُعارضًا لهذا الميل المُعادي للتفكير الموجود في العالم المُعاصر، سيكون أحد أهدافه الرئيسية أن يُدافع عن صدارة التفكير، وسيحاول بالتحديد أن يُحلل الخلاف المُزيف والمُدْمِر والذي تم إنشاؤه بين المعرفة والإيمان.

إذا كان موضوعنا هو الفكر، فمما لا شك فيه أنه من المؤسف أن الكاتب له معرفة اختبارية محدودة فيما يتعلق بالموضوع الذي سينخرط في مناقشته. لكن في هذه الأيام، لا يستطيع الفكر أن يكون ناقدًا أكثر من اللازم للمُدافعين عنه، حيث أن المُدافعين عنه هم بالفعل قليلون. قديمًا كان المنطق يجلس في وَضع ملوكي على عرشه، وأمامه حشود من رجال الحاشية يُقدمون له الإجلال. لكنه تم خلع الملك، واغتصبت البرجماتية (Pragmatism) العرش. ما زال بعض الخدم المُتواضعين يتبعون الملك المعزول؛ ما زال يرجو بعض الرجال أن يأتي يوم الاسترداد عندما يُعاد ما هو مُفيد إلى مكانه الصحيح، ويحكم الحق العالم من جديد. لكن هؤلاء الخدم قليلون - قليلون لدرجة أن حتى أقلهم مكانة قد يُمنح على سبيل العطف فرصةً لُيُسمع، وهو الأمر الذي ما كان ليطالب به ذلك الشخص في أيام المنطق الجيدة.

لقد اتخذ الهجوم على الفكر أشكالًا عديدة، ومُنح أساسًا فلسفيًا مُفصّلًا. لست مُتَعَجِّفًا لدرجة أن أحاول أن أتعامل مع ذلك الأساس الفلسفي. لست غافلًا بالكامل عن الصعوبات التي تُهدّد ما يُدعى وجهة النظر البديهية للحق؛ تُقدّم نظرية المعرفة (epistemology) العديد من المشاكل المثيرة للاهتمام وبعض التناقضات المُحيرة. لكن تناقضات نظرية المعرفة تُشبه التناقضات الأخرى التي تُحير العقل البشري؛ إنها تُشير إلى حدود تفكيرنا، لكنها لا تُثبت أن الفكر لا يمكن الاعتماد عليه إلى أبعد حد. من ناحيتي على الأقل، لست مُستعدًا أن أستمسك في الصراع؛ لست مُستعدًا أن أستمسك في شكوكية شخص برجماتي؛ لست مُستعدًا أن أقول إنه لا يمكن الوصول إلى الحق أبدًا.

لكن، ما هي بعض الطرق التي تمّ بها إنزال الفكر عن عرشه في العالم الديني المُعاصر، أو على الأقل تم حظه من التواجد في دائرة الحقيقة المطلقة؟

في المقام الأول، وبكل وضوح، يوجد تمييز بين الدين والفكر اللاهوتي. يُقال إن الفكر اللاهوتي هو مجرد التعبير عن خبرة مُوحّدة والذي بالضرورة يتغير؛ لا يمكن أن تبقى العقيدة على الدوام، لكنها ببساطة ما يُغلّف الخبرة الدينية في قوالب فكرية تُناسب أي جيل مُحدد. يحثج بالتأكيد الذين يتحدثون بهذه الطريقة

بأنهم لا يُريدون التخلّي عن الفكر اللاهوتي، لكنهم فقط يسعون إلى إبقائه في مكانه الصحيح. من المُعترف به أن الفكر اللاهوتي ضروريّ للدين؛ لا يُمكن أن يوجد الدين أبدًا بدون بعض الفكر اللاهوتي؛ لكنهم يعتقدون أن أي فكر لاهوتي مُحدد يعتمد على عادات الفكر التي تسود في العصر الذي يُصاغ فيه ذلك الفكر اللاهوتي.

وفقًا لهذا المبدأ، تم صياغة العديد من إقرارات الإيمان مؤخرًا لتحل محل إقرارات الإيمان التاريخية العظيمة - تُهدف العديد من إقرارات الإيمان إلى "تفسير" المسيحية بحسب "القوالب الفكرية" للقرن العشرين وتوفير أساس لوحدة مسيحية. من الواضح تمامًا، أن تلك الصيغ المعاصرة تختلف طرق عديدة وهامة عن تلك الصيغ التاريخية التي تسعى الأولى إلى استبدالها. لكن الاختلاف الأكثر أهمية أحيانًا يهرب من انتباهنا. إن الاختلاف الأكثر أهمية ليس أن إقرارات الإيمان المعاصرة هذه، تختلف عن إقرارات الإيمان التاريخية في تلك النقطة أو غيرها؛ بل أن إقرارات الإيمان التاريخية على عكس إقرارات الإيمان المعاصرة قُصد منها بواسطة كاتبها أو مؤلفها أن تكون صحيحة. ومن ناحيتي، أومن أن ذلك هي الشرط الأكثر ضرورة لإقرار الإيمان. لذلك، لا أستطيع أن أقبل اعتراضات هؤلاء البرجماتيين الذين يعتقدون أنهم ليسوا مُعادين للفكر اللاهوتي. لأنه إذا كان ليس المقصود من الفكر اللاهوتي أن يكون صحيحًا بشكل دائم وموضوعي، إذا كان فقط رمزًا مناسبًا فيه تُغلّف خبرة صوفية في هذا الجيل، فيبدو لي أن عملية الصياغة اللاهوتية هي الشكل الأقل فائدةً للسخافة التي يُمكن أن ينشغل به إنسان.

بالتأكيد، تُعتبر عملية الصياغة اللاهوتية هذه التي يقوم بها البرجماتي مُنغلة بأقصى ما يُمكن عن نوع التقدم الموجود في التطور العلمي. يُعدّل العالم بالفعل من آرائه؛ تُفسح إحدى الفرضيات المجال كثيرًا لفرضية أخرى، والتي قُصد منها أن تكون تفسيرًا أفضل للحقائق. لكن الفكرة هي أن الفرضية الجديدة مثل القديمة، قُصد منها على الأقل أن تكون صحيحة بشكل دائم؛ ربما سيكون عليها أن تُفسح المجال لفهم أفضل للحقائق، لكن لا يوجد ما يتعلّق بطبيعة الفرضية يُظهر أنه يجب عليها أن تُفسح المجال. بكلمات أخرى، رغم أن العلم لن يصل إلى الحقيقة في أي جيل، إلا أنه في كل الأحوال، يسعى إلى الحقيقة.

إن عمل اللاهوتي البرجماتي مُختلفٌ للغاية. على عكس العالم، لا يهدف اللاهوتي البرجماتي من صيغته اللاهوتية حتى أن تكون دائمة، لكنه يعتبرها فقط كتعبيرات رمزية، بحسب القوالب الفكرية لجيل مُحدد، لخبرة تفوق الوصف. وفقًا للبرجماتي، فهو ليس مجرد أمرًا محتومًا، أن يختلف لاهوت أحد الأجيال عن لاهوت جيل آخر، بل إنه من المرغوب فيه أن يحدث ذلك. وفقًا للبرجماتي، ذلك الفكر اللاهوتي هو أفضل ما يُعبّر بشكل مثالي عن الخبرة الدينية بحسب "القوالب الفكرية" لأي جيل مُعين.

لذلك يُقال إن قانون الإيمان النيقاوي كان جديرًا بالإعجاب في القرن الرابع الميلادي، وكان إقرار إيمان وستمستر جديرًا بالإعجاب في القرن السابع عشر، لكن بالطبع يجب على تلك الصيغ أن تُفسح المجال لتصريحات القرن العشرين، والتي تُعتبر مُناقضة لها فيما يتعلّق بالمعنى الحرفي أو الفكري. بكلمات أخرى، لا ينبغي الحكم على الفكر اللاهوتي بحسب درجة الاقتراب التي يصل بها إلى معيار للحق ثابت أبدى، لكن يجب اعتباره جيدًا أو سيئًا بقدر ما يخدم أهداف البشرية ويُعزّز رخاء الحياة.

بالتأكيد، إن توجّه البرجماتي هذا نحو الاختلاف في اللاهوت لا يطبّق فقط على الأجيال المُتتالية، بل على الشعوب والأعراق الموجودة بالتزامن معًا أيضًا. إن بعض مؤيدي الإرساليات مُعتادون على القول بأنه من غير المنطقي للمرسلين أن يطلبوا من الأعراق الشرقية أن يقبلوا إقرارات الإيمان الغربية؛ لا يمكن أن يُوضع العقل الشرقي بالإجبار في قالب غربي؛ على العكس، يجب أن يُسمح للشرق أن يُقدّم تعبيره الشخصي عن الإيمان المسيحي. ولذلك نقرأ أحيانًا تفسيرات أكثر أو أقل رسمية للإيمان والتي جاءت من الكنائس الشرقية الأصلية. بالتأكيد، تُعتبر صياغة مثل هذه التفسيرات أمرًا مثيرًا للاهتمام. وأنها تعبير حديث عن المسيحية ومستقل عن كل المعايير الغربية! للأسف، تُصاب هذه التوقعات بخيبة الأمل عندما يقرأ الشخص الصيغ الحديثة بنفسه؛ في كثير من الأحيان لا يمكن رؤية التجديد والأصالة التي يُفتخر بها، وما يكون لدينا هو أكثر تكرار غير أصيل للمذهب الطبيعي (Naturalism) الغامض للعالم الغربي المُعاصر. اتضح أن العقل الشرقي مُماثلٌ لعقل الشخص الذي يعيش في الجانب الجنوبي من شيكاغو؛ إن كل العبارات المُحرّنة للفلسفة اللادريّة المُعاصرة تبدو مقبولة جدًا للطالب الشرقي الذي تم تدريسها له.

لكن، إذا كانت النتائج لهذه التجارب الصغيرة للعقل الشرقي تبدو أنها بالكاد تتحمّل ادعاء البرجماتي -تبدو أنها بالكاد تتحمّل الادعاء بأن العقل الشرقي والعقل الغربي مُختلفان لدرجة أن القوالب الفكرية لأحدهما لن تُناسب الآخر- الادعاء نفسه الذي يُعتبر تقليديًا للغاية لعصرنا؛ إنه إظهارٌ واحد فقط للبرجماتية المُنتشرة. وتلك البرجماتية تتضمّن الشكوكية الأكثر عمقًا والتي يمكن أن تُدرك. وفقًا لمنطق الموقف البرجماتي يمكن لعقيدتين مُتناقضتين أن يكونا بنفس الجودة؛ لأن العقيدة في رأي البرجمائين، تُعد مجرد تعبير رمزي لخبرة لا يمكن التعبير عنها حقيقةً، وبالضرورة يجب أن تتغيّر بينما تمرّ الأجيال. بكلمات أخرى، وبحسب هذا المنظور، لا توجد أي إمكانية أن يكون أي شيء في مجال العقيدة صحيحًا بشكل دائم وشامل.

إن منظورًا مثل هذا للتغيرات العقائدية يُقارَن أحيانًا، بالتطور الفعلي، مثلما أشرنا بالفعل؛ يقول اللاهوتي البرجماتي إنه من غير المنطقي أن نرفض العلوم الفيزيائية والكيميائية للقرن الأول أو القرن السابع عشر ومع ذلك نُبقي على لاهوت تلك العصور الماضية بلا تغيير؛ لماذا ينبغي استثناء الفكر اللاهوتي من القانون الكوني للتقدّم؟

لكن هذه المقارنة، كما ينبغي بالتأكيد أن يكون واضحاً مما قيل بالفعل، تنطوي فعلاً على مفهوم خاطئ غريب للغاية؛ بعيداً عن تأييدها للتقدم في اللاهوت، تُدمر البرجماتية الحالية بالفعل الإمكانية للتقدم نفسها. لأن التقدم يتضمن شيئاً يتقدم نحوه مثلما يتضمن شيئاً يتقدم منه. وفي مجال الفكر، لا تستطيع البرجماتية الحالية أن تجد أي هدف للتقدم بحسب معيار موضوعي للحق؛ وفقاً للمنظور البرجماتي، يُمكن أن تكون إحدى العقائد على نفس القدر من الصلاح لعقيدة مناقضة لها تماماً، بشرط أنها تناسب جيلاً معيناً أو مجموعة معينة من الأشخاص. تمثل التغيرات في الفرضيات العلمية تقدماً حقيقياً لأنها تقديرات مقتربة بشكل متزايد من مجموعة من الحقائق الخارجية والموضوعية؛ بينما لا تُعد التغيرات التي يُنادي بها اللاهوتيون البرجماتيون تقدماً على الإطلاق بل تغييرات لمشكالٍ لا معنى لها.

على عكس هذا التوجه البرجماتي، نتمسك نحن المؤمنون بالمسيحية التاريخية بموضوعية الحق؛ وبفعلنا ذلك، نُصبح نحن لا الحداثيون، المدافعين عن التطور. نعتقد أن اللاهوت ليس محاولةً للتعبير عن خبرة داخلية بمصطلحات رمزية فقط والتي يجب أن يُعبر عنها بمصطلحات مختلفة في الأجيال المتتالية؛ بل هو تقديم تلك الحقائق التي تُؤسس عليها الخبرة. إنه ليس بالتأكيد تقديمًا كاملاً لتلك الحقائق، وبذلك يُصبح التقدم في اللاهوت ممكناً؛ لكنه يُمكن أن يكون صحيحاً إلى أبعد حد؛ فقط بسبب وجود إمكانية الوصول إلى الحق وإمكانية تقديمه بشكل أكثر اكتمالاً، يُمكن أن يكون هناك تقدم. بكلمات أخرى، يُعد علم اللاهوت بالضبط علماً مثل الكيمياء؛ ومثل علم الكيمياء يُمكنه أن يتقدم. ومن الصحيح أن العلمين يختلفان بشكل واسع في موضوع اختصاصهما؛ يختلفان بشكل واسع في طبيعة الدليل الذي تُؤسس عليه استنتاجاتهما؛ يختلفان بالتحديد بشكل واسع في المؤهلات المطلوبة من الباحث؛ لكن كلاهما علمٌ، لأن كلاهما يهتمان بالوصول إلى مجموعة من الحقائق وترتيبها بشكل منظم.

عند هذه النقطة إذن، نجد التباعد الهام للرأي بخصوص العالم الديني في يومنا هذا؛ إن الاختلاف في التوجه من نحو الفكر اللاهوتي أو من نحو العقيدة أكثر عمقاً من أي تباعد مجرد في التفاصيل. إن التدهور المعاصر للاهوت يُنتج بشكل منطقي الشكوكية الأكثر اكتمالاً. إن الأمر ليس فقط أن الإقرارات القديمة والكتاب المقدس الذي تُؤسس عليه يتم نقدهما بالطبع، نحن أنفسنا بالتأكيد نعتقد بأنه يجب نقدهما باستمرار لكي يظهر أنه بإمكانهما الصمود أمام الاختبار - لكن المشكلة الخطيرة بحق هي أن البرجماتي المعاصر، بناءً على طبيعة فلسفته نفسها، ليس لديه ما يضعه مكانهما. طبقاً له، يُمكن أن يكون الفكر اللاهوتي مُفيداً؛ لكن لا يُمكنه إطلاقاً بأي شكل أن يكون صحيحاً. كما يلاحظ الدكتور فوسديك (Fosdick) أن ليبرالية اليوم يجب أن تُنتج بالضرورة صيغاً فكرية والتي ستُصبح الإيمان المُستقيم للغد، والتي بدورها ستُفسح المجال لليبرالية الحديثة؛ وهكذا (فرضاً) إلى ما لا نهاية. هذا هو ما يجد الشخص البسيط في الكنيسة صعوبةً في فهمه؛ لا يُقدّر بعد الحجم الحقيقي للقضية. لا يرى أن مقدار ما يؤكّد عليها الواعظ المعاصر

من إقرارات الكنيسة، أو مقدار التعليم الكتابي الذي تُشتق منها الإقرارات يصنع فرقاً صغيراً. يُمكنه أن يوافق مثلاً على كل حرف وعنوان في إقرار إيمان وستمنستر، ومع ذلك يكون مُنفصلاً بفجوة كبيرة عن الإيمان المُصلح. لا يتعلّق الأمر بإنكار ذلك الجزء من الإقرار والموافقة على الباقي؛ بل أن كل الإقرار يتم إنكاره، لأن كل الإقرار يؤكّد عليه فقط باعتباره مُفيداً أو رمزياً لا باعتباره صحيحاً.

هكذا يَصِل الأمر بأنه بالنسبة لمن يؤمن بالمسيحية التاريخية يكون الواعظ الحداثي مُسبباً للتوتر أكثر ما يكون عندما يرغب الواعظ في أن يكون أكثر تسامحاً. يقول إنه لا يرغب في أن يُحارب إيمان البُسطاء في الكنيسة؛ يقول بالتأكيد يُمكن "للتفسيرات" القديمة أن تكون التفسيرات الأفضل لبعض الأشخاص حتى الآن. إن مثل هذه التصريحات قد يُقصد منها أن تكون مُتسامحة؛ لكن في الحقيقة، تُعتبر بالنسبة لمن يؤمن بالمسيحية التاريخية التصريحات المُدمرة الأكثر جذرياً، والتي يُمكن أن يُصرّح بها أحدهم. من وجهة نظرنا، سيكون من الأفضل لو أن الواعظ، وهو مُقتنع بكذب المسيحية فوق الطبيعية بالمعنى الذي يُعبّر عنه العهد الجديد وبكذب إقرارات الإيمان، وأصبح رسولاً بشجاعة قناعاته، وسعى لاقتلاع كل القناعات التي يرى أنها مُزيّقة من عقل كل إنسان. في تلك الحالة، ينبغي علينا بالتأكيد أن نختلف عنه بشكل جذري، لكن على الأقل ستكون هناك أرض مُشتركة للنقاش. لكن التأكيد على أن إقرارات الإيمان التاريخية يُمكن أن تكون مُناسبة لبعض الأشخاص في حين أن التفسيرات المُعاصرة أفضل للبعض الآخر، أو التخطيط لوحدة الكنيسة بحيث أن كل الكنائس المُشاركة في تلك الوحدة، تُعتبر أن إقرار إيمان كل كنيسة يُعد صحيحاً بالنسبة لأعضاء الكنيسة الأخرى - نرى أن هذا ينطوي على خطيئة تجاه نور المنطق نفسه؛ فإن كان النور الذي فينا ظلاماً فالظلام كم يكون! إن شيئاً مُفيداً يُمكن أن يكون مُفيداً للبعض وغير مفيد للبعض الآخر، لكن شيئاً ما صحيحاً يبقى صحيحاً لكل الأشخاص وإلى ما بعد نهاية الزمن.

لكن إذا تم التخلّي عن الفكر اللاهوتي، أو إذا بدلاً من ذلك (لتسهيل الانتقال) تم تحويله إلى مجرد تعبير رمزي عن الخبرة الدينية، ما الذي سيُوضع في مكانه؟ يُمكن التمييز بين إجابتين لهذا السؤال في الحياة الدينية ليومنا هذا. في المقام الأول، توجد الصوفيّة (Mysticism)؛ وفي المقام الثاني، يوجد نوع من الإيجابية الحديثة.

تُعتبر الصوفيّة بدون شك النتيجة الطبيعية للميل المُعادي للفكر المُنتشر حالياً؛ لأن الصوفيّة هي المدح الثابت للخبرة على حساب الفكر. لكن في المُمارسة الفعلية قليلاً ما تكون الصوفيّة مُنسقة؛ بالتأكيد لا يُمكنها أن تكون مُنسقة إذا سعت إلى شرح نفسها للعالم. إن الخبرة التي تُؤسّس عليها، أو التي تتكون منها، يُقال إنه لا يُمكن وصفها؛ مع ذلك يُحب الصوفيون أن يتحدثوا عن تلك الخبرة على أي حال. يقتبس الدكتور إي إس واترهاوس (E. S. Water-house) حكمة ساخرة لأستاذ برادلي (Bradley) قائلاً: "الدرجة أن هيربرت سبينسر (Herbert Spencer) أخبرنا عما لا يُمكن معرفته أكثر مما أخبرنا أكثر اللاهوتيون اندفاعاً

عن الله. "لذا من الممكن القول بأن الصوفيين مُعتادون على التعبير عما لا يُمكن التعبير عنه بشكل أكثر اكتمالاً مما يبدو أنه يُمكن دعمه بواسطة الطبيعة التي لا يُمكن وَصفها التي يَنسبون لها خبرتهم.

وبالتحديد، يُعتبر أن الذين يتجاهلون الفكر اللاهوتي بسبب اهتمامهم بالخبرة، يميلون إلى استخدام طريقة شخصية في الحديث عن الله والتفكير فيه، والتي ليس لهم الحق في استخدامها. على سبيل المثال، يربط واعظ معروف بين حادثة في شبابه وفيها سمع والده يُصلي عندما ظن أنه بمفرده مع الله. قال الواعظ إن والده كان صاحب إيمان مُستقيم، وكان مُكرّساً لدليل أسئلة وأجوبة وستمنستر الموجز. مع ذلك في تلك الصلاة، ولدهشة الشاب، لم يكن هناك فكر لاهوتي مُفصل لمعايير وستمنستر، بل كان هناك انسكاب بسيط للنفس في محضر الله. قال الواعظ: "لقد كانت صلاةً فيها ألقى بنفسه في أذرع أبيه السماوي. لم يكن فيها فكر لاهوتي، ولا جحيم، ولا نظرية أخلاقية أو نياحية للكفارة."

لكن ما الذي أحدث بعد كل شيء ذلك الانسكاب البسيط للنفس؟ هل كانت تلك الصلاة مُستقلة تماماً عن الفكر اللاهوتي كما يبدو أن ذلك الواعظ يعتقد؟ من ناحيتنا، نحن نشك كثيراً في ذلك. يبدو أن كل العلاقات الشخصية شيئاً بسيطاً؛ لكنها في الواقع مُعقدة للغاية. على سبيل المثال، تعتمد صداقتي بصديق بشري على سنوات من ملاحظة أفعال صديقي. يحدث نفس الأمر في علاقة المؤمن مع الله. يقول المؤمن: "يا رب، أنت تعلم أننا مُتصالحان." تبدو تلك العبارة بسيطة للغاية وغير لاهوتية للغاية. لكنها في الواقع، تستند على كامل المحتوى الغني لإعلان الله عن نفسه في الخلاص الذي دبره من خلال ابنه. على أي حال، تُعتبر المشاعر النقية، إذا وجدت، غير أخلاقية؛ إن ما يجعل علاقتنا بشخص آخر، سواء كان صديقاً بشرياً أو الإله الأبدي، شيئاً نبيلاً هو المعرفة التي لنا عن طبيعة ذلك الشخص. تُعتبر إذن خبرة الصوفي الحقيقي، والتي تختلف عن تلك الخبرة للتواصل المباشر مع الله في أعماق النفس البشرية التي شُهرت باسم الصوفية - تُعد الأخيرة بالطبع جزءاً من ديانة كاملة الحيوية - خبرة غير مسيحية؛ لأن الخبرة المسيحية أمر شخصي بعمق؛ يَبنى المؤمن العلاقة مع شخص هو يعرفه.

تُعتبر الفلسفة الوضعية بديلاً آخر للدين المبني على معرفة الله. إن الاسم نفسه ناتج عن ظاهرة حدثت منذ زمن بعيد، لكن الشيء الذي يُمثله الاسم تم إحيائه من جديد فيما يتعلّق بكل الأساسيات. فعلى سبيل المثال، تم إحيائه في شكل مُحدد بواسطة الأستاذ إلوود (Ellwood) في كتابه الشهير: إعادة بناء الدين (The Reconstruction of Religion). اكتشف أستاذ إلوود بنفسه مدى اقترابه من الفلسفة الوضعية القديمة، رغم أنه كان يسعى إلى استبدال الدين الوضعي للإنسانية بتوفير نابع من الاعتقاد بوحدة الوجود لمسار العالم. رغم أن ذلك يحدث كثيراً بشكل غير واعي، لكن الفلسفة الوضعية تم إحيائها من جديد بواسطة أولئك الوُعاظ المشهورين ليومنا هذا الذين يستخدمون عبارة "الإله الذي يُشبه المسيح"، وهي عبارة مُقلقة جداً للأشخاص الذين فكروا بعمق في الأشياء الموجودة في أساس الإيمان المسيحي - تستخدم العبارة بواسطة

أولئك الوعاظ المشهورين الذين يُخبروننا بأن الله يُعرف فقط من خلال يسوع. إذا كانوا يقصدون أن الله يُعرف فقط من خلال الألقوم الثاني في الثلاث، الكلمة الأزلي، فربما أُنْفَقَ معهم؛ وقد أجد داعم لاتفاقي معهم في الأصحاب الحادي عشر من إنجيل متى. لكن بالطبع في واقع الأمر، ليس هذا ما يقصدونه إطلاقًا. إن ما يقصدونه هو أنه عندما يَتَمَّ التخلّي عن كل الأمور الميتافيزيقية أو عندما تُنْقَلْ إلى عالم الخيال غير الضروري - فإن كل الأسئلة المُتعلّقة بأمور مثل ما إذا كان يوجد إله خلق العالم بسلطان مشيئته، أو ما إذا كانت توجد حياة بعد الموت، أو ما إذا كان يسوع حيًا اليوم بشخصه - تم التخلّي عن كل الأسئلة التي من هذا النوع، يُمكن أن تتغيّر النفس الإنسانية بواسطة التأمل المُجرد في حياة يسوع الأخلاقية ومُحاكاتها. بشكل جوهري، يُعتبر دين مثل هذا فلسفةً وضعيّةً؛ يُعتبر هذه الدين أن كل العوامل فوق الطبيعية غير ضرورية ويؤسس دينًا للإنسانية - دينًا للإنسانية يرمز إليه اسم يسوع.

بالطبع، لا يُعد يسوع الذي يَستند عليه مثل هذا الدين يسوع التاريخي - أو يسوع الذي يُقدّمه العهد الجديد أو يسوع الذي تم إعادة تصوّره، أو يُمكن التفكير في إعادة تصوّره بأي عملية نقدية. لأن يسوع الحقيقي كان بالتأكيد يؤمن بالله، وكان بالتأكيد يؤمن بالله موجودًا حقًا، خالق العالم والقاضي النهائي، وكان بالتأكيد يُقبل إعلان الله في نصوص العهد القديم، وكان بالتأكيد يَضَعُ عقيدة السماء والجحيم في أساس تعاليمه الأخلاقية، وكان بالتأكيد يَنتظر مجيئًا لمُلكوت الله تُصاحبه الكوارث. يتم تجاهل هذه الأمور في أغلب الوعظ المُعاصر. يُقتبس الوعاظ بعض كلمات يسوع خارج سياقها إلى حد بعيد - ربما حتى من إنجيل يوحنا الذي تم نُبذُه من قِبَل المبدأ النقدي الذي يَتبنّاه الوعاظ - ثم يبدأ في استخراج دينًا غير عقائديًا لهذا العالم من كلمات يسوع تلك والتي تم إساءة فهمها. وبينما نستمع، قد يرغب البعض منا أن يَطرَحوا سؤالًا. قد يرغب البعض منا أن يسألوا ما إذا كان يسوع الناصري بالفعل جَعَلَ حياة الإنسان الأكثر وفرةً هدفًا نهائيًا لوجوده؛ قد يرغب البعض منا أن يسألوا ما إذا كان يسوع بالفعل ترك شخصه خارج رسالة إنجيله وما إذا كان بإمكاننا فعلًا، بناءً على أي مبادئ نقدية، أن نرفض كلماته تلك والتي صرّح فيها بأنه ديان كل الأرض. لكن أسئلة من هذا النوع تنال اهتمامًا ضئيلًا من الوعاظ الحداثي؛ يقول إن تلك الكلمات تحتوي من ناحيتنا على مراوغات بحتة لمطالب يسوع الأخلاقية. لا توجد أي نقطة أخرى تُظهر فيها المُعاداة العاطفية للتفكير التي تتصف بها الكنيسة الحداثيّة بشكل أوضح من هنا.

لكن هل يُمكن للمنطق البشري، خصوصًا كما ظهر بالمعنى التاريخي، أن يضرب بشدة لكي يَصُمْتُ؟ من جهتنا، لا نعتقد أن ذلك مُمكنًا. ورُغم أن الدين الإنساني المُعاصر يُمكن تخيل بقاءه، فإنه عندما يستيقظ المنطق على الأقل سيكون من اللازم أن يَخْتفي استناد ذلك الدين إلى يسوع الناصري. سيتحتم علينا أن نتوقّف عن وَضع فخرنا في الخير البشري مع الزخرفة المُستعارة المُرتبطة بالتماس المسيحية العاطفي؛

وسيكون من اللازم الاختيار بين التخلي عن يسوع باعتباره المُرشد الأخلاقي للجنس البشري وقبول تصريحاته الهائلة.

وبالتالي، فإن التنازل عن الفكر اللاهوتي لمصلحة الدين غير العقائدي يتضمّن بالفعل التنازل عن المسيحية لصالح شكوكية لا يُمكن تصوّر ما هو أكثر اكتمالاً منها. لكن، توجد مقارنة أخرى لها تأثير مؤذٍ بنفس القدر على الحياة المعاصرة. إنها المقارنة بين المعرفة والإيمان؛ ويأخذنا التفكير في هذه المقارنة إلى قلب موضوعنا الحالي. كما سنرى، فإن تلك المقارنة تتجاهل عنصراً هاماً في الإيمان؛ وما يُسمى إيماناً بعد اقتطاع ذلك العنصر ليس إيماناً على الإطلاق. في الواقع، يتضمّن كل إيمان حقيقي عنصراً فكرياً؛ يتضمّن كل إيمان معرفة وقضايا معرفية.

سيُشكّل عَرَضُ تلك الحقيقة جزءاً كبيراً من المناقشة التالية. بالتأكيد، لن يُشكّلها بالكامل؛ إذ لن تكون المناقشة جدلية بشكل بحت؛ لكن بعد كل شيء، تُعتبر الطريقة الوحيدة لفهم شيء ما هي بوضعه في مقارنة مع نقيضه؛ تتضمّن كل التعريفات استبعاداً. لذلك، سنحاول عن طريق مقارنة وجهات النظر المعارضة وكذلك عن طريق عرض وجهة نظرنا، أن نصل إلى إجابة إلى سؤال "ما هو الإيمان؟" إذا تمت الإجابة على هذا السؤال بشكل صحيح، فإننا نعتقد أن الكنيسة ستتهض سريعاً من حيرتها الحالية وستتقدّم في فرح جديد إلى اجتياح العالم.

هناك أشخاص ينكمشون من التفكير في مثل هذه الأسئلة العظيمة حول المبدأ؛ هناك الذين يرفضون الجدل، ويعتقدون أن على الكنيسة أن تعود إلى سياستها القديمة من حيث التجاهل المذهّب أو أخذ الأمور المركزية للإيمان المسيحي كمُسلّمات. لكن مع أشخاص مثل هؤلاء، من جهتي، لا أستطيع أن أجبر نفسي على الموافقة. أعتقد أن فترة التناغم الظاهري التي وجدت الكنيسة في الولايات المتحدة نفسها فيها منذ عدة سنوات كانت فترة خطر مُميت؛ كان الولاء للمسيح يُستبدل بالولاء للمؤسسات الكنسية؛ إن القادة الذين لم يذكروا حتى قلب رسالة الإنجيل في وعظهم كانوا مسؤولين بلا منازع عن موارد الكنيسة؛ في اجتماعات مجلس الكنيسة أو في المجامع الكنسية، كان حتى من السيء أن يُذكر صليب المسيح، على الأقل بأي شكل مُحدّد أو واضح. بكلمات أخرى، إن التكريس البطولي لرسالة الإنجيل تم استبداله في هدوء وسلام بوثنية مُهذّبة يُصاحبها الاعتماد على الموارد الإنسانية.

في وَجْه حالة مثل هذه، كان هناك بعض الرجال الذين لُمِسَتْ قلوبهم؛ مات الرب يسوع على الصليب لأجلهم، ورأوا أن أقل ما يستطيعون أن يفعلوه هو أن يكونوا أمناء له؛ لم يستطيعوا الاستمرار في دعم أي أمر يُعادي رسالة إنجيله، بمواهبهم ومجهوداتهم؛ ولذلك، في وَجْه كل المقاومة، كانوا مُجبرين على طرح سؤال حول الأمر الذي الكنيسة موجودة في العالم لنقوم به.

ليُعطينا الله ألا يُسكت ذلك السؤال أبدًا إلى أن يُجاب بشكل سليم! ليتنا لا نخاف من مقاومة الناس؛ لقد تم انتقاد كل حركة عظيمة في الكنيسة منذ بولس وحتى العصور الحديثة، على أساس أنها عززت من الرقابة وعدم التسامح والتنازع. في عالم الخطيئة والشك، بالطبع ستتسبب رسالة إنجيل المسيح في التنازع؛ وإذا لم تتسبب في التنازع ولم تُثر مقاومة لاذعة، فإنها علامة أكيدة إلى حد ما أن تلك الرسالة لا يتم إعلانها بأمانة. بالنسبة لي، أنا أعتقد أن فرصة عظيمة قد أُتيحت للمؤمنين بواسطة "الجدل" الذي يُنتقد بشدة. لقد تم كسر الاتفاقات؛ يُحاول الأشخاص أن يخترقوا إلى ما هو تحت كلمات التقوى إلى ما تُمثله هذه الكلمات؛ أصبح من الضروري بشكل متزايد أن يختار المرء ما إذا كان سيقف في صف المسيح أم ضده. من جهتي أعتقد أنه تم التسبب في حالة مثل هذه بواسطة روح الله؛ لقد كان هناك بالفعل تقدّمًا روحيًا أصيلًا. لقد ظهر بشكل واضح في المؤسسة التي أشرف بخدمتها. لقد صارت معنويات طلابنا اللاهوتيين مُنخفضة إلى حد ما في أثناء السنوات الماضية: كانت هناك لا مبالاة ملحوظة للأمور المركزيّة للإيمان؛ وكانت الخبرة الدينيّة من النوع الأكثر سطحيّة. لكن في أثناء العام الدراسي ١٩٢٤-١٩٢٥، كان هناك أمرٌ مثل النهضة. بدأ الشباب يُفكّرون بالاعتماد على أنفسهم؛ لقد كُشف شر الاتحادات المُساومة؛ لقد عادت البطولة المسيحيّة في وجه المقاومة إلى مسارها الصحيح؛ لقد نشأ اهتمامٌ جديدٌ بالأسئلة الفلسفيّة والتاريخيّة التي تكمن وراء المسيحيّة؛ لقد تكوّنت قناعات مُستقلة وحقيقيّة. بكلمات أخرى، أنتج الجدل تقدّمًا روحيًا وفكريًا لافتًا للنظر. يُميّز البعض منا في كل هذا عملَ روح الله. وليُعطينا الله ألا تتطفئ نيرانه! ليحمنا الله من أي تطّيف لهذه الأسئلة لمصلحة مُتعة فارغة؛ ليُعطينا الله ألا تهدأ أبدًا الأسئلة العظيمة حول المبادئ إلى أن يتم تسويتها بشكل صحيح! إن النهضات العظيمة تبدأ في أوقات مثل هذه. ليُعطينا الله أن يحدث ذلك اليوم! إن هذا النوع من الجدل جيّد؛ لأنه في هذا النوع من الجدل يحدث خلاصُ النفوس، كما يُعلّم كل من تاريخ الكنيسة والكتاب المقدّس.

نُفكّر في سؤال "ما هو الإيمان؟" بمثل هذا الهدف النهائي. يصعب التفكير في سؤال "عملي" بشكل أكبر منه. يقول الواعظ: "آمن بالرب يسوع المسيح، فتلّصّ". لكن كيف يُمكن أن يتصرّف الإنسان بُناءً على ذلك الاقتراح، إلا إذا كان يَعرف معنى الإيمان. إنه عند هذه النقطة يُعدّ الوعظ "العقائدي" لجيل سابق عمليًا بشكل أكبر من الوعظ "العملي" ليومنا هذا. لن أنسى أبدًا راعي الكنيسة التي نشأتُ بها. كان واعظًا جيّدًا من عدة نواح، لكن أكثر صفاته وضوحًا كانت الصراحة والوضوح الذي أخبر بهما الناس ماذا ينبغي أن يفعل الإنسان ليخلّص. يُلمّح وُعاظ الأيام الحالية إلى أهميّة أن يكون المرء مؤمنًا، لكن نادرًا ما يبدوا أنهم يجعلون الموضوع مسألة تفسير صريح؛ يتركون الناس ولديهم انطباعًا مُبهّمًا عن تأثير أن كون المرء مؤمنًا هو أمرٌ جيّد، لكن يصعب ترجمة هذا الانطباع في صورة فعل لأن التوجيهات الواضحة غائبة. يتحدّث هؤلاء الوُعاظ عن الإيمان، لكنهم لا يقولون ما هو الإيمان.

إنه من أجل المساعدة بطريقة بسيطة في سد هذا العجز أن هذا الكتاب الصغير قد كُتب. إن كان طريق الخلاص هو الإيمان، فيبدو أنه أمر بالغ الأهمية أن يُخبر الناس الذين يُريدون أن يخلصوا بما هو المقصود بالإيمان. إذا لم يُقدر الواعظ أن يفعل ذلك، فبالكاد يستطيع أن يكون مُبشراً حقيقياً.

كيف إذن سننوّصل إلى إجابة سؤالنا؛ كيف سنكتشف ما هو الإيمان؟ قد يبدو الوهلة الأولى أنه سؤالاً فلسفياً خالصاً أو ربما سؤالاً نفسياً؛ يوجد إيمان غير الإيمان ببسوع المسيح؛ وبلا شك ينبغي ضمّ إيمان مثل هذا مع الإيمان المسيحي في نفس التصنيف العام. لذلك، يبدو كما لو أنني أشارك في مناقشة نفسية أو سيكولوجية، وكما لو أنه يجب أن أكون على دراية عميقة بالأسئلة المعرفية والفلسفية المتضمنة.

بلا شك، ستكون معالجة مثل هذه للموضوع مفيدة للغاية؛ لكن للأسف، لست مؤهلاً للقيام بذلك. لذلك أقترح أسلوباً منهجياً مختلفاً إلى حد ما. كيف سيكون الأمر إذا كنا سندرس موضوع الإيمان، لا عن طريق التعميمات الآتية من حالات عديدة للإيمان في حياة البشر (رغم أن مثل تلك التعميمات لن تكون غائبة بالكامل)، لكن عن طريق التفكير في الإيمان كما يظهر في ظهوره الأوضح والأبسط؟ كثيراً ما يُعتبر تركيز مثل هذا على مثال كلاسيكي، أفضل طريقة ممكنة أو مُثمرة للغاية، والتي يُمكن أن يُعالج بها موضوع ما.

لكن المثال الكلاسيكي للإيمان يوجد في الإيمان الذي يُؤمّر به في العهد الجديد. أعتقد أنه سيكون هناك اتفاقاً واسعاً مع ذلك التصريح بين طلاب علم النفس سواء كانوا مؤمنين أم لا؛ إن الإصرار على الإيمان يُعد صفةً مميزة لمسيحية العهد الجديد؛ بالطبع، هناك بعض التبرير للطريقة التي يتحدّث بها بولس عن فترة ما قبل المسيحية بعبارة "قَبْلَما جَاءَ الإِيْمَانُ". مما لا شك فيه أن هذا التصريح قصده الرسول بشكل نسبي فقط؛ يُصر بنفسه على أن الإيمان كان موجوداً في التدبير القديم؛ لكن مثل تلك توقعات ابتُلعت، بواسطة مجيء المسيح، في تَتْمِيمٍ مجيد. على أي حال، يُعد الكتاب المُقدّس في مجمله، بالنظر إلى النبوة وتحقيقها معاً، الكتاب الدراسي الأسمى حول موضوع الإيمان. قد تقود دراسة ذلك الكتاب الدراسي إلى فهم واضح لموضوعنا بنفس درجة الوضوح التي يُمكن الوصول إليها بأي فَحْصٍ أكثر عمومية؛ يُمكننا أن نتعلّم ما هو الإيمان في أفضل شكل عن طريق دراسته في ظهوره الأوضح. يُمكننا أن نسأل حينها في الفصول التالية ما الذي يقوله الكتاب المُقدّس، وبالتحديد العهد الجديد، عن الإيمان.

الفصل الثاني

الإيمان بالله

أولاً، يُخبرنا بالتأكيد الكتاب المقدس أن الإيمان يتضمّن شخصاً بصفته موضوعه. يمكننا بالطبع أن نتحدّث عن الإيمان بشيء غير شخصي، مثل ماكينة ما، لكن عندما نفعل ذلك فإنّنا نعتقد أننا ننغمس في نوع من الشخصنة لذلك الشيء، أو في الحقيقة نفكر في الأشخاص الذين صنعوا الماكينة. على أي حال، بدون مناقشة صحة أو خطأ هذا الاستخدام، يمكننا على الأقل القول بأن استخداماً مثل ذلك للكلمة لا يصل إلى الأهميّة القصوى. في الأهميّة القصوى للكلمة - الأهميّة التي نهتم بها فقط الآن - يُنظر إلى الإيمان باعتباره يوضّع دائماً في شخص.

إن الأشخاص الذين بحسب الكتاب المقدس ينبغي أن يوضّع فيهم الإيمان هم الله الآب والرب يسوع المسيح.

لكن -وهنا نأتي إلى النقطة التي نعتقد أنه ينبغي تأكيدها فوق كل شيء آخر في يومنا هذا بالتحديد- من المستحيل أن يكون للمرء إيمان بشخصٍ دون أن تكون له معرفة بذلك الشخص؛ بدلاً من أن يكون مناقضاً للمعرفة، يؤسّس الإيمان على المعرفة. يقف هذا التأكيد مخالفاً لاتجاه التعليم الديني المعاصر بأكمله؛ لكنني أعتقد أن بعض التفكير سيُظهر أنه بلا شك تأكيدٌ صحيح، وأنه يجب تطبيقه بالتحديد على موضوعات الإيمان المسيحي. لنفكر من خلال هذا المنظور في الإيمان بالله أولاً ثم الإيمان بيسوع المسيح ثانياً.

في المعالجة الكلاسيكية للإيمان في رسالة العبرانيين، توجد آية تتحدّث عن أصل هذه المسألة. يقول كاتب الرسالة: "يَجِبُ أَنْ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُوجُودٌ، وَأَنَّهُ يُجَاوِزُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ." نجد هنا رفضاً مقدّماً للمسيحية البرجماتية وغير العقائدية للعصور الحديثة.

أولاً، تقدّم المسيحية باعتبارها مُعتمدة بالكامل على العقيدة؛ إن الذي يأتي إلى الله، لا يجب فقط أن يؤمن بشخصٍ، بل يجب عليه أيضاً أن يؤمن أن أمراً ما حقيقي؛ يُعلن هنا أن الإيمان يتضمّن قبولاً لتصريح ما. لا يمكن أن يوجد إصرار أوضح على الأساس الفكري أو العقائدي للإيمان. بحسب رسالة العبرانيين، يستحيل أن يكون للمرء إيمان بشخصٍ ما دون أن يقبل بعقله الحقائق المرتبطة بذلك الشخص.

يُعتبر التوجّه السائد في الكنيسة المعاصرة مختلفاً تماماً؛ بدلاً من أن يُميّز، مثلما يفعل كاتب رسالة العبرانيين، الأساس الفكري للإيمان، يضع العديد من الوعاظ المعاصرين الإيمان في مواجهة حادة مع المعرفة. يقولون إن الإيمان المسيحي ليس قبولاً لقانون إيمان ما، لكنه ثقة في شخص ما. على الناحية

الأخرى، تُعلن رسالة العبرانيين أنه من المُستحيل أن يكون للمرء ثقة في شخص ما دون قبول إقرار ما. "يَجِبُ أَنْ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُوجُودٌ". إن عبارة "الله موجود" تُنشئ إقراراً ما؛ تُنشئ تصريحاً ما؛ ومع ذلك، تُوضَع هنا باعتبارها ضرورةً للأمر الذي يُفترض أنه غير فكري والذي يُسمى الإيمان. سيكون من المُستحيل إيجاد مُعارضة أكثر اكتمالاً من تلك التي تُظهر هنا بين العهد الجديد والميل المُعادي للتفكير في الوعظ المُعاصر.

لكن هنا ومثل مواضع أخرى تُظهر مصداقية الكتاب المُقدَّس بالارتباط بأوضح حقائق النفس البشرية؛ في حين أن الفصل المُعاصر بين الإيمان بشخص ما وقبول إقرار ما تُظهر عدم صحته نفسياً. بالتأكيد، من الصحيح تماماً أن الإيمان بشخص ما يُعتبر أكثر من قبول إقرار ما، لكن الكتاب المُقدَّس مُحق تماماً في التأكيد على أنه يتضمَّن دائماً قبولاً لإقرار ما. تُعتبر الثقة في شخص ما أكثر من القبول الفكري لمجموعة من التصريحات عن ذلك الشخص، لكنها تتضمَّن تلك التصريحات دائماً، وتُصبح الثقة مُستحيلة عندما تُرفض تلك التصريحات. تُعد الثقة بشخص ما مُستحيلة إلى حد بعيد عندما يُقبل المرء تصريحات تُجعل ذلك الشخص غير جدير بالثقة، أو عندما يفشل في قبول تصريحات تُجعل ذلك الشخص جديراً بالثقة. إن قبول تصريحات مُحددة ليس مُجمل الإيمان، لكنه عنصرٌ ضرورياً في الإيمان. لذلك لا يُعد قبول تصريحات مُحددة عن الله مُجمل الإيمان بالله، لكنه ضروري للإيمان بالله؛ والإيمان المسيحي، بالتحديد، رُغم أنه أكثر من قبول إقرار ما، إلا أنه مُستحيل تماماً بدون قبول إقرار ما. لا يستطيع المرء أن يثق بالله يُعتقد المرء أنه إما غير موجود أو غير جدير بالثقة.

لذلك، تُعد رسالة العبرانيين مُحقة تماماً في تأكيدها على أنه "يَجِبُ أَنْ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُوجُودٌ". لكي نثق بالله أو تكون لنا شركة معه، يجب على الأقل أن نؤمن بأنه موجود.

للوهلة الأولى، قد يبدو ذلك أمراً بديهياً؛ قد يبدو أنه أمر يتحتَّم على كل شخص عاقل أن يقبله. مع ذلك، في واقع الأمر، حتى ذلك التصريح البديهي يُرفض من قِبَل مجموعة كبيرة من الناس في العالم المُعاصر؛ ولقد رُفض من قِبَل العديد من الأشخاص على مدار التاريخ الديني. إن ما حَقَّقته رسالة العبرانيين بواسطة إعلان ذلك التصريح البسيط الذي يقول "يَجِبُ أَنْ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُوجُودٌ"، هو رُفض تلك الظاهرة الهامة في تاريخ الدين والمعروفة باسم الصوفيَّة.

يُعتبر الصوفي الحقيقي أن الشركة مع الله خبرة لا تُوصَف، والتي تُعتبر مُستقلة عن أي تصريحات فكرية من أي نوع. يُعتبر الصوفي أن الدين في صورته الخالصة مُستقل عن الفكر؛ عندما يُوصَف في قالب فكري يتم حجه وتقييده؛ إن تعبيراً مثل هذا لا يُمكن أن يكون أكثر من رمز؛ لا تعتمد الخبرة الدينية في حد ذاتها على قبول أي إقرار من أي نوع. في مُعارضة لذلك التوجُّه الصوفي، يُصر كاتب رسالة العبرانيين

على أولوية الفكر؛ يؤسس المسيحية بشكل مباشر على الحق. بالطبع، لا يرفض الاتصال الغامض والمباشر بين النفس البشرية والله والذي يُعد اتصالاً مقرباً لقلب الصوفي؛ لأن ذلك الاتصال المباشر بين النفس البشرية والله يُعد جزءاً حيوياً في كل الأديان التي لها اسم كبير. لكن كاتب العبرانيين يُحطّم الفصل الصوفي بين تلك الخبرة من ناحية ومعرفة الله من الناحية الأخرى: وبفعله ذلك لا ينطق بحقيقة بديهية بل بحقيقة هامة؛ إنه يُسدّد ضربةً مفيدة للصوفية المعادية للتفكير القديمة والحديثة. في ظل الظروف الحالية، لا يمكن أن يوجد نص أكثر مُلائمة؛ في ظل وجود هذا التصريح المُذهل، بعيد المدى لكن البسيط جداً، يبدو الدين غير العقائدي ليومنا هذا ليس إلا شيء سطحي وعابر.

ليس صحيحاً إذن، بحسب العهد الجديد، أن الدين مُستقل عن العقيدة أو أن الإيمان مُستقل عن المعرفة؛ على العكس، تعتمد الشركة مع الله أو الإيمان بالله على العقيدة المُتعلّقة بوجوده. لكنه يعتمد على عقائد أخرى بالإضافة إلى ذلك. تقول رسالة العبرانيين: "يَجِبُ أَنْ الَّذِي يَأْتِي إِلَى اللَّهِ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُوجُودٌ، وَأَنَّهُ يُجَازِي الَّذِينَ يَطْلُبُونَهُ." في هذا الجزء الأخير من الجملة، لدينا الحقيقة العظيمة المُتعلّقة بشخصية الله، مُعبّر عنها بطريقة مُحددة. وفقاً لرسالة العبرانيين، الله شخصٌ يستطيع العمل في ضوء حُكمه على الذين يأتون إليه. ما يوجد لدينا هنا في الجزء الثاني من الجملة، هو تعبير عما يدعوه الكتاب المُقدّس في مواضع أخرى الإله "الحي". إن الله ليس موجوداً فقط، بل هو أيضاً شخص حُر ويعمل.

تظهر نفس الحقيقة حتى بوضوح أكبر في الآية الثالثة من نفس الأصحاح العظيم. يقول الكاتب: "بِالإِيمَانِ نَفْهَمُ أَنَّ الْعَالَمِينَ أَثْقَنَتْ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، حَتَّى لَمْ يَتَكَوَّنْ مَا يَرَى مِمَّا هُوَ ظَاهِرٌ." ما يوجد لدينا هنا هو عقيدة الخلق من العدم، مُعبّر عنها بوضوح يقول كل ما نتمناه، ويُقال إن تلك العقيدة تُقبل بالإيمان. إنها نفس العقيدة التي تظهر في أول آية في الكتاب المُقدّس، "فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ"، ويُفترض ذلك فعلاً في الكتاب المُقدّس من البداية إلى النهاية. مع ذلك يُقصي الميل الديني المنتشر في الكنيسة المُعاصرة تلك العقيدة إلى دائرة الأمور غير الضرورية. نُسأل: "ما علاقة الدين بفكرة الخلق بواسطة السلطان الإلهي والتي عفا عليها الزمن؟"

الحقيقة هي أننا في رسالة العبرانيين وباقي الكتاب المُقدّس كذلك نحيا في عالم فكري مُعارض تماماً لمُعاداة التفكير الموجودة في يومنا هذا. وفقاً للكتاب المُقدّس، توجد أمور مُحددة معروفة عن الله، وبدون تلك الأشياء لا يمكن أن يكون هنا إيمان. لذلك، يُعد الكتاب المُقدّس مُعارضاً بوضوح للشكوكية البرجماتية الموجودة في العالم الديني المُعاصر؛ إن الكتاب المُقدّس يَتَمَسَّكُ بأولوية التفكير في وَجْه المُعاداة العاطفية للتفكير في جزء كبير من الكنيسة المُعاصرة؛ يُعلِّم بصراحة بأن الله أعطى الإنسان قُدرة على التفكير المنطقي والتي تُمكنه من استيعاب الحق، وحتى الحق بخصوص الله.

لا يعني ذلك أننا باعتبارنا كائنات محدودة يمكننا أن نكتشف الله عن طريق بحثنا الشخصي؛ لكنه يعني أن الله جعلنا قادرين على استقبال المعلومات التي يختار أن يعطيها. لا يمكنني أن أنشئ قصة عن الصين من إدراكي الذاتي الداخلي، لكنني قادرٌ تمامًا على فهم القصة التي تصلني من المسافرين الذين كانوا هناك بأنفسهم. لذلك يُعد بالتأكيد منطقنا غير كافٍ لإخبارنا عن الله إلا إذا أعلن هو عن ذاته؛ لكن منطقنا قادرٌ (أو سيكون قادرًا لو لم يكن مُشوَّشًا بالخطيئة) على استقبال الإعلان عندما يُعطى.

يشمل إعلان الله عن ذاته للإنسان بالتأكيد جزءًا صغيرًا فقط عن طبيعته؛ إن مساحة ما نعرفه ضئيلة مقارنةً بمساحة ما نجهله. لكن المعرفة الجزئية لا تُعد بالضرورة معرفةً زائفة؛ نُقر بأن معرفتنا بالله على أساس إعلانه عن ذاته صحيحة إلى أبعد حد.

يُعتبر الكتاب المقدس أن تلك المعرفة عن الله مُرتبطة بالإيمان بنفس قدر ارتباط المُتطلبات الأساسية للإيمان. وفقًا للكتاب المقدس، يمكننا أن نثق بالله لأنه أعلن عن نفسه بأنه جديرٌ بالثقة. تُعد معرفة الله التي قَدَّمها لنا في نعمته أساسَ ثقتنا به؛ إن إله الكتاب المقدس هو إلهٌ من المنطقي أن يُوثق به.

لكن بالتأكيد لا يمكن قول ذلك عن الإله الذي يُقدَّم من خلال الكثير من التخمين المُعاصر؛ هناك طُرُق للتفكير في الله، والمُنشِرة بشكل واسع اليوم، والتي حتمًا سنُحطم ثقتنا به.

أولًا، يوجد الاعتقاد المُنتشر اليوم بوحدة الوجود، والذي يضع الله في نوع من الاتصال الضروري بالعالم. وفقًا لمنظور الاعتقاد بوحدة الوجود، ليس فقط أن العالم لا يتواجد بدون الله، بل أن الله أيضًا لا يتواجد بدون العالم؛ إما أن يكون الله مُطابقًا لمسار العالم بأكمله أو أنه سيُعتبر مُرتبطًا بمسار العالم مثلما ترتبط نفس الإنسان بجسده. تُعد تلك الطريقة في التفكير مُنتشرة للغاية ومشهورة جدًا؛ تُسمى، في تحريفٍ للحقيقة العظيمة، "مُحايثة" أو اقتراب الله؛ إنها تتغلغل في جزء كبير من الوعظ المُعاصر. سواء صراحةً أم لا، سواء إن كانت شاملة أو موجودة فقط في الميل، يصبغ الاعتقاد بوحدة الوجود الحياة الدينية لعصرنا بشكل كبير. لكن في واقع، سيجعل الحياة الدينية في النهاية مُستحيلة؛ سيجعل بالتأكيد أي شيء يمكن أن يُسمى إيمانًا أمرًا مُستحيلًا. إنه حقًا من المُستحيل أن تتفق بكائن يُفهم على أنه مُجرد مجموع الكون الذي نحن أجزاؤه؛ لكي يثق المرء بالله يجب عليه أن يفكر في الله بصفته شخصًا حيًا ومُتساميًا.

صحيح أن من يعتقدون بوحدة الوجود يُقدِّمون منظورهم باعتبارهم يُحضرون الله بالقرب من الإنسان. يقولون في الواقع: "لن يكون لنا أي علاقة بالإله البعيد الذي تتحدث عنه إقرارات إيمان الكنيسة؛ إن مشكلة اتحاد الله والإنسان، والتي صار معها اللاهوتيون القدامى ولحلها أنشأوا عقيدتهم المُفصلة في الفداء، لا تُعتبر مُشكلةً بالنسبة لنا على الإطلاق؛ يُعد الله بالنسبة لنا أقرب من التنفُّس وأقرب من الأيدي والأرجل؛ تنبض

حياته في حياة كل العالم وفي حياة كل واحد مِنَّا. " لذلك يُستبدل الإيمان بالله بالاعتقاد بوحدة الوجود على أساس أن ذلك الاعتقاد يُقَرِّب الله إلى البشر.

مع ذلك، يكون تأثيره في الحقيقة العكس تمامًا. بدلاً من إحضار الله بالقرب من الإنسان، يقوم الاعتقاد بوحدة الوجود في يومنا هذا بدفع الله بعيدًا جدًا؛ إنه يُقَرِّبه ماديًا، لكنه في نفس الوقت يجعله بعيدًا روحياً؛ يَنَظُر ذلك الاعتقاد إلى الله على أنه نوعٌ من القوة الحيويّة العمياء، لكنه توقّف عن النظر إليه بصفته شخصًا يستطيع أن يُحب ويُمكن أن يثق به الإنسان. دَمِرَ شَخْصِيَّة الله الحُرّة، وستختفي إمكانيّة الدخول في شركة معه؛ لا يُمكننا أن نُحب أو أن نثق في إلهٍ نحن أجزاء فيه.

لذلك، إذا كُنّا سُنحافظ على الإيمان، يَجِب علينا أن نَتَمَسَّك بكل قلوبنا بما تُسمى بالصفات الميتافيزيقية لله - عدم محدوديته وقوته المطلقة ومكانته بصفته الخالق. على سبيل المثال، إن الإله المحدود للأستاذ اتش جي ويلز (H. G. Wells) ولبعض الرجال المُعاصرين الآخرين، يبدو لنا مُدمِرًا للإيمان مثل الإله غير الشخصي لمن يَعتقدون بوحدة الوجود؛ إنه يبدو مُجرد مُنتَج مُثير للفضول من الأساطير المُعاصرة؛ إنه ليس الإله الحقيقي بل مُجرد إله؛ وفي ظل وجود كل تلك التخيّلات نُصبح من ناحيتنا مُلزَمين أن نَتَجّه بتواضع كبير لكن بِحَزْم نحو الروعة العجيبة المُرهبة لغير المحدود ونقول مع أوغسطينوس: "يا الله، لقد خلقتنا لذاتك، ولن ترتاح قلوبنا إلى أن تَجِد راحتها فيك."

إن ذلك التكريس لما تُسمى بالصفات الميتافيزيقية لله، يُعتبر أمرًا غير مشهور في يومنا هذا. يُخبرنا الكثيرون بأنه يَنبغي علينا أن نتوقف عن الاهتمام بالسؤال عن كيف خُلق العالم، أو ماذا سيكون مصيرنا عندما نَعبُر إلى ما بعد القبر؛ لكن يُمكننا أن نَتَمَسَّك بِصَلاح الله رُغم اختفاء مكانته وقُدْرته بصفته الخالق.

يوجد تقديم بارز لذلك المنظور في كتاب دكتور ماكجيفيرت (McGiffert)؛ إله المسيحيين الأوائل (The God of the Early Christians). يُعتبر ذلك الكتاب مُزعج للغاية ونرى أنه خاطئ جدًا. لكنه على الأقل يَتَمَيَّز بشيءٍ نادر في الأدب الديني المُعاصر - أنه كتاب مُثير للاهتمام. إنه عَمَل واحدٍ من أهم الباحثين الأمريكيين، والذي يَمْتَلِك عقلًا حادًا وجذريًا، والذي إن لم يَنجح في حل مُشكلة منشأ الإيمان المسيحي، سَيُؤمِّر على الأقل حقيقة المُشكلة، على عكس الكثير من العقول المُعاصرة. إن كتابٌ مثل هذا، بمعرفته وأصالته، مهما كانت أخطاؤه، يقوم بِفَحْص حريص أكبر بكثير من العديد من الأُرفف الكبيرة للكتب الدينية التقدمة والمُحيِّرة بشكل واضح لكنها تقليدية فعلاً بشكل كبير والتي تُعتبر مشهورة جدًا الآن.

يُعد دكتور ماكجيفيرت نفسه مُدافعًا عن "الإيمان الأخلاقي بالله"، والذي يَتَبَع كثيرًا بالتأكيد عما يُمكن التأكيد بأن تعبير "الإيمان بالله" يعنيه. يقول ماكجيفيرت إن السؤال عن كيف أتى العالم إلى الوجود هو مسألة غير مُهمّة للمسيحية، كما هو الأمر في السؤال عن قوة الله في العالم المادي. في الواقع، يقول إننا

نحن المُعاصرون مع أننا لم نعد مُهتمين بقوة الله، يُمكننا أن نؤكد على الأقل بإيماننا بصلاحه، وبفعلنا ذلك يُمكننا أن نكون مُتدينين.

لكنه، يُعتبر باحثًا جيدًا بحيث لا يفترض أن ذلك "الإيمان الأخلاقي بالله" والذي يُخالف الإيمان بالله يُعلم به في العهد الجديد؛ يُقر بأنه بالطبع لم يُعلم يسوع به. على العكس، يقول إن عقيدة يسوع عن الله لم تكن عقيدة حديثة؛ كانت ببساطة العقيدة اليهودية التي وجدها موجودة بالفعل؛ وضعت تلك العقيدة تشديدًا كبيرًا على سيادة الله، وسلطة الخالق المطلقة على مخلوقاته، ووضعت تشديد كبير على صرامة الله الشديدة لا على محبته. بكلمات أخرى، يعترف دكتور ماكجيفيرت -رغم أن مُصطلحاته مُختلفة بشكل ما- بأن يسوع كان "مؤمنًا بالله" بحسب المعنى المعتاد للكلمة؛ إن الصورة العاطفية عن "يسوع الليبرالي" مع منظوره "العملي" عن الله والذي لم يكن نظريًا أيضًا. ومع تشديده أحادي الجانب على أبوة الله في مواجهة على حساب عدله، يتم تنحيتها جانبًا بحزم. لقد قرأ دكتور ماكجيفيرت الأناجيل بنفسه، ويعرف بكفاءة تامة، كم تُعتبر تلك الصورة عن يسوع غير تاريخية.

وفقًا للدكتور ماكجيفيرت، كان بولس أيضًا مؤمنًا بالله؛ لقد تمسك بولس بالمنظور اليهودي عن الله والذي علم به يسوع، لكنه أضاف إلى ذلك المنظور عبادة يسوع بصفته إلهًا مُخلصًا. لكن -وهنا نأتي فعليًا إلى الأطروحة المُتميزة لكتاب ماكجيفيرت- المسيحيين الأُمميين أصحاب العقول البسيطة البدائية في الأيام الأولى، على عكس يسوع وعلى عكس بولس، كانوا، بحسب الدكتور ماكجيفيرت، غير مؤمنين بإله واحد؛ لقد اعتبروا يسوع مُخلصهم دون أن يكونوا مُهتمين بإنكار وجود مُخلصين آخرين؛ كانوا بالتحديد مُهتمين بالربط بين يسوع وخالق العالم وحاكمه.

لا يتعلّق الأمر المُثير للاهتمام بخصوص هذه النظرية المُتميزة بأي احتمالية لصحتها، لأنه ليس من الصعب حقًا أن نُفند؛ بل يتعلّق في الربط بين النظرية ومُجمل الميل المُعادي للتفكير الموجود في العالم الديني المُعاصر. مثلما فعل أغلب الحداثيين، تخلّى الدكتور ماكجيفيرت عن أي اعتقاد واضح بالإيمان بالله؛ لقد توقّف عن تأسيس ديانته على الخالق والحاكم السامي للعالم: مع ذلك يرغب في التمسك بنوع من الاستمرارية بينه وبين كنيسة المسيحيين الأوائل. ويقوم بذلك عن طريق اكتشاف مسيحية أُممية لا تؤمن بإله واحد والتي تُعد مُشابهة لمسيحيته من جوانب هامة. لا يتعلّق الأمر المُثير للاهتمام بخصوص كتابه بالفرضية نفسها على قدر ما يتعلّق بالطريقة التي يُسمح بها لافتراضات الكاتب بالظهور في عرض أطروحة الكتاب.

يتّضح خطأ تلك الافتراضات في نقاط عديدة. يُعتبر الفصل بين "الخلاص" والإيمان بالله بالتحديد خاطئًا - فصلٌ يحدث مرارًا وتكرارًا في ذلك الكتاب. يقول الكاتب: "أنه كان هناك مُفكرين فلاسفة مُنجذبين نحو

الإيمان التوحيدي لليهود وصاروا مسيحيين بسبب ذلك، هو أمر حقيقي بلا شك، لكنهم كانوا إلى حد كبير من الأقلية، ولم ينجذب العالم الروماني إلى المسيحية عن طريق أي اهتمام لاهوتي من ذلك النوع. علي العكس، لقد جذب الإيمان بالمسيح وخلصه حينها الجماهير، مثلما جذب جموع كثيرة في كل عصر منذ تلك الفترة. "وفقًا للكاتب، كان ذلك انحدارًا -وهو التضمين الواضح في الكتاب- عندما "توقفت المسيحية عن أن تكون مجرد دينًا عن الخلاص -مجرد دينًا يُخلص- وتوقفت المسيح عن أن يكون مجرد مُخلص؛" عندما أصبح بدلًا من ذلك "خالقًا، وحاكمًا، وديانًا لكل الأرض."

إن ذلك الفصل بين الإيمان بالله والخلاص يتجاهل الحقيقة البسيطة القائلة بأنه لا يمكن أن يوجد خلاص دون وجود شيء يخلص منه الإنسان. إذا كان يسوع يخلص المؤمنين، فما يخلصهم؟ يبدو أن الدكتور ماكجيفيرت لا يطرح ذلك السؤال إطلاقًا. لكن الإجابة عليه واضحة بشكل واسع، وتُحطّم إعادة البناء بأكملها والتي يُحاول أن يصنعها ذلك الكتاب ببراعة. أليس من الواضح بشكل واسع أن المسيح يخلص المؤمنين من الخطيئة، ومن العواقب التي تنسب الخطيئة فيها أمام عرش الدينونة الإلهية؟ وأليس من الواضح أيضًا أن ذلك هو الأمر الذي انجذب بشدة إليه الأشخاص البسيطة في القرن الأول، كما ينجذب بشدة إليه الكثير من الأشخاص اليوم؟ إن الحقيقة هي أنه من المستحيل إلى حد كبير أن يُفكر المرء في المسيح بصفته مُخلصًا دون التفكير في الأمر الذي يخلص منه؛ تنتشر عدالة الله في كل الحقائق المتعلقة بكون المسيح مُخلصًا. مما لا شك فيه أن الأشخاص المعاصرين، خصوصًا في الدوائر التي يتحرك فيها الدكتور ماكجيفيرت، فقدوا الإحساس بالخطيئة والذنب ومخافة عرش الدينونة الإلهية المهيبة. لكن يتزامن مع تلك الخسارة التخلي العام حتى لكلمة "الخلاص"، لتجنب قول أي شيء عن الفكرة. بدون الشعور بالخطيئة والخوف من الجحيم، ربما تكون هناك رغبة للتحسين، أو "النهوض"، أو التحسن؛ لكن نتكلم بشكل صحيح، لن تكون هناك رغبة في "الخلاص". لا تقوم الحادثة فعلاً "بقراءة المسيحية من حيث الخلاص"، لكنها تقرأ الخلاص بعيدًا عن المسيحية. إنها عادة تتخلى حتى عن كلمة "الخلاص". لأن الخلاص يفترض أن هناك أمر يخلص منه الإنسان؛ يفترض الغضب الهائل لإله عادل؛ بكلمات أخرى، يفترض الخلاص الأمر الذي يُعتبر أن الحادثة، التي لا تؤمن بوجود الله والتي يُقدّمها الدكتور ماكجيفيرت وآخرون، مُتحمّسة للغاية لرفضه. كان الموقف في الأيام الأولى للكنيسة مختلفًا تمامًا. لقد فقد الأشخاص المعاصرون الإحساس بالذنب والخوف من الجحيم، لكن المسيحيين الأوائل، سواء يهود أو أمم، لم يفقدوهما. لقد قبلوا المسيح بصفته مُخلصًا فقط لأنه يستطيع أن يُنقذهم من الهاوية ويُدخلهم في علاقة صحيحة مع حاكم وقاضي كل الأرض. لقد كانت عظمة وعدل الله، على الدوام، ضمن عمل المسيح الخلاصي.

يوجد تمييز آخر في قلب تفكير الدكتور ماكجيفيرت طوال الوقت، وهو تمييز خاطئ بشكل أكثر جذرية - التمييز الذي تمت الإشارة إليه بالفعل وهو "بين إله الأخلاقيات وإله القوة المادية." بحسب هذا التمييز،

يقول الدكتور ماكجيفيرت، كما رأينا بالفعل، إن مسألة كيف أتى العالم إلى الوجود تُعتبر أو ينبغي أن تُعتبر غير مُهمة للمؤمنين؛ يعتقد أن عقيدة الخلق تنتمي إلى منطقة ميتافيزيقيّة لا ترتبط بما يحتاجه الدين. ويُعتبر القضية مُماثلة حقًا عندما يتعلّق الأمر بعقيدة العناية الإلهيّة؛ يعتقد الكاتب بوضوح أن مُجمل فكرة قوة الله، كما تتميّز عن صلاح الله، يُمكن فصلها إلى حد كبير عن المسيحيّة؛ يعتقد أننا نستطيع أن نُؤكّر صلاح الله دون أن نهاب قوته أو نَعتمد على حمايته من الأمراض الجسديّة.

يُمكن تبرير تلك الشكوكيّة أو لا يُمكن تبريرها - لن نتعامل مع ذلك السؤال الكبير الآن - لكن المسيحيّة بالتأكيد ليست غير مُبالية بالأمر. عندما تتخلّى عن فكرة خالق وحاكم العالم وتقول، مثلما يتحتّم عليك إذا قبلت منظور الدكتور ماكجيفيرت، إن "الرفيق الأعظم قد مات"، وسيُمكنك مع ذلك أن تحتفظ بشيء من الحماسة الدينيّة وسط قلة من النفوس الفلسفيّة. لكن جموع البشر المتألمين، على أي حال، سيضيعون وسيكونون بلا رجاء في عالم عدواني. ويُعتبر تقديم تلك الأشياء كمسائل غير مهمة للمسيحيّة، مثل أن يُغلق المرء عينيه عن أعمق الأشياء لقلب الإنسان. هل تُعد عقيدة الخلق بالفعل مسألة ليست لها أهميّة دينيّة؟ هل يُمكن للمسيحي أن يُؤكّر الله بحق دون السؤال عن كيف أتى العالم إلى الوجود ومن الذي يحفظه في مساره؟ هل العالم المُعاصر مُخطئ، وهو يسعى في أبحاثه في قوانين الطبيعة، يصل في مجهوداته إلى ستار لا يُرفع أبدًا ويقف في رهبة مُتواضعة أمام لغز يُوبّخ كل كبرياء؟ هل كان إشعياء مُخطئًا عندما رفع عينيه إلى السماء المُزينة بالنجوم وقال: "ارْفَعُوا إِلَى الْعَلَاءِ عُيُونَكُمْ وَانْظُرُوا، مَنْ خَلَقَ هَذِهِ؟ مَنْ الَّذِي يُخْرِجُ بَعْدَ جُنْدَهَا، يَدْعُو كُلَّهَا بِأَسْمَاءٍ؟ لِكثَرَةِ الْقُوَّةِ وَكَوْنِهِ شَدِيدِ الْقُدْرَةِ لَا يُفْقَدُ أَحَدٌ؟" هل كان يسوع مُخطئًا عندما أوصى تلاميذه بأن يتقوا بمن يُلبس زنابق الحقل وقال: "لَا تَخَفْ، أَيُّهَا الْقَطِيعُ الصَّغِيرُ، لِأَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ سَرَّ أَنْ يُعْطِيَكُمْ الْمَلَكُوتَ؟"

يُمكن أن يُقدّم الفلاسفة تلك الإجابات أو غيرها على هذه الأسئلة، لكن إجابة القلب المؤمن بأي حال واضحة. يصرخ قائلاً: "ابعدوا عني كل الأفكار المُجرّدة الباهتة، ابعدوا عني كل اعتقاد بوجود ثنائيّة بين إله القوة وإله الصلاح، ابعدوا عني ماركسيون (Marcion) وأتباعه المُعاصرين الكثيرين، ابعدوا عني أولئك الذين يتحدّثون عن صلاح الله لكنهم يُجرّدونه من قوته. بالنسبة لنا نحن المؤمنين، ما زلنا نقول، بينما نتأمّل ذلك الحقل الأخضر الذي يلمع في الشمس وتلك الغابات المُظلمة التي يلمسها تألّق الخريف وتلك القُبّة السماويّة الزرقاء بالأعلى - ما زلنا نقول، رُغم الكل، بأن ذلك هو عالم الله، والذي خلقه الله بِسُلْطَانٍ مشيئته، وأنه من خلال نعمة المسيح نحن بأمان إلى الأبد في أحضان أبينا السماوي."

لكن ما الذي يتبقي لنا عندما يَخْتفي أبونا السماوي وفقًا للدكتور ماكجيفيرت؟ تُعتبر الإجابة التي يُقدّمها واضحة. في الواقع يُقال لنا: "يتبقي لنا الصلاح، لا نعلم كيف أتى العالم إلى الوجود، لا نعلم ماذا سيكون

مسيرنا عندما نَعْبُرُ بوابات الموت المظلمة. لكن يُمكننا إيجاد عبادة نزيهة سامية -تبدو أسمى من العبادة التي قَدَّمها يسوع- في توقيير الصلاح المنفصل عن الزخارف الشعبيَّة للقوة."

إنها تبدو إجابة نبيلة في البداية. لكن تأمَّلْ فيها للحظة، وسيتحوَّل مجدها إلى رماد وستترُكنا في يأس. ما المقصود بصلاح ليس له قوة ماديَّة؟ ألا يُعتبر "الصلاح" في ذاته أكثر الأفكار المُجرَّدة تجريديًا؟ أليس الصلاح بلا معنى تمامًا إلا عند ارتباطه بشخص؟ ألا تتضمَّن فكرة الشخص نفسها امتلاكه القوة لأنَّ يَعمل؟ إذن الصلاح المنفصل كليًا عن القوة ليس صلاحًا على الإطلاق. وإذا كان ذلك صلاحًا، فلن يَعمَلْ لنا أي شيء - إذ نحن موجودون في هذا الكون المادي، والذي يَقدِر أن يُدَمِّرنا في مسيرته التي لا تهدأ. إن الحقيقة هي أن ذلك التجريد المُفْرِط دَمَّرَ حتى ذلك الأمر الذي حاول الحفاظ عليه. قدَّم الله باعتباره صالحًا فقط وليس قويًا، وحينها سيَنَدَمُّ فعلاً كلُّ من الله والصلاح.

بسبب إدراكهم لهذا الاعتراض، حتى وإن لم يفهموه بشكل كامل، أن الصلاح سيكون فكرةً مُجرَّدة فارغة إلا إذا كان مُتأصِّلًا في شخصٍ صالح، حاول الكثير من الأشخاص المُعاصرين أن يُعطوا توقييرهم للصلاح نوعًا من القوام عن طريق إيجاد رمزٍ لهذا الإيمان "الأخلاقي" بالله (والذي يُخالف الإيمان بالله بكل وضوح) في شخص يسوع الناصري. "يقرأون المسيحيَّة فقط من حيث الخلاص" ويَعتبرون الإنسان يسوع إلههم الوحيد. لكن من هو يسوع هذا الذي يجعلونه تجسيدًا للصلاح الذي يُوقِّرونه؟ إنه بالتأكيد ليس يسوع العهد الجديد؛ لأن يسوع ذاك أصرَّ على كل شيء يرفضه أولئك المُعاصرون. لكنه ليس حتى يسوع الذي تُقدِّمه إعادات التَصور المُعاصرة؛ لأنه كما أظهر الدكتور ماكجيفيرت في وضوح مُدَمِّر، أن حتى يسوع ذاك تَمَسَّكَ بنوع الإيمان بالله الذي يرفضه الأشخاص المُعاصرون بمثل هذا الاحتقار. إن الحقيقة هي أنه من المُستحيل على هؤلاء الأشخاص حتى أن يَروا يسوع بصفته الإنسان السامي، حتى بصفته التجسيد الأسمى لذلك الصلاح المُجرَّد الذي تسعى الحداثة إلى توقييره. لأن يسوع الحقيقي لم يَضَعْ الآب السماوي خالق العالم وحاكمه فقط في قلب تفكيره بل في قلب حياته أيضًا.

إذن، هل تَقْرَأُ الحداثة في يومنا هذا المسيحيَّة فقط من حيث الخلاص وتَعتبر الإنسان يسوع إلهها الوحيد، لتتخلَّى عن أي فكرة بوجود استمراريَّة بينهم وبين الأمجاد المُبَكِّرة للكنيسة؟ هنا يأتي الدكتور ماكجيفيرت باقتراح به رجاء. بالتأكيد، يتخلَّى عن الإجابات السابقة على السؤال؛ يُدَمِّر بلا شفقة الرضا الداخلي للذين افترضوا أن التاريخ المُبَكِّر للمسيحيَّة باستخدام مبادئ ماديَّة يُعتبر واضحًا ومُستقرًا بشكل كامل؛ رمى المُشكلة التاريخيَّة مُجددًا في حالة من التقلُّب. لذلك نُرجِّب بكتابه الرائع والمُحفِّز على التفكير. نعتقد أن مثل تلك الكُتب عن طريقة راديكاليَّتها نفسها، وعن طريق سَعْيها وراء فَرَضِيَّات مُتجددة دائمًا، وعن طريق العَرَض الذي يتحمَّلون تكلفته لفشل إعادات التَصور الماديَّة -خصوصًا إعادات التَصور الخاصة بهم- قد تُؤدِّي في النهاية إلى التخلِّي عن المجهود المُرهق، والعودة إلى التأسيس البسيط للتاريخ المسيحي على

العمل الإلهي فوق الطبيعي. لكن، في غضون ذلك، يأتي الدكتور ماكجيفيرت إلى كنيسة الحداثة ومعه كلمة تشجيع. في الواقع، يقول إنه لا ينبغي التخلي عن الاستمرارية مع المسيحية البدائية حتى لصالح مسيحية غير لاهوتية أو مخالفة للإيمان بالله والتي تبدو للوهلة الأولى غير بدائية بالتأكيد.

نعتقد أنه سيكون خطأ كبيراً أن نتجاهل تلك الإشارة العملية في الكتاب. مما لا شك فيه أنها غير مقصودة بشكل كبير؛ يكتب الدكتور ماكجيفيرت بلا شك بأكثر مجهودٍ جاد اتباعاً للموضوعية العلمية. لكن لا يوجد مؤرخ بلا افتراضات مسبقة تماماً؛ وتُصرّح الافتراضات المسبقة لهذا المؤرخ بأن المسيحية المخالفة للإيمان بالله هي أكثر شيء طبيعي في العالم. وبالتبعية، كما فعل العديد من المؤرخين البارزين، وجدّ الدكتور ماكجيفيرت ما كان يتوقّع إيجاده. على أساس فلسفة هيغل (Hegel) التي يتبعها، وعن طريق عناصرها المتمثلة في "الأطروحة، والأطروحة المضادة، والأطروحة المركبة"، توقّع باور (Baur) إيجاد صراع في العصر الرسولي مع وصول حلول وسطية وتسويات مُتدرجة. ولذلك وجدّ تلك الظاهرة مؤكدة بشكل كافٍ - في تحدٍ للحقائق، لكن في اتفاق مع فلسفته. بشكل مشابه، توقّع الدكتور ماكجيفيرت على أساس شكوكيته البرجماتية، أن يجد بشكل ما في الكنيسة الأولى نوعاً من الحياة الدينية مُشابهاً لحياته هو.

ما السبب في أنه رغم اعتراف هذا المؤلف بهشاشة العديد من حُججه إلا أنه "لا يستطيع مقاومة الاستنتاج بأنه كان هناك مثل تلك المسيحية البدائية" بخصوص ما وصفه بالفعل؟ إن الإجابة واضحة. إن السبب هو أنه يبحث عن سابقة في المسيحية المبكرة للحداثة المخالفة للإيمان بالله التي هو نفسه يدعمها. لقد وجدّ آخرون سوابق لها في العهد الجديد - وحتى في كتابات بولس. لكن الدكتور ماكجيفيرت يُعد باحثاً أفضل بكثير من أن يرضى بأي حل مثل ذلك. مع ذلك، وجدها البعض في يسوع، ولذلك أطلقوا صيحة "لنرجع إلى المسيح". لكن الدكتور ماكجيفيرت قرأ الأناجيل بنفسه، ويعرف جيداً مدى عدم صحة ذلك الاستناد من قبل الوعاظ الحداثيين المشهورين إلى كلمات الشخص الذي يدعونه "المعلم". وبرفض تلك المطالبات التي يتضح عدم صحتها، يُجبر ذلك الكاتب على أن يجد ما يبحث عنه في التقوى غير الحرفية وغير المفصلة، وغير المؤنّقة بالطبع، للمؤمنين الأمم الأوائل. في الواقع يقول لزملائه الحداثيين: "ها هي مسيحيتنا أخيراً؛ وفيها يوجد الأصل الروحي لديانة تقرأ المسيحية بشكل حصري من حيث الخلاص ولن تكون لها أي "علاقة بالخلق السيادي" أو العدالة الإلهية أو السماء أو الجحيم أو الإله الحي القدوس". ولذلك، بالنسبة لصيحة الليبرالية القديمة: "لنرجع إلى المسيح" - ثِق أن الدكتور ماكجيفيرت أسكتها نهائياً - من الواضح أنه تم استبدالها بصيحة "لنرجع إلى المسيحيين الأمم غير المؤمنين بالله الذين قرأوا المسيحية فقط من حيث الخلاص ولم يكونوا مهتمين بالفكر اللاهوتي أو الله". لكن إذا كانت هذه هي الصيحة، فإن المشهد مُظلم جداً. سيكون أمراً مُحزناً لو أن استمرارية المسيحية يُمكن أن تُتخذ فقط عن طريق الاستناد إلى

المسيحيين الأمم غير المؤمنين بالله. لأن أولئك المسيحيين الأمم غير المؤمنين بالله لم يكونوا موجودين أبدًا.

إن الحقيقة هي أن ذلك الدين المُعادي أو المُخالف للإيمان بالله في يومنا الحالي -والذي يُرَوِّج له الكثير من الوعاظ ويدعمه باحثون مثل مؤلف الكتاب الذي كنا نتحدث عنه للتو- الدين الذي، على الأقل من حيث أحد أهم أشكاله المُمَيَّزة، يَعتبر الإنسان يسوع بحسب إعادة التَصور الطَبيعيَّة إلهه الوحيد، سيتحتم عليه أن يَعمد على نفسه. لا يوجد بوضوح على أي حال إلا القليل بينه وبين الكنيسة التاريخيَّة. لأن الكنيسة لا تقدر أبدًا أن تتخلَّى عن إيمانها بالآب السماوي الذي علَّم يسوع تلاميذًا أن يُحبوه.

يوجد ببساطة إذن الإيمان بوجود الله في قلب الإيمان بالله كما يُعلِّمه الكتاب المُقدَّس: أي الإيمان بأن الكون خُلِق ويُحفظ بواسطة كائن شخصي ويعتمد عليه الكون لكنه لا يعتمد على الكون. إن الله بالتأكيد بحسب المنظور المسيحي، قريبٌ من العالم، لكنه أيضًا مُتميِّز شخصيًّا عن العالم، وعن الكائنات المحدودة التي خلقها. يُعتبر سمو الله -والذي يدعوه الكتاب المُقدَّس "قداسة" الله- أساسًا للإيمان المسيحي. يثق المؤمن بالله، لأن الله سُرَّ بأن يُعلن نفسه بصفته شخصًا من المنطقي أن يُوثق به؛ يستند الإيمان بالله على المعرفة.

بالتأكيد لا تُزيل تلك المعرفة شعورنا بالانبهار في محضر الله، بل ينبغي أن تُعمِّقه إلى أن تُؤدِّي إلى رهبة لا تنتهي. لقد أُعلِنَت لنا بعض الأشياء عن الله، وتُعد أعظم الأشياء التي استقبلها عقل الإنسان على الإطلاق؛ لكن كم هي محدودة مُقارنةً بالعجائب غير المعروفة والتي لا تنتهي! إذا أزلت معرفة الإنسان بالله شعوره بالانبهار في محضر الإله غير المحدود، فهو بذلك يُظهر أنه لم يبدأ في أن تكون له معرفة حقيقيَّة على الإطلاق.

مع ذلك، لا تُعتبر المعرفة الجُزئيَّة بالضرورة خاطئة؛ ومع أن معرفتنا الجُزئيَّة عن الله تترك أسرار واسعة غير معروفة، إلا أنها كافية لأن تكون أساسًا للإيمان. يستطيع المؤمن أن يقول، إن كان هذا الإله معنا، فمن علينا؟ إن هذا الإله هو إله يستطيع الإنسان أن يثق به.

سيكون من الجيد أن نتوقَّف عند هذه النُقطة لبعض الوقت أمام النص الموجود في الأصحاح الثامن من رسالة رومية، والذي اقتبسناه للتو. يقول بولس: "إِنْ كَانَ اللَّهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟"

تُمثِّل تلك الكلمات صيحة معركة حقيقيَّة للإيمان؛ ربما كانت شعارًا لأفعال بطوليَّة لا تُعد. من خلال ثقتهم في إله إسرائيل، حارب الرجال معارك قويَّة وفازوا بانتصارات مجيدة؛ إن رَبَّ الجنود حليفٌ قويٌّ.

لقد اعتقد يوناثان ذلك، عندما قام مع حامل سلاحه بمحاولة مجازفة لاقتحام كتيبة للفلسطينيين. "فَقَالَ يُونَاثَانُ: لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلرَّبِّ مَانِعٌ عَنْ أَنْ يُخَلِّصَ بِالْكَثِيرِ أَوْ بِالْقَلِيلِ." لقد اعتقد داود ذلك، ومعه خمسة حجارة مُلَس من الوادي أمام عدوه المُتفاجر. "فَقَالَ دَاوُدُ لِلْفِلِسْطِينِيِّ: أَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ بِسَيْفٍ وَبِرُمَحٍ وَبِئْرُسٍ، وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ بِاسْمِ رَبِّ الْجُنُودِ إِلَهٍ صُفُوفِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ عَيَّرْتَهُمْ." لقد اعتقد أليشع ذلك، عندما حوَصِر هو وخادمه في دوئان. لقد سعى جيش أرام للقضاء على حياة أليشع؛ إذ كشف مخططاتهم لملك إسرائيل؛ وأخيرًا استطاعوا مُحاصرتَه. عندما قام خادم رجل الرجل في الصباح، كان جنود أرام يُحاصرون المدينة. "فَقَالَ غَلَامُهُ لَهُ: آه يَا سَيِّدِي! كَيْفَ نَعْمَلُ؟" لكن النبي لم يَضْطرب. "وَصَلَّى أَلِيشَعُ وَقَالَ: يَا رَبُّ، افْتَحْ عَيْنَيْهِ فَيُبْصِرَ. فَفَتَحَ الرَّبُّ عَيْنِي الْغَلَامِ فَأَبْصَرَ، وَإِذَا الْجَبَلُ مَمْلُوءٌ" لا بجيوش أرام وحده بل كان مَمْلُوءًا "خَيْلًا وَمَرْكَبَاتٍ نَارٍ" لتقديم الحماية الإلهية. لقد اعتقد الرُّسُل أن الله حليفٌ قوِيٌّ، عندما قدَّموا شهادتهم في مجمع اليهود قائلين: "يَنْبَغِي أَنْ يُطَاعَ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنَ النَّاسِ." لقد اعتقد لوثر ذلك، في ذلك اليوم التاريخي عندما وقف أمام ملوك وأمراء وقال فيما معناه: "هذا هو موقعي، لا أستطيع أن أُغَيِّرَه، لِيُساعدني الله! أمين."

لقد أعلِنَتْ يد الله في تلك اللحظات العظيمة في التاريخ. لكن للأسف، الأمر ليس واضحًا دائمًا. لقد حوَصِر العديد من الأنبياء الحقيقيين مثل أليشع بواسطة جيوش الأعداء، لكن لم تظهر أي خيول أو مركبات نارية من حولهم؛ إِنَّ خمسة حجارة مُلَس، حتى إذا تم إطلاقهم في اسم رب الجنود، لن تكون قادرة دائمًا على مواجهة الأسلحة الحديثة؛ إن الكثير من رجال الله بمثل شجاعة بطرس، وبمثل قوة لوثر، شهدوا بأمانة عن الحق، ولأنهم لم يكونوا محروسين بقبول الناس أو بغملائيل حكيمة، أو بواسطة حُكام ساكسونيا الودودين، واجهوا المخاطر التي تَصُرُّهم. ولا يبدو من الحقيقي دائمًا، أن دماء الشهداء هي بذار الكنيسة. يبدو أن الاضطهاد يَتَوَجَّح أحيانًا بنجاح كبير. مثلما طُرِدَت الديانة النقيَّة بشكل كبير بواسطة استخدام الأسلحة المادية من إيطاليا وإسبانيا وفرنسا، كثيرًا ما يبدو أن دماء الشهداء تُسفك بلا هباء. علاوة على ذلك، ما يُعد صحيحًا في ساحة واسعة من التاريخ، يُعد صحيحًا أيضًا في حياتنا العملية. أحيانًا في أوقات الأزمات الروحية الكبيرة، تُعلن يد الله؛ كانت هناك إجابة بارزة للصلاة؛ لقد أتى الإنقاذ بطرق عجيبة عندما لم يكن مُتَوَقَّعًا. لكن في أوقات أخرى، يبدو أن صلوات بنفس مستوى الصِدق لا تُجَاب، ويبدو أن الإيمان سرابًا.

نُجَرَّب أحيانًا في حيرتنا بأن نُفكر في إلها كما فُكِّر فيه أعداء شعب إسرائيل في إحدى المرات. قالوا في إشارة عن شعب إسرائيل: "إِنَّ آلِهَتَهُمْ آلِهَةٌ جِبَالٍ، ... وَلَكِنْ إِذَا حَارَبْنَاهُمْ فِي السَّهْلِ فَإِنَّا نَقْوَى عَلَيْهِمْ." نُجَرَّب أحيانًا بأن نقول إن إلها يستطيع أن يُساعدنا في بعض ظروف الحياة؛ لكن في أوقات أخرى، سواء بسبب نقص القوة أو غياب الرغبة - لا يصنع ذلك فرقًا كبيرًا - يَفْشل الله. نقول إن المسيحية ستُساعد أحيانًا؛ لكن هنا مشكلات تتطلب مُساعدة أكبر؛ إن إلها إله جبال، لكن احذر أيها المؤمن من الوادي.

إن تلك الشكوك، مثل التي في النص الذي أشارنا إليه، تُتَحَّى جانبًا بشكل رائع. يقول بولس: "إِنْ كَانَ اللَّهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟" قد لا ينال التحدي الذي في ذهن الرسول بولس إجابة؛ إن كان الله معنا، فلا يوجد أحد علينا أو ضدنا - لا يوجد أحد ضدنا على التل أو في الوادي، وسط الغيوم أو في الشمس المشرقة، في الموت أو الحياة، في الأشياء الحاضرة أو المُستقبلَة.

إن هذا الإيمان رائع؛ إنه إيمان بطولي؛ يُشعل الخيال ويُحرِّك الإرادة. للتأكيد، إنه أمرٌ مجيد عندما يَقِف رجلٌ قوي مع الله ضد العالم! لكن الروعة المُجرَّدة ليست كافية، ويَبْقَى هناك شكٌ مُختبئ. إن إيمان بولس رائع، لكن هل يؤسِّس على حقيقة مُترنة؟ هل الله، كما نعرفه، كافٍ فعلاً، لا لبعض احتياجاتنا بل لجميعها؟

تعتمد إجابة ذلك السؤال بوضوح على ما نَعْتَقده عن الله. إن كان الله إلهاً فقط لقبيلة تعيش في الجبال، كما اعتقد أولئك الأعداء الذين جاء ذكرهم في الأصحاح العشرين من سفر الملوك الأول، فإذن لا نستطيع أن نتوقع منه أن يُحارب لأجلنا في الوادي. بالتأكيد اختفى ذلك الإيمان بتعدد الإلهة تماماً والذي كان أولئك الأراميون يتبنونه؛ غالباً قد يجعل المرء يضحك. لكن أخطاء أخرى، رغم تهذيبها، تُعد مُهلكة بنفس القدر للتعزية الآتية من كلمات بولس. توجد طُرق للتفكير في الله، ومُنْتشرة بشكل واسع اليوم، والتي تجعل قيمة الله بنفس قيمة إله محلي للجبال الإسرائيليَّة أو حتى أقل.

لقد ذُكرت بالفعل بعض طُرق التفكير تلك. على سبيل المثال، هناك المنظور الشائع الذي يجعل الله مُطابقاً لمُجمل العالم المخلوق. تُطلق عدة أسماء على ذلك المنظور، والأكثر شيوعاً عندما لا يُطلق عليه أي اسم. من الأفضل أن يُسمَّى وحدة الوجود. لكن ينبغي ألا نَحْيِر بسبب مُصطلح تقني؛ أيًا ما كانت أفكارنا حول الاسم، يُعد الفكر نفسه غير محدود بالفلاسفة. يُدعى أحياناً "الفكر اللاهوتي الحديث"؛ يُدعى أحياناً (على نحو زائف إلى حد كبير) عقيدة "الاقتراب" الإلهي. لكن على أي حال، من الخطأ أن يعتقد المرء أن ذلك يؤثر على قاعة الدراسة فقط؛ على العكس، إنه يؤثر على الرجل العادي وعلى الباحث أيضاً، ولا على من يقف خلف المنبر فقط بل أيضاً على من يجلس في مقاعد الكنيسة. يكاد يكون أمراً مُهيماً في الحياة الدينيَّة ليوثنا هذا؛ يستطيع القليلون منا أن يهربوا بالكامل من تأثيره. بالتأكيد، لا يُعتبر أمراً حديثاً؛ بدلاً من أن يكون "إعلاناً جديداً" وهو الأمر الذي يُوصَف به أحياناً، يُعد قديماً بنفس قَدَم الجبال؛ على مدار آلاف السنين، كان يَعْمَل في العالم، على جَعَل الإحساس الأخلاقي يَتَبَدَّل، وعلى تخريب الحياة الدينيَّة للإنسان. لكنه لم يَكُن أبداً قوياً مثلما هو اليوم.

نَجِد أنفسنا في هذا العالم في وسط مَسَار جَبَّار. يظهر في عجائب السماء المُزيَّنة بالنجوم، ويظهر بنفس درجة الروعة من خلال الميكروسكوب. يظهر في المواسم المُتعاكبة، وفي إنجازات العقل البشري. نقف أمامه في رهبة؛ نتعجَّب من ضآلتنا؛ ما نحن إلا أجزاء ضئيلة في شيء مُجمل هائل. ولذلك الشيء الهائل،

للمسار الكوني الشامل، والذي نَعَلَمْنَا نحن العصريون بوضوحٍ جديد أن نعتبره شيء واحد، وينسب من يؤمن بوحدة الوجود إليه اسم الله المهيّب. لم يَعد يُنظر إلى الله بصفته مُخترعاً مُنفصلاً عن ماكينته؛ يُنظر إليه على أنه لا شيء سوى الكون نفسه، الكون الذي لا يُدرك في اظهاراته الفرديّة، لكن كشيء مُجمل هائل.

من لا يقبل المُناشدة التي يُقدّمها هذا المنظور؟ لقد حتّ بعض التفكير الأكثر عُُمقاً وألهم بعض من أفضل الشعر البشري.

لكنه لا يحوي أي عزاء للنفوس المظلومة والمُثقلة. إن كان الله مُجرد اسم آخر لمجموع الأشياء، فعندما يكون لدينا الله لا يكون لدينا شيء لم يَكُن عندنا من قبل. لن يكون هناك إذن أي احتكام منطقي من العالم إليه؛ عندما يُسيء العالم مُعاملتنا، لن توجد نَجدة لنا، لأن "إلهنا" لدينا بالفعل. "إِنْ كَانَ اللَّهُ مَعًا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟" – لم يَقل تلك الكلمات شخصٌ يؤمن بوحدة الوجود، بل شخص يستطيع أن يحتمك منطقيًا من الطبيعة إلى إله الطبيعة.

إن ذلك الاحتكام المنطقي مُمكنٌ فقط إذا كان الله شخصًا حرًا وقدوسًا، ويتمتع بالسيادة منذ الأزل على كل ما صنعه. صحيح أن الله قريبٌ من العالم؛ ليس إلهًا بعيدًا مُنفصلاً عن أعماله. توجد حقيقة هامة في الإيمان بوحدة الوجود؛ يستطيع المسيحي أيضًا أن يقول: "لأننا به نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ." وإن الله "أقرب من النَّفْس، وأقرب من الأيدي والأرجل." إن الله موجودٌ في العالم؛ لا يحدث أي شيء بالاستقلال عنه. لكن ذلك لا يعني أنه يتطابق مع العالم أو يُحد به؛ لأن العالم يعتمد عليه، لا يلزم من ذلك أن الله يعتمد على العالم. إن الله موجود في العالم لا لأنه يتطابق مع العالم، بل لأنه سيد العالم؛ إن غموضُ مشيئة الله ينتشر في الكون ويحيط به. لقد كانت تلك الأشياء مخفيّة عن الحكماء والفُهماء وأُعلنت للأطفال. إن البساطة هنا هي ما تُعتبر أمرًا عميقًا؛ لا ينبغي إطلاقًا أن يُسمح للعجائب المذهلة لأعمال الله، والتعقيد غير المحدود للكون الذي خلقه، أن يخفوا الحقيقة البسيطة المُتعلّقة بأن الله شخصٌ؛ إن تلك الحقيقة البسيطة، التي يتمسك بها من له ثقة مثل الأطفال، هي أعظم سر على الإطلاق. بالتأكيد، علّم يسوع عن اقتراب الله؛ لقد رأى يد الله في نمو البذرة: قال إنه لا يسقط عصفور إلى الأرض بدون الله. كان من المُمكن للفلاسفة أن يقولوا ذلك. لكن يسوع لم يصغها فقط بهذه الطريقة؛ ما قاله كان: "وَوَاحِدٌ مِنْهُمَا لَا يَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ بِدُونِ أَبِيكُمْ." وعندما قال ذلك، انتهت عمليات بحث الفلسفة، ومن كان البشر يشعرون به بشكل باهت، الإله الحي الشخصي، أُعلن.

إذن، إن كان هناك احتكام منطقي من الطبيعة إلى طبيعة الله، إن كان ينبغي أن يوجد إيمانٌ حقيقي، ينبغي أن يُنظر إلى الله بصفته من يصنع العجائب؛ لا باعتباره اسمًا آخر لمجموع الأشياء الموجودة، بل بصفته شخصًا حيًا وحرًا. فَكَّرَ فيه بشكل آخر، وستبقى مُقيّدًا إلي الأبد في سجن هذا العالم.

لكن خطأ من نوع آخر يُعد بنفس درجة الخطورة. إنه شكل من أشكال الخطأ أكثر بساطة وأقل ادعاء، لكنه مُدمر بنفس الدرجة لإيمان من نوع إيمان بولس. لقد أصررنا أن الله حُرٌّ، وأنه يستطيع أن يحكم مسار الطبيعة بحسب مشيئته؛ وهي حقيقة هامة بالتأكيد. لكن العديد من الناس يعتبرونها الحقيقة الوحيدة، ويفعلهم ذلك، يُغرقون سفينة إيمانهم. يُنظرون إلى الله فقط بصفته شخصًا يستطيع أن يوجه مسار الطبيعة لأجل خيرهم؛ يُقدرونه فقط لأجل الأشياء التي يستطيع أن يُقدّمها لهم.

إننا مُعرّضون للعديد من الاحتياجات المُلحة، ونميل بشدة إلى تقدير الله، لا لأجل ذاته، بل فقط لأنه يستطيع أن يُسدّد تلك الاحتياجات. هناك احتياج للطعام والملابس، لنا ولأحبائنا، ونُقدّر الله لأنه يستطيع أن يُجيب التضرّع الذي يقول: "خُبْرْنَا كَفَافْنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ". هناك احتياج للرفقة؛ نحن نَنكُمش من الوحدة؛ نوُدُّ لو أن نُحاط بالذين يُحبوننا والذين نُحبهم. ونُقدّر الله بصفته شخصًا يستطيع أن يُسدّد ذلك الاحتياج بإعطائنا عائلة وأصدقاء. هناك احتياج للعمل المُلهِم؛ أن نُنقذ من حياة ليس لها هدف؛ نرغب في فرص لخدمة نبيلة وغير أنانيّة لأجل الآخرين. ونُقدّر الله بصفته الشخص الذي بتنظيمه لحياتنا يستطيع أن يجعل أمامنا بابًا مفتوحًا.

هذه أشواق نبيلة. لكن ما زال هناك اشتياق أكثر نُبلًا. إنه الاشتياق إلى الله ذاته. كثيرًا ما ننسى ذلك الاشتياق. نُقدّر الله فقط لأجل الأشياء التي يستطيع أن يقوم بها؛ نُصوِّره على أنه مُجرد وسيلة لغاية أبعد. ويرفض الله أن يُعامل هكذا؛ إن دينًا من هذا النوع يفشل دائمًا عند ساعة الحاجة. إذا اعتبرنا الدين مُجرد وسيلة للحصول على الأشياء -حتى الأشياء الشريفة وغير الأنانية- فعندما تَتدمر الأشياء التي حصلنا عليها، سيفشل إيماننا. عندما يرحل أحباؤنا، عندما يأتي الإحباط والفشل، عندما تصير الطموحات النبيلة لا شيء، سنتحول حينها بعيدًا عن الله؛ سنقول إننا جَرَبْنَا الدين وجَرَبْنَا الصلاة، لكن ذلك فَشَلَّ. بالطبع فَشَلَّ! إن الله ليس راضيًا بأن يكون أداة في أيدينا أو خادماً تحت أمرنا وطلبنا. إنه ليس راضيًا بأن يخدم الاحتياجات الأرضيّة للذين لا يكثرثون له إطلاقًا. إن النص الموجود في الأصحاح الثامن من رسالة رومية لا يعني أن الدين يُوفّر وَصْفَةً مُحدّدة للحصول على مزايا أرضيّة - حتى أسمى وأنبَل وأكثر المزايا الأرضيّة غير الأنانيّة. "إِنْ كَانَ اللَّهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟" - لا يعني ذلك أن الإيمان بالله سيجلب لنا كل شيء نرغب فيه. إن المقصود هو أنه إذا كان لنا الله فسنستطيع مواجهة خسارة كل الأشياء بشجاعة. ألم يخطر لنا أن الله ذو قيمة عالية في ذاته، وأنه كما أن الشركة الشخصية تُعد أسمى الأمور التي نعرفها على الأرض، كذلك تُعد الشركة الشخصية مع الله أعلى سمو على الإطلاق؟ إذا كُنّا نُقدّر الله لأجل ذاته، فإن خسارة الأشياء الأخرى ستجلبنا أقرب إليه؛ سنلجأ أذن إليه في وقت الضيق مثل ظلّ صخرة كبير في أرضٍ يابسة. لا أقصد أن المؤمن يحتاج أن يتوقّع دائمًا أن يكون فقيرًا ومريضًا ووحيدًا لكي يسعى إلى عزائه فقط في خبرة صوفيّة مع الله. إن الكون هو عالم الله؛ تنهمر بركاته على مخلوقاته حتى الآن؛ وفي وقته الصالح،

عندما تنتهي فترة أنين وألم العالم، سيجعل الله منه مسكنًا للمجد. لكن ما أقصده هو أنه إذا كان لنا هنا والآن البركة الوحيدة التي لا تُقَدَّر بثمن، بركة حضور الله ونعمته، فيمكن لكل البركات الباقية أن تنتظر التوقيت الإلهي الصالح.

إذا كانت الشركة مع الله أعظم الممتلكات، وقيمتها أكبر من كل الأشياء الأخرى، كيف يمكننا أن نصِل إليها - كيف سنُصِل إلى معرفة الله؟

إن الكثير من الناس، مثلما لُوحِظ بالفعل، يقولون لنا إنه لا ينبغي علينا إطلاقًا أن نسعى إلى معرفته؛ يُقال لنا إن المعرفة اللاهوتية تقتل المسيحية. لا نعرف الله إذن - وهو ما يبدو النتيجة المنطقية لهذا المنظور - بل نشعر به ببساطة. إن هذا المنظور في شكله المُتسق يُعتبر صوفيًّا؛ يُخَنَزَل الدين إلى حالة روحية فيها يكون الذهن والإرادة خاملين. مهما كان ما يعتقده المرء بخصوص دين مثل هذا، لا أستطيع أن أعتبر أنه يمتلك أي صفة أخلاقية على الإطلاق؛ إن الشعور الخال غير أخلاقي، وكذلك الدين الذي لا يؤسّس على فكرٍ لاهوتي. على سبيل المثال، إن ما يجعل محبتنا لصديق حقيقي أمرًا نبيلًا هو إدراكنا الذهني لصفات صديقنا. إن المشاعر البشرية في جمال بساطتها الظاهرية، تعتمد حقًا على مجموعة ثمينة من الملاحظات لأفعال صديقنا. هكذا الأمر في علاقتنا بالله. إنه بسبب معرفتنا لأمر مُحدّد عنه، ولأننا نعرف أنه قدير وقُدوس ومُحب، أن شركتنا معه تتمتع بصفاتها المميّزة. لا يستطيع الإنسان المُكرّس أن يكون غير مُبالٍ بالعقيدة، بالمعنى الذي يرغب الوعاظ المُعاصرون أن نكون عليه، مثلما لا يستطيع أن يستمتع باتزان إلى أوصاف زائفة عن صديق أرضي له. يُعد إيماننا بالله، رغم كل ما يُقال، مُرتبطًا بشكل لا ينفصل بما نعتقده عنه. يُمكن بالطبع للإنسان المُكرّس أن يسلك بدون تنظيم كامل لمعرفته - رغم أنه إذا كان مُكرّسًا فعلاً سيرغب أن يُكوّن أكبر قدر مُمكن من التنظيم المعرفي - لكن يجب أن يكون لديه بعض المعرفة.

كيف يمكننا إذا أن نصِل إلى معرفة الله والتي تُعد ضرورية جدًا للإيمان؛ كيف يمكننا أن نعرفه؟ أعتقد أنه يمكننا فعل ذلك بالطرق القديمة؛ لا توجد لدي طرق جديدة بالكامل لأقترحها.

أولًا، يمكننا فعل ذلك عن طريق التأمل في أعماله في الطبيعة. "لأنّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمُنْظُورَةِ ثَرَى مُنْذُ خَلَقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَالْأَهْوَتُ". "السَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللَّهِ، وَالْفَلَكَ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ". بالتأكيد، يُعد المجد لبعض الناس غير مُدرك. ينظر بعض الأشخاص إلى جبلٍ على أنه مجرد كُتلة من الحجارة والصخور، وإلى عاصفة رعدية على أنها مجرد ظاهرة في الغلاف الجوي، وإلى زهرة جميلة على أنها مجرد مزيج من الأوراق والبتلات. ليرحمهم الله - تلك الأرواح العمياء المسكينة! لكن عندما تفتح أعين أرواحنا، سنقول إذن عندما نقف أمام سلسلة جبال عظيمة: "أَرْفَعُ عَيْنَيَّ إِلَى الْجِبَالِ، مِنْ حَيْثُ يَأْتِي

عَوْنِي!"؛ أمام غضب العاصفة، سُنْفَكِر في ذاك الذي يَطِير على أجنحة الرياح؛ وسُتَعْلَن لنا زنايق الحقل عما نَسَجَه اللهُ -وَلَا سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا.

ثانيًا، يُعْرِف اللهُ من خلال صوته داخلنا. إن التأمل في الكون، والذي تحدّثنا عنه للتو، يأتي بنا إلى حافة اللانهاية؛ إن العالم كبير جدًا علينا، وكل ما فيه مُحَاطٌ بغموض لا يُمكن اختراقه. لكن توجد لا نهاية أيضًا بالداخل. تُعْلَن بواسطة صوت الضمير. يوجد في الشعور بالذنب شيءٌ بعيدٌ عن كل النسبيّة؛ نَقَف هناك وجهًا لوجه أمام المُطلق. صحيحٌ أنه في رتابة الحياة كثيرًا ما ننسى؛ لكن الخبرة الغريبة تحدّث بشكل مُتكرّر. يُمكن أن تحدّث في أثناء قراءة أو مُشاهدة عمل درامي؛ إن المآسي الكبيرة، في العالم الأدبي، هي التي تجذبنا بعيدًا عن ستار المعتاد وتجعلنا نشعر من جديد بالعجز الشديد عن إرجاع الأمور والمُرتبط بالذنب. وللأسف، يُمكن أن تحدّث أيضًا في أثناء التأمل في حياتنا. لكن كيفما تحدّث الضمير، فهو صوت الله. إن القانون يُعلن عن واضع القانون؛ وخصائص قانونه تُعلن عن الصلاح الرهيب لواضع القانون.

ثالثًا، يُعْرِف اللهُ من خلال الكتاب المقدّس. ويُعْرِف اللهُ من خلال الكتاب المقدّس بطريقة عجيبة وجديدة بالكامل. صحيحٌ أن الكتاب المقدّس يُكرّر ويُشَدّد على ما كان ينبغي أن يتعلّمه الإنسان في موضع آخر؛ يُعزّز الكتاب المقدّس من صوت الطبيعة والضمير؛ يُخبرنا من جديد أن السّمَاوَاتُ تحدّث بِمَجْدِ اللهِ؛ يُقدّم قانون الضمير في صراحةٍ جديدة ورهيبة باعتباره قانون الله. لكنه يقوم بما هو أبعد من كل ذلك؛ يُقدّم أيضًا الله في فعلٍ مُحب، في مسار التاريخ، لأجل خلاص البشر الخُطاة. من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا، من جنة عدن إلى الجُلجثة، بصفته إله إسرائيل صانع العهد وبصفته إله وأبو ربنا يسوع المسيح، وعبر كل المسارات المتعددة للقصة الكتابيّة، ظهر الله في تحقيقه لخطة واحدة للمحبة. يُعد أمرًا عجيبيًا أنه من الواضح أنه نفس الإله في كل ذلك. تتعد أساليب أفعاله؛ نرى أوجه مُختلفة لشخصه؛ يظهر الله في غضبٍ وكذلك في محبة. لكن من الواضح أنه نفس الشخص في كل ذلك: نقوم بعد قراءة الكتاب المقدّس -أعتقد أنه يُمكننا قول ذلك بدون عدم توقير- ولدينا معرفة بشخصيّة الله. يوجد تشبيه حقيقي هنا لعلاقتنا بصديق أرضي. كيف نتمكّن من معرفة أحدنا الآخر؟ لا على دُفعة واحدة، لكن خلال أعوام من مُلاحظة كل واحد لأفعال الآخر. لقد رأينا صديقًا في وقت الخطر، وكان شجاعًا؛ لقد ذهبنا إليه في حيرة، وكان حكيماً؛ لقد لجأنا إليه في وقت الضيق، ولقد أعطانا تعاطفه. فبالترجيح، مع مرور السنين، وعلى أساس الكثير والكثير من الخبرات، لقد تمكّنا من محبته وتوقيره. والآن، مُجرد نظرة أو كلمة أو نبرة صوته ستُحضر الشخصية بأكملها أمامنا مثل وميض؛ امتزجت خبرات السنين المتنوعة مع بعض الكمياء العجيبة للروح في وحدة من المشاعر. فبشكل ما، هكذا هو الأمر مع معرفة الله التي نحصل عليها من الكتاب المقدّس. في الكتاب المقدّس، نرى الله عاملاً؛ نراه في غضب مُشتعل يمحو قذارة سدوم؛ نراه يقود شعب إسرائيل كقطيع؛ نراه يبدّل ابنه الوحيد لأجل خطايا العالم. ومن خلال ما نراه نتعلّم أن نعرفه. في كل تعاملاته المُختلفة مع

شعبه، لم يَفْشَلِ الله أبداً؛ لذلك نحن نَعْرِفه الآن ونَعْبده. تبدو تلك المعرفة أمراً بسيطاً وغريزياً؛ إن تعاملات الله المُختلفة مع شعبه اجتمعت في وحدة عبادتنا له. وهو الآن مُعلنٌ كما في وميضٍ في أصغر تدابير عنايته الإلهية، سواء كان ذلك في الفرح أو الأسى.

وكما أُعلنَ بهذا الشكل، يُعد الله كافياً لكل احتياجاتنا. لا توجد حدود لقدرته؛ إن كان هو بطلنا، لا ينبغي أن نخاف مما تقدر الرياسات والسلاطين والكون كله أن يفعلوا. هو وحده صالح؛ يجعلنا حضوره بلا عيب مثل النور. الله مُحِبٌّ، وستطرّد محبته الخوف إلى خارج. بالحقيقة نستطيع أن نقول مع بولس: "إِنْ كَانَ اللهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟"

لكن النص يبدأ بكلمة "إِنْ"، وهي "إِنْ" هائلة. "إِنْ كَانَ اللهُ مَعَنَا" – لكن هل الله معنا؟ صحيح أن العديد من الأشخاص يعبرون بخفة شديدة فوق تلك الكلمة؛ ليس لديهم أي شك حول الأمر؛ إنهم مُتأكدون بدرجة كبير من أن الله معهم. لكن ما يُثير الفضول هو أن الذين ليس لديهم أي شك حول الأمر كثيراً ما يكونون هم الأكثر خطأً بشكل مُحزن. لم يَكُنْ لدى الناس في أورشليم في وقت إرميا أي شك؛ كانوا مُتأكدين بدرجة كبير من أن الله معهم؛ لكنهم ذهبوا إلى السبي على أي حال؛ لم يَكُنْ الله معهم إطلاقاً. لم يَكُنْ لدى الناس في أيام يوحنا المعمدان أي شك؛ ألم يكونوا شعب الله المُختار؟ حتى في أكثر أيام الحكم الروماني ظلاماً، كانوا مُتأكدين بدرجة كبير من أن الله سيعطيهم الانتصار. لكن في واقع الأمر، وُضعتُ الفأس على أصل الشجرة. كان الفريسي في المثل مُتأكداً بدرجة كبير من أن الله معه عندما صعد إلى الهيكل ليُصلّي – "اللَّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَيُّ لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ ... وَلَا مِثْلَ هَذَا الْعَشَّارِ". لكن سيتذكر الناس أن العشار نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبَرَّراً دُونَ ذَلِكَ.

كانوا هؤلاء الناس مُتأكدين بدرجة كبير من أن الله معهم، لكنهم كانوا مُخطئين تماماً. كيف يُمكننا إذن أن نكون مُتأكدين؛ وإذا أصبحنا مُتأكدين، أليس يقيننا وهماً وفخاً؟ كيف يُمكننا أن نُزيل كلمة "إِنْ" الموجودة في هذا النص؛ كيف يُمكننا أن نكون مُتأكدين من أن الله معنا؟

توجد طريقتان مُمكنتان فقط.

إحدى الطرق هي أن يصنع الإنسان ما هو مُستقيم. يقف الله دائماً في صَفٍّ ما هو مُستقيم؛ إن كُنَّا مُستقيمين، فمهما يفعل البشر أو الشياطين، سيكون الله في صَفِّنا. لكن هل نحن مُستقيمون؟ كان الفريسي مُتأكداً بدرجة كبير من أنه مُستقيم، لكنه في واقع الأمر، كان مُخطئاً بشكل رهيب. ألا يُمكننا أن نكون مُخطئين بنفس الدرجة؟

لا شك أننا نعتقد أننا نستطيع تَجَنُّب خطأ الفريسي. نقول إن الله لم يَكُنْ معه لأن الفريسي كان مُحْتَقِرًا للعشَّار بشكل خاطئ؛ سنكون رقيقين تجاه العشَّار، مثلما علَّمنا يسوع أن نكون، وحينها سيكون الله معنا. مما لا شك فيه أنها فكرة جيدة؛ من الجيد أن نكون رقيقين تجاه العشَّار. لكن ما هو موقفنا تجاه الفريسي؟ للأسف، نحن نَحْتَقِرُه بطريقة فريسيَّة بحق. نَصْعِدُ إلى الهيكل لِنُصَلِّي؛ نقف ونُصَلِّي داخلنا قائلين: "اللهم أنا أشكرك أنني لستُ مثل باقي الناس، فخورًا بصلاحي الشخصي، أو غير مُتسامح تجاه العشَّارين، أو حتى مثل ذاك - الفريسي." هل يُمكننا حقًا أن نَجْرؤ، كما فعلَ الفريسي، أن نعتمد على طاعتنا لناмос الله، باعتبارها أفضل من طاعة الآخرين، سواء العشَّارين أو الفريسيين، لكي نَضمَنَ لأنفسنا رضى الله؟

على الأقل قال بولس: "لا!"; وبالتأكيد لبولس بعض الحق في أن يُسمَعَ، حيث أنه هو من أعطانا النص البطولي الذي التفتنا إليه. جَرَّبَ بولس تلك الطريقة، وفشلت؛ ويُعتبر الأصحاح السابع من رسالة رومية مَعْلَمًا كبيرًا لفشلها. إن قوة الجسد شديدة جدًّا؛ نعيش على حافة هاوية من الخطيَّة والذنب. يُمكننا بالطبع أن ننسى ما يوجد بالأسفل؛ يُمكننا أن ننسى ما إذا كُنَّا مُستعدين للعيش على سطح الحياة وأن نكون عميانيًا أخلاقيًا مثل اليهود قبل السبي أو مثل الفريسي الذي صعدَ إلى الهيكل لِنُصَلِّي. لكن عندما تَتَفَتَحُ أعين أرواحنا، وعندما تَلْتَقِطُ لمحة مُرهبة لصلاح الله، نُصبح حينها في يأسٍ. نُحاول أن نهرب؛ نُحاول أن نُوازن الخير في حياتنا أمام الشر؛ نُقَدِّمُ عشورًا عن كل ما نَمْلِكُ؛ نُشير بحماس شديد إلى مجهوداتنا كأشخاص يشتركون في العمل المُجتمعي؛ وبذلك نُحاول أن ننسى الذنب الرهيب الذي في القلب. تلك هي عبوديَّة الناموس.

لكن لما لا نستسلم في هذا الصراع؟ إنه أمرٌ ميؤوسٌ منه للغاية، وفي نفس الوقت، غير ضروري للغاية. هل الله معنا، رُغم خطيئتنا؟ يُجيب المؤمن بفرحٍ قائلاً: "أجل." لكن لما هو معنا؟ بالتأكيد، تُعتبر إجابة المؤمن على ذلك السؤال بسيطة: إن الله معنا لأنه اختارَ ذلك. له الحق بالتأكيد في أن يَقْبَلَ من يَشَاءُ إلى الشركة معه: وفي واقع الأمر، لقد اختارَ أن يَقْبَلَنا نحن الخُطاة المساكين الذين يثقون بالمسيح؛ اختارَ أن يَقْبَلَنا عندما بذلَ المسيح للموت. لقد كان ذلك عمله هو، لا عملنا. تُعد كلمة "إن" في النص كلمة هائلة؛ لكن تلك الكلمة لا يُسمَحُ لها بأن تَبْقَى مُطَوَّلًا في الأصحاح الثامن من رسالة رومية. "إِنْ كَانَ اللهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟" - إنها كلمة كبيرة، لكنها تَذُوبُ سريعًا في دفء نعمة الله. "إِنْ كَانَ اللهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟ الَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لِأَجْلِنا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لَا يَهْبُئُ أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟ مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي اللهِ؟ أَللهُ هُوَ الَّذِي يُبَرِّرُ. مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ؟"

إن الاستناد إلى ما فعله الله يستطيع وحده أن يُمكننا من مواجهة كل عدو. يستطيع بالطبع أن يُمكننا من مواجهة إدانة البشر غير العادلة. ما الذي يَهْمُنَا فيما قد يقوله البشر، إذا كُنَّا نَتَمَتَّعُ بقبول الله؟ لكنه يستطيع أن يَفْعَلَ أكثر من ذلك بكثير؛ لا يستطيع أن يُمكننا فقط من مواجهة إدانة البشر غير العادلة، بل وأيضًا

مواجهة إدانة البشر العادلة تمامًا. ولا يوجد شيء آخر على الأرض يستطيع أن يُمكننا من فعل ذلك. هناك بعض الأشياء التي لا يَغفرها العالم أبدًا؛ أفترض أن بطرس لم يَكُن لِيُقبَل مُجددًا في مُجتمع الرجال المُحترمون بعدما لعب دور الخائن أمام النيران. لكن الله اختار أن يقبله، وعلى صخرة إيمانه بُنيت الكنيسة. قد توجد بعض البُقَع القذرة في حياتنا؛ من النوع الذي لا يَغفره العالم أبدًا، من النوع الذي ونحن عارفون الكل، لا نَسطيع على أي حال أن نسامح أنفسنا عليه أبدًا. لكن ما الذي يَهْمنا فيما إذا كان العالم يُسامح، أو ما إذا كُنَّا نَسطيع أن نسامح أنفسنا، إذا كان الله قَبَلنا بواسطة موت ابنه؟ هذا هو ما يَعْنِيه بولس "بالافتخار" بصليب المسيح. إذا كُنَّا نَسطيع أن نَسْتَدِ إلى قبول الله باعتباره من حقنا، كم ينبغي أن نَفْتَخر بشجاعة – نَفْتَخر أمام عالم من الأعداء! إن كان الله يَعْلَم أننا مُستقيمون، فما الذي يَهْمنا إذا لامنا البشر؟ بالتأكيد، لا يُمكن أن يكون ذلك الافتخار افتخارًا شخصيًا. لكننا نَسطيع أن نَفْتَخر بما عَمِلَهُ اللهُ. سننشغل قليلًا بما إذا كان من المُمكن الصَّفح عن خطيئتنا أم لا، سنهتم قليلًا بالحساب الدقيق لذنوبنا. لتَكُنْ بعلو الجبال، ما زال الله يستطيع أن يَمْحوها كلها. لا نَسطيع أن نُفسِّر أفعال الله؛ يقوم بها على مسؤوليَّته هو، لا على مسؤوليَّتنا. يقول المؤمن: "لا أعلم مقدار ذنبي؛ أعلم شيئًا وحيثًا: أحبَّني المسيح وأسلم نفسه لأجلي. هيا أيها البشر الأخلاقيون، هيا يا جموع الشياطين، تعالوا مع همساتكم الجحيمة! نحن لا نَخاف؛ نحن نقف تحت ظل الصليب، وبوقوفنا هناك، في نعمة الله، نحن آمنون. لا يوجد خوف من التحدي الآن! إن كَانَ اللهُ مَعَنَا، فَمَنْ عَلَيْنَا؟ لا أحد، في السماء أو على الأرض. لا مَوْتٌ وَلَا حَيَاةٌ، وَلَا مَلَائِكَةٌ وَلَا رُؤَسَاءٌ وَلَا قُوَّاتٍ، وَلَا أُمُورَ حَاضِرَةٍ وَلَا مُسْتَقْبَلَةٍ، ٣٩ وَلَا غُلُوٌّ وَلَا عُمُقٌ، وَلَا خَلِيقَةٌ أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا."

الفصل الثالث

الإيمان بالمسيح

يبدو مما قيل بالفعل أنه رُغم أن الإيمان بوجود الله يُعد أمرًا ضروريًا للإيمان المسيحي بالله، إلا أنه ليس كل ما هو ضروري. من المُستحيل أن يثق الإنسان بالله بالمعنى المسيحي دون التأكيد على أنه شخص حي وحر، وخالق وحاكم العالم؛ لكنه من المُستحيل أيضًا أن يثق الإنسان به بدون قناعات أعمق من ذلك. بالتأكيد، تقوم العقيدة المسيحية عن الله نفسها، بدلًا من اقتياد الإنسان إلى الإيمان، باقتياده إلى اليأس فقط؛ لأنه كلما ازداد وضوح منظورنا عن صلاح الله، كلما تعمق إحساسنا بالذنب. لقد صنع الله الكلَّ حسنًا؛ نحن خلائقه الذين تنهال عليهم بركاته؛ لكن، وُضع حاجزٌ ضخم بيننا وبينه بسبب حقيقة الخطيئة.

إن تلك الحقيقة مُدرّكة في الكتاب المُقدّس من البداية إلى النهاية؛ وهي مُدرّكة في وضوح مُحدّد في تعاليم يسوع. تحدّث يسوع بالتأكيد كثيرًا عن أبوة الله، وتمتلى كلماته بالتعزية لمن هم أولاد الله. لكنه لم يتحدّث أبدًا عن الله باعتباره أبًا لكل البشر؛ في الموعظة على الجبل، يتم التمييز بين من يستطيعون أن يقولوا: "أَبَانَا الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ"، والذين من العالم بالخارج بأكثر الطرق دقة. لم يأتِ رَبَّنَا لِنُعَلِّمَ البشر أنهم بالفعل أولاد الله، لكن لِيَجْعَلَهُمْ أَبْنَاءَ لله بواسطة عمله الفدائي. إن أبوة الله كما تُعلّم في العهد الجديد، لا تُصِفُ علاقةً بين الله وكل البشر، بل علاقةً بين الله وكل الذين تَمَّ فداؤهم.

قد يُفاجئ ذلك التصريح الناس الذين لم يتركوا أبدًا ما قيل عن العهد الجديد ليذهبوا إلى ما يقوله العهد الجديد نفسه؛ لكنه أمرٌ أكيد بدون شك. مع ذلك، يحتاج الأمر إلى حماية من اثنين من سوء الفهم.

أولًا، لا يعني ذلك أن العهد الجديد يتجاهل تلك الخصائص التي تُصِفُ علاقة الله بكل البشر والتي تُشبه علاقة الأب البشري بأولاده. إن الله هو مصدر كينونة كل البشر أو وجودهم، سواء كانوا مؤمنين أم لا؛ يعتني الله بالجميع؛ يُعطينا كلنا من بركاته: ومن الواضح أن العهد الجديد يَستخدم في الكثير من المواضع تعبيرَ الأب لِيَصِفَ تلك العلاقة الأوسع. لكن ما نؤكد عليه هو أن ذلك الاستخدام لتعبير الأبوة، على الأقل، هو استخدامٌ استثنائي بشكل كبير، وأنه لا يقع في قلب ما يقصده العهد الجديد بتعبير أبوة الله. لا نقصد أن تلك العقيدة المُرتبطة بوجود علاقة أبوة شاملة بين الله وكل مخلوقاته عقيدة غير هامة؛ بالتأكيد، تم تخصيص جزء كبير من مُناقشتنا السابقة لإظهار مدى أهميتها؛ لكن ما نقصده هو أن العهد الجديد عادةً ما يُخصص كلمتي "الأب"، و"الابن" الرقيقتين لِيَصِفَ علاقةً أكثر حميمية. يهتم كلُّ شيء في الكتاب المُقدّس بحقيقة الخطيئة؛ لقد كُسرَت العلاقة بين الإنسان والله بسبب التّعدي، وتكون بُنُوْتهم حقيقةً فقط

عندما يُزال ذلك الحاجز. لذلك لا نقول إن عقيدة أبوة الله الشاملة غير صحيحة: بل نقول إنه بدلاً من أن تُعتبر تلك الأبوة الشاملة جوهرًا مسيحيًا، تُعد فقط افتراضًا أساسيًا للمسيحية؛ إنها فقط نقطة البداية التي يجدها العهد الجديد في "الديانة الفطرية" لإعلان رسالة إنجيل النعمة الإلهية.

يُعتبر سوء الفهم الثاني والذي ينبغي التحوُّط منه هو الانطباع الشائع بأنه هناك أمر ضيق بخصوص ما حددناه باعتباره عقيدة أبوة الله في العهد الجديد. يتعجب الإنسان المعاصر من مدى ضيق التمسك بأن الله أبٌ للبعض وليس للجميع! إن هذا الاعتراض يتجاهل الأمر المركزي في تعاليم العهد الجديد والأمر المركزي في المسيحية؛ إنه يتجاهل صليب المسيح. صحيح أن البشر مُفصلون عن الله بسبب الواقع الرهيب للخطية؛ صحيح أن النبوة التي تستحق أن تُدعى نبوة، يتمتع بها فقط الذين هم في بيت الإيمان: لكن ما يبدو أن الناس لا يفهمونه هو أن الباب لبيت الإيمان مفتوح على مصراعيه لكل البشر ليدخلوا. مات المسيح ليفتح ذلك الباب، ومن المؤسف أننا نحاول إغلاقه بفشلنا في نشر الدعوة عبر العالم كله. بصفقتنا مسيحيين، ينبغي علينا بالتأكيد أن نُحب البشر الآخرين في كل مكان، بما في ذلك الذين لم يأتوا بعد إلى المسيح؛ لكن إذا كنّا نُحبهم بحق، سنُظهر محبتنا لا عن طريق جعلهم راضين عن ديانة طبعية باردة، بل عن طريق إحضارهم إلى الداخل، إلى دفء وفرح بيت الإيمان، من خلال المُناداة برسالة الإنجيل.

في الكتاب المقدس، لا يُعتبر إذن، أن الله بصفته الخالق فقط هو موضوع الإيمان، بل أيضًا وبشكل أساسي، الله بصفته الفادي من الخطية. نخاف الله بسبب ذنوبنا؛ لكننا نثق به بسبب نعمته. نثق به لأنه أتى بنا إلى محضره المقدس، بواسطة صليب المسيح، رغم خطيتنا. يعتمد الإيمان بالله بالكامل على عمله الفدائي.

إن تلك الحقيقة تشرح خاصية هامة لتعاليم العهد الجديد بخصوص الإيمان – تلك الخاصة بالتحديد هي أن العهد الجديد عادةً ما يُحدّد أن الرب يسوع المسيح هو موضوع الإيمان لا الله الأب. يتحدّث العهد الجديد بالتأكيد عن الإيمان بالله، لكن يتحدّث بتكرارٍ أكبر عن الإيمان بالمسيح.

بالطبع، يجب ألا نُبالغ في أهمية هذه الملاحظة؛ لا يوجد إنسان يستطيع أن يكون له إيمان بالمسيح بدون أن يكون له أيضًا إيمان بالله الأب وبالروح القدس. إن أقانيم الثالوث المبارك الثلاثة فاعلون في الفداء بحسب العهد الجديد؛ ولذلك يُمكن أن يكون الأقانيم الثلاثة موضوع الإيمان عندما يقبل الخطاة الفداء.

مع ذلك، بحسب العهد الجديد، تحقّق الفداء بواسطة حدثٍ في العالم الخارجي، في وقت مُحدّد في تاريخ العالم، عندما مات الرب يسوع على الصليب وقام ثانية. لقد أصبح عمل الله الفدائي ظاهرًا في المسيح؛ لذلك، بشكل طبيعي جدًّا، المسيح هو مَنْ يُقدّم عادةً بصفته موضوع الإيمان.

لكن في حالة الله الآب، مثلما في حالة المسيح، من المُستحيل أن يكون لك إيمانٌ بشخص بدون أن تكون لك معرفةٌ بالشخص؛ يُبنى الإيمانُ دومًا على المعرفة.

إن هذا المبدأ الهام يُرْفَض من قِبَل العديد من الأشخاص في العالم الحديث في مسألة المسيح، مثلما رأينا أنه يُرْفَض في مسألة الله الآب.

على سبيل المثال، لقد رُفِض الأمر، بشكل تقليدي، في عِظَة أتذَكَّر سماعها منذ عدة سنوات. كان موضوع العِظَة هو واقعة شفاء خادم قائد المئة. قال الواعظ البارز إن قائد المئة لم يَكُن يعرف أي شيء عن الفكر اللاهوتي؛ لم يَكُن يعرف أي شيء عن عقيدة مجمع نيقية أو خلقيدونية بخصوص شخص المسيح؛ لم يَكُن يعرف أي شيء عن قوانين الإيمان: لكنه ببساطة وَثَقَ بالمسيح، ومدَحَ يسوع إيمانه بأسمى التعبيرات. لقد قِيلَ في الواقع إنه لذلك يُمكننا، أن نكون غير مُبالين بالجدال اللاهوتي المُحتدم في الكنيسة الآن، ويُمكننا ببساطة مثل قائد المئة، أن نَثَقَ تمامًا بكلمات يسوع ونَفْعَل ما قاله يسوع.

من منظور القراءة المنطقيَّة للكتاب المُقدَّس، كانت تلك العِظَة بالتأكيد غير دقيقة إلى حد كبير؛ لقد كانت بالأحرى مثالًا صارخًا لذلك التأثير المُخالف للتاريخ لكلمات الكتاب المُقدَّس الواضحة والذي يُعد سِمةً من سمات التدهور الفكري ليومنا هذا. أين قيل في القصة التي يَسردها الإنجيل أن قائد المئة أطاع أوامر يسوع؛ أين قيل إنه فَعَلَ أي شيء على الإطلاق؟ إن المغزى من القصة ليس أنه فَعَلَ شيئًا ما، بل أنه لم يَفْعَل أي شيء؛ لقد آمن ببساطة أن يسوع يستطيع فَعَلَ شيء ما، وقِيلَ ذلك الشيء من يد يسوع؛ لقد آمن ببساطة أن يسوع يستطيع القيام بمُعجزة الشفاء العجيبة من بعيد. بكلمات أخرى، يُقدِّم قائد المئة باعتباره شخصًا له إيمان؛ والإيمان، الذي يَتِمَّيز عن تأثيرات الإيمان، لا يَنطوي على فَعَلَ شيء ما بل على استقبال شيء ما. قد يُنتِج الإيمانُ أفعالًا، وبالتأكيد يُنتِج الإيمانُ الحقيقي بيسوع دائمًا أفعالًا؛ لكن الإيمان في حد ذاته ليس فِعْلًا بل استقباليًا.

لكن العِظَة التي ذكرتها لم تَكُن مُخطئة فقط من منظور القراءة المنطقيَّة للكتاب المُقدَّس؛ لقد كانت مُخطئة من منظور علم النفس. في الواقع، قيل إن قائد المئة لم يَكُن يعرف أي شيء عن الكريستولوجي الخاص بقوانين الإيمان؛ لم يَكُن يعرف أي شيء عن عقيدة الطبيعتين في الشَّخص الواحد لربنا؛ مع ذلك آمن بيسوع بنفس الطريقة. من الواضح أن الاستنتاج المقصود الوصول إليه هو أن الآراء حول يسوع ليست ذات أهمية للإيمان بيسوع؛ في الواقع، تم التأكيد على أنه بغض النظر عما يعتقده الإنسان عن شخص المسيح، ما زال يُمكنه أن يَثِقَ بالمسيح.

يَتِمُّ التأكيد على ذلك المبدأ بأكبر قدر من الثقة من قِبَل الكُتَّاب المُعاصرين والمُتحدِّثين في موضوع الدين. لكنه بالتأكيد أمر سخيِف تمامًا. لنرى كيف سيكون الأمر في الحياة العاديَّة. هل يُمكن التأكيد على أنه

يُمكنني الثقة بشخصٍ ما بغض النظر عن الآراء التي أتمسك بها بخصوص ذلك الشخص؟ يُمكن لمثالٍ بسيط أن يجعل المسألة واضحةً.

لنفترض أنه لديّ مبلغ من المال لاستثمره. يُمكن أن يكون ذلك افتراضًا من الخيال – لكن فقط دعنا نفترض. لديّ مبلغ من المال لاستثمره، وفي ضوء عدم معرفتي بالكثير عن سوق الأسهم، أذهب إلى أحد معارفي وأطلب منه أن يستثمر مُدخراتي لأجلي. لكن شخصًا آخر من معارفي يسمع عن الموضوع فيُقدِّم لي كلمة تحذير.

يقول لي: "إنك بالتأكيد تقوم بمُخاطرةٍ كبيرة، ما الذي تُعرفه عن الرجل الذي تأتمنه على مُدخراتك التي كسبتها بعملٍ شاق؟ هل أنت مُتأكد أنه من النوع الذي تستطيع الثقة به؟"

فأقول مُجيبًا بأنني أعرف أمورًا مُحدَّدة عن ذلك الرجل. "أتى مُنذ مدة إلى هذه المدينة ونَجَحَ في بيع بعض أسهم البترول عديمة القيمة نهائيًا للسكان غير الحذرين؛ وإن لم يدخل السجن، فبالثأكلد يستحق أن يكون هناك." وأكمل قائلاً: "لكن قد تختلف الآراء حول الشخص –إنها مُجرد مسألة فِكْرِيَّة– ومع ذلك يُمكن للإنسان أن يكون له إيمان بذلك الشخص؛ إن الإيمان أمر مُتميِّز عن المعرفة. وبالتالي، يُمكنني أن أتجنَّب الواجب البغيض المُرتبط بنَبَش ماضي الرجل المُحترَم الذي نتحدَّث عنه؛ يُمكنني أن أتجنَّب الجدل غير المُلائم فيما إذا كان نذلًا أم لا، ويُمكنني ببساطة أن أثق به على أي حال."

بالطبع إذا تحدَّثت بهذه الطريقة عن أمر جاد مثل المال، ينبغي أن أُعْتَبَر شخصًا يحتاج إلى وصي؛ وقريبًا قد أجد أن مُمتلكاتي تُدار بشكل أفضل لأجلي مما أستطيع أن أديرها لنفسِي: مع ذلك، تُعتبر هذه هي نفس الطريقة تحديدًا، والتي يتحدَّث بها الناس حول موضوع مثل الدين؛ إنهم يتحدَّثون بتلك الطريقة بالضبط بخصوص يسوع. لكن أليس ذلك أمرًا سخيًّا تمامًا؟ بالتأكيد من المُستحيل الثقة بشخص يَعتقد الإنسان أنه غير جدير بالثقة. لكن إن كان ذلك صحيحًا، لا يُمكننا أن نكون غير مُبالين بما يُسمى الجدل "اللاهوتي" ليومنا هذا؛ لأن ذلك الجدل يتعلّق بالتحديد بالسؤال عما إذا كان يسوع جدير بالثقة أم لا. يُقدِّم أحد أطراف الكنيسة يسوعَ بصقته الشخص الذي يستطيع البشر أن يثقوا به بخصوص هذا العالم والعالم الآتي؛ ويُقدِّمه الطرف الآخر على أن الثقة به أمرٌ ضيَع إن لم يكن أمرًا سخيًّا.

لكن يُمكن أن يكون هناك اعتراض. يُمكن القول بأنه، "يبدو أن الإيمان أمرٌ بسيط بشكل عجيب. ما علاقة الثقة البسيطة التي وضعها قائد المئة في يسوع بالتفاصيل الدقيقة لقانون الإيمان الخلقيدوني؟ ما علاقته حتى بمسألة الحقيقة مثل السؤال عن الميلاد العذراوي؟ ألا نستطيع الرجوع من فكرنا اللاهوتي، أو من مُناقشتنا لتفاصيل ما يُعلنه العهد الجديد، إلى بساطة إيمان قائد المئة؟"

توجد بالتأكيد إجابة سهلة جدًا على هذا الاعتراض. إن الحقيقة الواضحة هي أننا لسنا بأي حال في نفس الموقف الذي كان فيه قائد المئة فيما يتعلّق بيسوع؛ نحتاج نحن الذين نعيش في القرن العشرين إلى معرفة المزيد عن يسوع لكي نثق به أكثر مما احتاج قائد المئة ليعرفه. إن كان لدينا يسوع الآن بحضوره الجسدي، من الممكن جدًا أن نتمكّن الثقة به في ضوء القليل جدًا من المعرفة بالتأكيد؛ إن عظمة سلوكه قد تُلهم فينا ثقةً لا حدود لها من النظرة الأولى تقريبًا. لكننا في واقع الأمر، مُنفصلون عنه بتسعة عشر قرنًا؛ وإذا كنّا سنأتمن رجلًا يهوديًا عاش منذ ألف وتسعمائة سنة على أنفسنا بلا تحقُّق، باعتباره شخصًا حيًا، فمن الواضح أنه سيكون هناك العديد من الأمور التي نحتاج إلى معرفتها عنه. فمثلاً، نحتاج إلى معرفة أنه حي؛ لذلك، نحتاج إلى المعرفة عن القيامة. ونحتاج حينها إلى معرفة كيف يستطيع أن يلمس حياتنا؛ وذلك يتضمّن معرفةً للكفارة والطريقة التي يُخلصنا بها من خطايانا. لكن الدخول في تفاصيل أكثر هو أمرٌ عديم الفائدة. من الواضح أنه أمرٌ غريبٌ جدًا أن يدخل أشخاصٌ من القرن العشرين في علاقة ثقةٍ حية مع رجلٍ من القرن الأول؛ وإذا فعلوا ذلك، فيجب أن يعرفوا عنه أكثر مما احتاج مُعاصروه أن يعرفوا. لذلك، حتى إن تمكّن قائد المئة من التعايش بقدر قليل من المعرفة عن شخص المسيح، إلا أنه لا يلزم أننا أيضًا نستطيع أن نفعل مثله.

مع ذلك، توجد إجابة أخرى على الاعتراض. يقول الناس إن الإيمان -مثلاً، إيمان قائد المئة- أمرٌ بسيط وليس له علاقة بالفكر اللاهوتي. لكن هل الإيمان فعلاً أمرٌ بسيط جدًا؟ إن الإجابة ليست واضحة جدًا مثلما يفترض الكثيرون. إن الكثير من الأمور التي تبدو بسيطةً هي في الواقع مُعقدة للغاية. وهذا هو الوضع فيما يتعلّق بالثقة بشخصٍ ما. لماذا أثقُ بشخصٍ ما ولا أثقُ بآخر؟ قد يبدو ذلك أحيانًا أمرًا بسيطًا؛ أثقُ أحيانًا بإنسانٍ ما من النظرة الأولى؛ تبدو الثقة في تلك الحالات أمرًا غريزيًا. لكن بالتأكيد، لا تُعتبر "الغريزة" في البشر أمرًا بسيطًا مثلما تبدو. إنها تعتمد فعلاً على مجموعة من الملاحظات بخصوص السلوك الشخصي للأشخاص الجديرين بالثقة والأشخاص غير الجديرين بالثقة. ولا تكون الثقة عادةً غريزيةً كما يبدو؛ عادةً ما تُبنى على مرّ سنوات من ملاحظة الشخص الذي يُوثق به. لماذا أثقُ بهذا الشخص أو ذاك؟ بالتأكيد، أثقُ به لأنني أعرفه؛ لقد رأيته يُختبَر مرارًا وتكرارًا، وظهرت مصداقيته. تبدو النتيجة بسيطة للغاية؛ في النهاية، تُعتبر نظرةٌ أو نبذةٌ للصوت كافيةٌ لإعطائي انطباعًا عن الشخص بأكمله في لمحّة. لكن ذلك الانطباع هو في الحقيقة ناتجٌ عن العديد من الأمور التي أعرفها. ولا أستطيع أن أكون غير مُبالٍ بما يُقال عن الشخص الذي أثقُ به؛ أغضبُ بسبب الافتراءات التي تُقال في حقه، وأسعى للدفاع عن رأيي السامي فيه عن طريق الاستناد إلى الحقائق.

هكذا هو الأمر في مسألة علاقتنا بيسوع. إننا نأتمنه على أعلى ما نملكه - أرواحنا غير الفانية، ومصابرنا مُجتمعنا. إنه فعلٌ ثقةٌ هائل. ويُمكن تبريره فقط عن طريق الاستناد إلى الحقائق.

لكن يُمكن أن نُسأل، عما سيكون مصير إيمان الأطفال الذي يبدو أنه يُمدَح من قِبَل الرَّبِّ نفسه؟ إذا كان الإيمان أمرًا فكريًا دقيقًا إلى هذا الحد، كيف أمكن ليسوع أن يقول: "مَنْ لَا يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللَّهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ."؟ بالتأكيد، لا ينتظر أحد الأطفال إلى أن تُقدَّر كل الاحتمالات، وإلى أن تُؤسَّس مصداقيَّة والديه بحسب معيار المنطق، قبل أن يمد يديه في ثقةٍ بسيطةٍ ليستقبل ما يُقدِّمونه.

يَجِب أن تُقال ثلاثة أمور للإجابة.

أولاً، عند التأكيد على أن المعرفة تُعتبر منطقيًا أساس الإيمان، لا نؤكد على أن المعرفة تسبق الإيمان بشكل ضروري من حيث التسلسل الزمني. أحيانًا، يأتي الإيمان بشخصٍ ما ومعرفة ذلك الشخص في نفس اللحظة. بالطبع، نحن لا نتمسك بأن الإيمان ببسوع ينبغي أن ينتظر إلى أن يتعلَّم الإنسان كل ما يُمكن أن يقوله اللاهوتيون أو حتى الكتاب المقدَّس عن يسوع؛ على العكس، يُمكن أن يأتي الإيمان أولاً، على أساس معرفةٍ أوليَّةٍ جدًّا، ويُمكن لمعرفةٍ أشمل أن تأتي لاحقًا. بالطبع، يُعتبر ذلك بلا شك الترتيب الطبيعي للخبرة المسيحيَّة. لكن ما نؤكد عليه هو أنه لا توجد لحظة يستقل فيها الإيمان عن المعرفة التي يتأسَّس منطقيًا عليها؛ حتى في البداية، ينطوي الإيمان على جانبٍ فكري؛ وإذا كان تزايد المعرفة بعد ذلك سيُظهر أن الشخص الذي وُضعت فيه الثقة غير جدير بها، سيتدمَّر الإيمان.

ثانيًا، يُمكن أن نُسأل عما إذا كان إيمان الطفل، بعد كل شيء، مُستقلًا عن المعرفة. من جهتنا، نعتقد أنه غير مُستقل، بشرط أن يكون الطفل قد وُصلَ إلى عُمُر الحياة الشخصيَّة الواعية. يملك الطفل في ذاكرته خبرات مُخزَّنة عن صلاح الأم، ويعرف كيف يُميِّزها من الأشخاص الآخرين، ولذلك يبتسم عندما تقترب. ويُعتبر ذلك "الإيمان" غير اللاهوتي للبرجمانيين المعاصرين مُختلفًا تمامًا، والذي يُمكن أن يتواجد في استقلال عن الآراء التي يُمكن أن تُقدِّم بخصوص موضوع الإيمان. مهما كان ما يُمكن أن يُقال عن ذلك التوجُّه البرجماني، من المؤكد أنه لا يُشبه توجُّه الأطفال في أي شيء يُمكن تخيُّله. يُعتبر إيمان البرجماني المعاصر أمرًا عميقًا ومُعقدًا جدًّا ولا يُشبه الأطفال؛ ما يُشبه الأطفال فعلاً هو الإيمان الذي يتأسَّس على معرفةٍ للشخص الذي توضع فيه الثقة.

بالتأكيد، ربما توجد مرحلة واحدة للطفولة فيها يكون الفكر مُعطَّلًا؛ لكنها المرحلة التي فيها الحياة الشخصيَّة الواعية لم تكن قد بدأت بعد. هل هي تلك المرحلة التي ينبغي أن يرجع إليها الإيمان؟ توجد عدة إجابات على هذا السؤال، ضمنيًا إن لم يكن صراحةً، بالإيجاب؛ هؤلاء هم الصوفيون، الذين يتمسكون بأن الدين هو خبرة لا تُوصف وفيها تكون القُدَّرات العقلية الطبيعية خاملة، وهم الذين يجب أن يؤكِّدوا، إذا كانوا مُتسقين، على أن الهدف من الدين هو الخُسارة الكاملة للعقل الفردي من خلال امتزاج النَّفس مع الهاوية الإلهية. يميل حقًا التدهور الفكري المعاصر في الدين نحو تلك الصوفيَّة بالتحديد. مما لا شك فيه أن الميل

المُعادي للتفكير ليومنا هذا لا يَتعمَّق كثيرًا بشكلٍ واعيٍّ إلى هذا المدى؛ لكن ذلك ليس لأن نُقطة البداية صحيحة، لكن لأن ذلك الطريق لم يُتَّبَع إلى نهايته بعد. إن الهدف النهائي للمنظور المعاصر للإيمان هو السكينة المطلقة والتي تَخفي فيها الشخصية.

ثالثًا، لم نَصِل في الحقيقة بعد إلى ما كان يسوع يَعنيه إطلاقًا. عندما أَمَرَ رَبُّنا تلاميذه بأن يَقْبَلوا ملكوت السماوات كأولاد صغار، هل كان يُشير في الواقع إلى جَهْل الأطفال؟ لا نعتقد ذلك. لا، لم يَكُن رَبُّنا يُشير إلى جَهْل الأطفال، بل إلى عجزهم الواعي، واستعدادهم لِقَبول العَطِيَّة. إن ما يُعَسِد بساطة الإيمان الطفولي الذي يَمدحه يسوع ليس إضافة المعرفة له، بل إضافة الثقة بالنفس. أن يَقْبَل الإنسان ملكوت السماوات كأولاد صغار هو أن يَقْبَله كعَطِيَّة مجانية دون السعي بأقل قدر إلى استحقاقها لنفسه. يوجد توبيخ هنا لأي مُحاولَة إلى الحصول على الخلاص عن طريق طبيعة الشخص، أو عن طريق طاعة الإنسان لوصايا الله، أو عن طريق تثبيت الشخص "لمبادئ يسوع" في حياته الشخصية؛ لكن لا يوجد توبيخٌ من أي نوعٍ لإيمانٍ عاقلٍ مُؤَسَّس على الحقائق. تُفسد بساطة الإيمان الطفولي أحيانًا بسبب الجَهْل، لكنها لا تُفسد أبدًا بسبب المعرفة؛ لن تُفسد أبدًا - ولم تُفسد أبدًا في حياة اللاهوتيين العُظماء - بسبب المعرفة المُباركة لله وللمُخلص يسوع المسيح والتي تحتويها كلمة الله. بدون تلك المعرفة، قد نُغوى لأن نَتَّق جزئيًا بأنفسنا؛ لكن في ظل وجودها نَتَّق بالله بالكامل. كلما زادت معرفتنا بالله، كلما وثقنا به بلا تحفُّظ؛ كلما زاد تقدُّمنا في المعرفة اللاهوتية، كلما أصبح إيماننا أبسط ومثل إيمان الأطفال.

لا يوجد إذن سبب لأن نُعَدِّل الاستنتاج الذي توصلنا إليه عن طريق فَحص إيمان قائد المئة؛ نوَكِّد على أنه يُمكن تَبْرِير الإيمان بالمسيح عن طريق الاستناد إلى الحقائق.

إن الحقائق التي تُبَرِّر استنادنا إلى يسوع لا تَتعلَّق فقط بصلاحه بل بقوته أيضًا. قد نَفْتَح بصلاحه، ومع ذلك لا نَتَّق به فيما يَتعلَّق بالأُمور الأبدية للروح. قد تكون له الرغبة في أن يُساعدنا لكن بدون قُدرة على ذلك. قد نكون في مَوقف ابن قُبْطان السفينة في تلك القصة المؤثرة، والذي بينما كان كل الموجودين على مَتْن السفينة مرعوبين من العاصفة الرهيبة، عندما علِم أن أبيه كان في غُرْفَة قيادة السفينة، ذهب إلى النوم بسلام. لقد كانت ثقة الطفل غالبًا في غير محلها؛ لكنها كانت في غير محلها لا لأن القُبْطان لم يَكُن أَمِينًا أو صالحًا، لكن لأن أفضل الرجال ليس لديهم القدرة على توجيه الأوامر للرياح والبحر فتُطيعانه. هل تُعتبر نَفْتنا بالمسيح في غير محلها بنفس الطريقة؟ إنها في غير محلها إن كان يسوع هو الشخص المُتَحَمِّس الضعيف الفقير كما يُقَدِّمه المؤرخون الطبيعيون. لكن القضية مُختلفة تمامًا إذا كان هو الشخص القدير الذي نُقَدِّمه كلمة الله. إن السؤال عن أيهما كان يسوع الحقيقي، يُمكن حَسْمه بطريقة أو بأخرى؛ لكن على أي حال، لا يُمكن تجاهل السؤال. لا نستطيع أن نَتَّق بيسوع إذا كان غير جدير بثقتنا.

لماذا إذن يقوم الذين يُنزلون يسوع إلى مستوى البشريّة، الذين يعتبرونه ببساطة (إذا تم تجريد اللّغة التقليديّة) مُعلّمًا يهوديًا منذ زمن بعيد، ومؤيَّس "المسيحيّة" - لماذا يقوم هؤلاء الأشخاص بالتحدّث عن أن لهم "إيمانًا بيسوع"؟ أعتقد أنهم يفعلون ذلك لأنهم ينساقون دون إدراك إلى استخدام خاطئ للتعبيرات؛ عندما يقولون "الإيمان بيسوع"، لا يقصدون حقيقة الإيمان بيسوع بل مجرد الإيمان بتعاليم ومثال يسوع. وذلك أمرٌ مُختلفٌ تمامًا. أن يقول الشخص إن المبادئ الأخلاقيّة التي أعلنها يسوع ستحل مشاكل المُجتمع هو أمرٌ مُختلفٌ عن أن يدخل الشخص في علاقة حيّة عميقة مع يسوع والتي تُسميها الإيمان؛ أن يتبع الشخص مثال يسوع هو أمرٌ مُختلفٌ عن أن يثق به. فمثلاً، قد يُعجب أحدهم بالجنرال واشنطن ويَقبل مبادئ حياته؛ لكن لا يُمكن القول بأن ذلك الشخص يثق به، ببساطة لأن واشنطن مات منذ أكثر من مئة عام. استطاع جنوده أن يثقوا به؛ لأنه كان حيًّا في أيامهم؛ لكننا لا نستطيع أن نثق به، لأنه حاليًّا ميتٌ. وعندما يقوم الأشخاص الذين يؤمنون بأن يسوع كان ببساطة مُعلّمًا عظيمًا منذ زمن بعيد، ولا يكونون مُهتمين بالتحديد بأي مُطابقة شخصيّة بين تلك الخبرة الصوفيّة بداخل النفس التي يُسمونها "المسيح" وشخص يسوع الناصري التاريخي - عندما يقوم هؤلاء الأشخاص بالتحدّث عن "الإيمان بيسوع"، فإن هذا التعبير، والذي لا معنى له الآن، سيكون مُجرد ناجٍ من استخدامٍ كان له معنى فقط عندما كان يُنظر إلى يسوع بحسب ما كان العهد الجديد يقول عنه. يستطيع الإيمان الحقيقي بيسوع أن يتواجد فقط عندما يُنظر إلى تصريحات يسوع العالية باعتبارها حقيقة واعية، وعندما يُنظر إليه بصفته الابن الأزلي لله، الذي أتى طواعيةً إلى الأرض لأجل فدائنا، وأعلن مجده حتى في أيام جسده، وهو الآن مُقام من الأموات ويُقدّم شركته للذين يأتونونه على حياتهم.

إن الحقيقة هي أنه في أقسام كبيرة في الكنيسة المُعاصرة، لم يُعد يسوع موضوع الإيمان، بل أصبح مُجرد مثال للإيمان؛ لم تعد المسيحيّة مُؤسسة على الإيمان بيسوع بل على الإيمان بالله والذي يُعتبر أو يُظن أنه مثل إيمان يسوع بالله.

كثيرًا ما يكون هذا الانتقال الكبير عن غير وعي؛ عن طريق استخدام مرن للّغة التقليديّة، أخفى البشر عن أنفسهم وكذلك عن الآخرين الخطوة الحاسمة التي أُخذت فعلًا. صحيحٌ أنه بأي حالٍ من الأحوال، كل الذين أخذوا تلك الخطوة صاروا بذلك خادعين لأنفسهم؛ يوجد بينهم بعض التلاميذ الحقيقيين للتاريخ الذين يكتشفون بوضوح الفرق الرهيب بين الإيمان بيسوع، والإيمان بالله الذي يُشبه إيمان يسوع بالله. بالنسبة لهؤلاء الباحثين يُصبح أصل "الإيمان بيسوع" أكثر المشاكل أهميّةً في تاريخ المسيحيّة بأكمله. كيف أمكن لمُعلم يهودي، والذي (بحسب المذهب الطبيعي الحديث) لم يتخطى حدود البشريّة، أن يُنظر إليه بصفته موضوع الإيمان المسيحي؛ كيف ومتى أضاف البشر إلى الإيمان بالله والذي كان مثل إيمان يسوع، إيمانًا بيسوع نفسه؟ كيفما وأينما حدث ذلك الأمر، لقد كان حدثًا هائلًا. بالطبع، بالنسبة لأي شخص يقبل شهادة الكتاب المُقدّس

تُحلُّ المُشكلة بسرعة؛ عبر العهد الجديد -الأنجيل وكذلك الرسائل- يُصوّر يسوع الناصري باعتباره الشخص الذي قدّم نفسه من البداية وتبّير كامل بصفته موضوع الإيمان للبشر الخُطاة. لكن المُشكلة تظل قائمة بالنسبة للمؤرخين المُعاصرين الذين ينتمون للمذهب الطبيعي؛ وتوضّع بواسطة الأنكباء منهم على رأس اهتماماتهم. كيف أُضيفَ إلى الإيمان بالله، بتشجيع وإلهام من يسوع، إيمانًا بيسوع نفسه؟

لقد تمّ اقتراح العديد من الحلول لهذه المُشكلة في سياق النقد الحديث، لكن لم ينل أي منها قبولًا عالميًا. وفقًا لليبرالية الأقدم، والتي يُمثّلها هارناك (Harnack) مثلاً، يُعتبر الإيمان بيسوع باعتباره الفادي، بالمعنى الذي قدّمه بولس، كان مُجرد شكل مؤقت، فيه اضطرّرت الخبرة الدينيّة التي تحقّقت عن طريق التواصل مع يسوع الحقيقي إلى التعبير عن نفسها في قوالب فكريّة مُناسبة لذلك الزمن. على الناحية الأخرى، وفقًا لراديكالي مثل بوسيت (Bousset)، نشأ الإيمان بيسوع في دمشق أو أنطاكية، عندما حدث في أحد اجتماعات التلاميذ والمشحونة بالظاهرة الوجدانيّة أن أحدهم نطق بالكلمات الخطيرة "يسوع رب"، وبذلك حدث أن الشخص الذي كان يُحسب في أورشليم أنه غائب في السماء، أصبح يُنظر إليه على أنه حاضر في الكنيسة ومن ثمّ موضوع الإيمان. لقد تمّ اقتراح العديد من الحلول الأخرى، أو الأشكال المُتنوعة للحلول المُختلفة جوهريًا. لكن لا يمكن أن يُقال إن أيًا منها كان ناجحًا. لقد وسّع المذهب الطبيعي الحديث بشكل كبير كل معرفته وإبداعه بلا جدوى حول السؤال عن كيف أن يهوديًا من القرن الأول الميلادي صار يُعتبر موضوع الإيمان المسيحي من قبل مُعاصرين ينتمون إلى عرقه، رُغم صرامة الإيمان اليهودي بإله واحد.

لكن رُغم أننا لا نعتقد أن باحثين مثل بوسيت نجحوا في حل المُشكلة، إلا أنهم على الأقل رأوا ماهيّة المُشكلة بوضوح؛ وتلك فائدة كبيرة. لقد رأوا بوضوح أن الإيمان بالمسيح يُعد مُختلفًا إلى حد كبير عن إيمان يُشبه فقط إيمان المسيح بالله؛ ورأوا بوضوح أن النوع الأول لا الأخير هو الذي يُمثّل الكنيسة التاريخيّة. إذا كان ينبغي تغيير اختيار الكنيسة إلى الاختيار الآخر، فينبغي عدم تجاهل راديكاليّة هذا القرار.

مع ذلك، للأسف، يُعتبر ذلك الوضوح بارزًا في العديد من الأوساط بسبب غيابه؛ هناك الكثير من الأشخاص الذين عن طريق نوعٍ من الكسل الروحي أو على الأقل عن طريق الخجل، يسعون إلى إخفاء القضية عن أنفسهم وعن الآخرين. من المؤكد أن لديهم ارتباط عاطفي بيسوع؛ من المؤكد أنهم يُحبّونه: لماذا ينبغي عليهم إذن أن يُحاولوا تحديد ما إذا كان مثل ذلك الارتباط يُصنّف بواسطة العهد الجديد والكنيسة التاريخيّة بصفته "إيمانًا" أم لا؟ يقول الناس: "بالتأكيد، من الأفضل أن نترك الكلاب النائمة كما هي؛ بالتأكيد، من الأفضل ألا نُعكر سلام الكنيسة بمجهود حريص للغاية على تعريف المُصطلحات. لو أن الذين يُدعون "ليبراليين" في الكنيسة كانوا سيوافقون فقط على توظيف اللُغة التقليديّة، لو أنها فقط كانوا سيتجنّبون الإساءة إلى الصديق والعدو كذلك، عن طريق الخطيّة الكنسيّة التي لا تُغفر، أي صراحة الحديث، سيكون كل

شيء على ما يُرام، وسيستمر عمل الكنيسة بشكل مُرضٍ كما لو أنه لا يوجد أي خلاف في الرأي على الإطلاق.

إن الطُرق التي تُمدَح بها هذه السياسة لصالحنا كثيرة؛ بالطبع، تُعتبر الطُرق التي يَسعى بها الشيطان إلى تَرْكية الضلال مُقنعة؛ كثيرًا ما يَتحدَّث المُجرب من أفواه رجال صادقين وصالحين. قد يقول بعد الرُعاة الأتقياء: "دعونا في حالنا، نحن نركز برسالة الإنجيل؛ نحن نُحضر الرجال والنساء إلى الكنيسة؛ لا يوجد عندنا وقت للجدال العقائدي؛ فوق كل شيء، دعونا نَحظى بالسلام." وإلا فإنها عظمة وإحسان عمل الكنيسة المُنظمة هي التي تَخطف الخيال وتُلهم صرخة "السلام والعمل". يُجادل بالقول، "دعونا نُغرق اختلافاتنا العقائدية، ونستمر في عملنا؛ دعونا نَتوقَّف عن الدفاع عن المسيحية ونَتقدَّم إلى نشرها؛ مهما كانت اختلافاتنا اللاهوتية، لنغزو العالم لأجل المسيح."

إنها كلمات مُقنعة، وبلا شك يَنطق بها أحيانًا مسيحيون حقيقيون. نَشعر بالتعاطف الكامل نحو هؤلاء الناس: إن أعينهم مُغلقة؛ ليس عندهم فكرة عن الحقائق؛ ليس لديهم فكرة عن مدى خطورة القضية التي تواجه الكنيسة. لكن بالنسبة لنا، وبالنسبة لكل المُدركين لما يَحْدث بالفعل، ستكون سياسة "السلام والعمل"، أو سياسة الإخفاء والتلطيف، أكثر خطيئة مُميتة. تَقِف الكنيسة أمام اختيار خطير؛ يَجِب أن تُقرِّر ما إذا كانت ستحاول فقط أن تَتَّق بالله مثلما وثق يسوع به، أو ستستمر في وَضْع ثِقَتها في يسوع نفسه. يَعتَمِد على هذا الاختيار السؤال بخصوص التمسُّك بأي من الديانتين المُتعارضتين أو اللتين لا يُمكن توفيقهما معًا. إحداها هي ديانة الفداء المعروفة باسم المسيحية؛ والأخرى هي ديانة الثِّقة المُتفائلة بالطبيعة البشرية، والتي عند كل نُقطة يُمكن تصوُّرها تقريبًا تُعد نقيضًا للمسيحية. يَجِب أن نُقرِّر أيهما سنختار. لكن فوق كل شيء، دعونا نختار بأعين مفتوحة؛ وعندما نكون قد اخترنا، دعونا نُكرِّس كل نفوسنا إلى نشر ما نُؤمن به. إذا كان المسيح موضوع الإيمان، كما يُقدِّمه العهد الجديد، فدعونا إذا نُعلنه لا فقط من منابرنا بل بواسطة كل أنشطتنا في الكنيسة. لا يوجد شيء غير معقول أكثر من الكرازة برسالة الإنجيل بأفواهنا ثم أن نُحارب رسالة الإنجيل من خلال التبرعات التي تُقدِّمها للهيئات والمجالس أو من خلال الأصوات التي نُدلي بها في مجالس الكنيسة والمحاكم.

إنها كلمات مُقنعة، وبلا شك يَنطق بها أحيانًا مسيحيون حقيقيون. نَشعر بالتعاطف الكامل نحو هؤلاء الناس: إن أعينهم مُغلقة؛ ليس عندهم فكرة عن الحقائق؛ ليس لديهم فكرة عن مدى خطورة القضية التي تواجه الكنيسة. لكن بالنسبة لنا، وبالنسبة لكل المُدركين لما يَحْدث بالفعل، ستكون سياسة "السلام والعمل"، أو سياسة الإخفاء والتلطيف، أكثر خطيئة مُميتة. تَقِف الكنيسة أمام اختيار خطير؛ يَجِب أن تُقرِّر ما إذا كانت ستحاول فقط أن تَتَّق بالله مثلما وثق يسوع به، أو ستستمر في وَضْع ثِقَتها في يسوع نفسه. يَعتَمِد على هذا الاختيار السؤال بخصوص التمسُّك بأي من الديانتين المُتنافيتين أو اللتين لا يُمكن توفيقهما معًا.

إحداهما هي الديانة الفدائية المعروفة باسم المسيحية؛ والأخرى هي ديانة الثقة المتفائلة بالطبيعة البشرية، والتي عند كل نقطة يُمكن تصوُّرها تقريباً تُعدُّ مناقضة للمسيحية. يجب أن نُقرّر أيهما سنختار. لكن فوق كل شيء، دعونا نختار بأعين مفتوحة؛ وعندما نكون قد اخترنا، دعونا نُكرِّس كل نفوسنا إلى نشر ما نُؤمن به. إذا كان المسيح موضوع الإيمان، كما يُقدِّمه العهد الجديد، فدعونا إذا نُعلنه لا فقط من منابرنا بل بواسطة كل أنشطتنا في الكنيسة. لا يوجد شيء غير معقول أكثر من الكرازة برسالة الإنجيل بأفواهنا ثم أن نُحارب رسالة الإنجيل من خلال التبرعات التي تُقدِّمها للهيئات والمجالس أو من خلال الأصوات التي نُدلي بها في مجالس الكنيسة والمحاكم.

إن تشجيع ذلك التناقض هو الذي يَضَعُ أخطر الوصمات الأخلاقية على الحداثة في الكنائس الإنجيلية اليوم. إنها ليست وصمة تظهر فقط في نقاط ضعف وتناقضات الأفراد – لأنه أمام تلك الإخفاقات نشعر بأكبر قدر من التعاطف، إذ أننا مُدركون بحرص لإخفاقات أخلاقية داخلنا أكبر مما يُمكن إيجاده في الآخرين – لكنها وصمة متأصلة في السياسة الراسخة لقسم كبير من الكنيسة. إن إخفاء القضية، ومُحاولة تجاهل تغيير هائل، كما لو أن الاستمرارية الكاملة محفوظة، والاستخدام المُزدوج للغة التقليدية، وقبول دعم الرجال والنساء الإنجيليين من الطراز القديم بُناءً على ادعاءات كاذبة والذين ليس لديهم أي فكرة عما يحدث بالفعل بواسطة مُساهماتهم وأصواتهم – هذه هي الأشياء التي سنُقعننا، حتى قبل القيام بالاستقصاء التاريخي أو اللاهوتي، بأن هناك أمر خاطئ بشكل جذري في الحركة الحداثية ليومنا هذا. قال ربُّنا: "مِنْ ثَمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ"، وحكم بذلك المعيار الأخلاقي بأن الحركة الحالية لن تَجْتَاز الاختبار. بالتأكيد، توجد استثناءات للخطأ المحدد الذي نُصر عليه الآن – مثل الاستثناء الذي يُشكِّله صدق الكنائس التوحيدية، والتي لدينا لها أعلى درجات الاحترام الممكنة – لكن النجاح الخارجي الرئيسي للحداثة تمَّ الفوز به عن طريق الأساليب الخاطئة التي نتحدث عنها. يُمكن للإصلاح الحقيقي أن يَتَمَيَّز بما هو مفقود بالضبط من الحداثة الموجود في يومنا هذا؛ فوق كل شيء، سَيَتَمَيَّز بصراحةٍ بطولية، والتي من أجل المبدأ، ستُجِّح كل مُراعاة للعواقب جانباً.

إننا من جهتنا نُؤمن أن مثل ذلك الإصلاح مطلوب اليوم؛ نُؤمن أنه لن يتحقَّق بواسطة مسيحية جديدة تنطوي على مُحاكاةٍ ليسوع الذي يَحْتَزله المذهب الطبيعي المُعاصر، بل بواسطة إعادة اكتشاف رسالة إنجيل المسيح. إنها ليست المرة الأولى في تاريخ العالم التي حُوجِبَتْ فيها رسالة الإنجيل. لقد كانت محجوبة مثلاً في العصور الوسطى؛ وكم كانت مُظلمةً وطويلةً، من نواحٍ عديدة، تلك العصور! لكن رسالة الإنجيل انفجرت بقوة جديدة – نفس رسالة الإنجيل التي أعلنها بولس وأوغسطينوس. ليت الأمر يحدث أيضاً في أيامنا نحن؛ يُمكن لرسالة الإنجيل أن تظهر لتأتي بالنور والحرية للبشر. لكن ذلك الإصلاح الجديد الذي نشاق إليه لن يتحقَّق بواسطة الإقناع البشري، أو بواسطة مُراعاة للعواقب، أو بواسطة أولئك الذين يَسعون

إلى تخليص النفوس من خلال الاستخدام الماهر للتأثيرات الكنسيّة، أو بواسطة أولئك الذين يمتنعون عن قول الحق بسبب الخوف من التسبّب في "انقسام الكنيسة" أو الظهور بشكل سيء في إحصائيات حضور الكنيسة. كم ستبدو تلك الاعتبارات جميلة، في اليوم العظيم الذي سيتحرّك فيه روح الله مُجددًا في الكنيسة! لا، عندما يأتي الإصلاح الحقيقي، سيحدث بواسطة أولئك الذين وَضَعَ الله يده عليهم، والذين صارت لهم رسالة الإنجيل نازًا بداخلهم، الذين يتحدّثون لأنهم مدفعون للحديث، والذين في عدم اهتمام بالتأثيرات البشريّة والتسويّات والاندماجات الكنسيّة الخارجيّة ومدح أو ذم البشر، يتحدّثون بالكلمة التي أعطاه الله لهم ويعهدون بالنتائج له وحده. بكلمات أخرى، سيحقّق الإصلاح بواسطة رجال الإيمان.

لا نعلم متى سيحدث ذلك؛ وعندما يحدث لن يكون بفعل البشر بل بفعل روح الله. لكن سيتم التجهيز لحدوثه، على أي حال، لا بإخفاء القضايا، بل بتقديمها بوضوح؛ لا عن طريق السلام في الكنيسة بين قوى المسيحيين وقوى غير المسيحيين، بل عن طريق النقاش الجاد؛ لا عن طريق الظلام، بل عن طريق النور. بالتأكيد، لن يتعطّل بسبب محاولة جادة لفهم ما هو الإيمان بالمسيح حقيقةً، وكيف يختلف عن الإيمان الذي هو مُجرد محاولة لتقليد إيمان المسيح.

قد تتعمّق تلك المحاولة بواسطة النظر في واحدة أو اثنتين من الشبّوَلت التي تظهر في الأدب المسيحي اليوم. لن يكون شيء من قبيل المثاليّة ضروريًا؛ يُمكننا أن نبدأ من أي نقطة تقريبًا في أدب حركة الحداثة، بهدف اكتشاف المصدّر الذي يأتي منه كل شيء.

فمثلاً، يوجد الاختيار بين رسالة الإنجيل عن يسوع ورسالة إنجيل يسوع كبديلين. يُقال إن الكنيسة كانت مُهتمة للغاية برسالة إنجيل عن يسوع لدرجة أن رسالة إنجيل يسوع قد أُهملت؛ ينبغي أن نَعكس العمليّة ونُعلن الإنجيل الذي أعلنه يسوع بنفسه.

فيما يتعلّق بهذا الاقتراح، ينبغي ملاحظة أنه حتى في علاقته بالسؤال عن كرسي السُلطة في المسيحيّة، لا يُعتبر سؤالاً بريئاً كما يبدو. إنه يقترح أن السُلطة ستكون من حق "تعاليم المسيح". لكن كرسي السُلطة في الكنيسة التاريخيّة لم يكن ببساطة من حق تعاليم المسيح، بل من حق الكتاب المقدّس كله. لذلك، يُقترح أن الكتاب المقدّس والذي كان يُعتبر في الماضي كلمة الله، ينبغي أن يُستبدل بالجزء الصغير من الكتاب المقدّس والذي يتمثّل في الكلمات التي قالها يسوع عندما كان على الأرض. بالتأكيد، توجد صعوبات مُرتبطة بمثل هذا التغيير، فمثلاً، توجد صعوبات لأن يسوع، والذي ينبغي أن يُنظر إليه بصفته السُلطة العليا والوحيدة، وَضَعَ في أساس حياته وتعاليمه تلك النظرة لسلطة الكتاب المقدّس بأكمله، والتي يتم التخلّي عنها هنا بسهولة. لذلك يبدو أن المنظور الذي يُعتبر أن "تعاليم المسيح" هي السُلطة الوحيدة، هو منظور مُتناقض مع نفسه؛ لأن سُلطة المسيح تُؤسّس سُلطة الكتاب المقدّس. إن الحقيقة هي أنه يُمكن إكرام "تعاليم

المسيح" فقط عندما يُنظر إليها باعتبارها جزءًا طبيعيًا من الإعلان الإلهي الموجود في النصوص الكتابية من سفر التكوين إلى سفر الرؤيا؛ أن يعزل المرء المسيح عن الكتاب المقدس هو إهانة للمسيح ورُفض لتعاليمه.

لكن النقطة الآن ليست أن استبدال كل الكتاب المقدس بتعاليم المسيح باعتبارها مصدر السلطة في المسيحية أمرٌ غير مُبرَّر، بل أنه أمرٌ خطير على أي حال. إن كان يجب أن يحدث، فعلى الأقل، فليحدث بفهم كامل لأهمية الخطوة.

إن الخطوة الحقيقية لاستبدال رسالة إنجيل عن يسوع برسالة إنجيل يسوع، ليست مع ذلك مُقتصرة على تأثير تلك الخطوة على السؤال بخصوص السلطة في المسيحية؛ إن التوجُّه المُختلف نحو يسوع والذي تتضمَّنه هذه الخطوة هو أمرٌ أكثر خطورة. يبدو أن المُدافعين عن "رسالة إنجيل يسوع" بالمعنى المُعاصر يتصوِّرون أن قبول رسالة الإنجيل تلك سيُقرِّب يسوع إلينا أكثر مما يَنُتج عن قبول رسالة إنجيل عن يسوع. في الواقع، ما يحدث هو العكس تمامًا. بالطبع، إذا كانت "رسالة الإنجيل عن يسوع" غير صحيحة، إذا لم تُكُن تُقدِّم الحقائق الكامنة في يسوع نفسه، بل فقط الآراء المُزيَّفة للأشخاص الآخرين عن يسوع، أو "تفسيرات" ليسوع، والتي لها صلاحية مؤقتة، فرسالة الإنجيل عن يسوع إذن تُضع ستارًا مُضللًا بين يسوع وبيننا ويتبغى رُفضها لكي نتمكَّن من التواصل معه مثلما كان هو بالفعل. لكن القضية ستختلف تمامًا إذا كانت رسالة الإنجيل عن يسوع تُقدِّم الحقائق. في تلك الحالة، تُحضرنا رسالة الإنجيل تلك إلى نوع من التواصل معه، والذي بالمُقارنة معه، سيُعدُّ مجرد قبول رسالة للإنجيل التي أعلنها بنفسه، أمرًا باردًا جدًّا وبعيدًا.

إن قبول ما أعلنه يسوع بنفسه لا يعني في حد ذاته أكثر من أنه يُنظر إليه بصفته مُعلمًا وقائدًا؛ إنه فقط ما يُمكن تصوُّر حدوثه في حالة العديد من البشر الآخرين. على سبيل المثال، يُمكن لأحدهم أن يقبل رسالة الإنجيل التي أعلنها بولس؛ ذلك يعني فقط أنه يرى أن تعاليم بولس صحيحة؛ لكنه لا يستطيع أن يقبل رسالة إنجيل عن بولس؛ لأن ذلك سيُعطي للرسول بولس امتياز ينتمي فقط للرَّب. عبَّر بولس نفسه عما يعنيه عندما كتب إلى كنيسة كورنثوس قائلاً: "أَلْعَلَّ بُولُسٌ صُلِبَ لِأَجْلِكُمْ؟" بكلمات أخرى، أعلن رسول الأمم العظيم رسالة إنجيل؛ لكنه لم يَكُن هو جوهر رسالة الإنجيل تلك، لقد حُجز ليسوع امتياز أن يكون هو جوهر رسالة الإنجيل. لذلك، تقوم رسالة إنجيل عن يسوع بتمجيد يسوع، وتأتي به إلينا في تواصل أقرب مما كان يُمكن أن يحدث بواسطة رسالة إنجيل يسوع.

لكن ماذا كانت رسالة الإنجيل تلك التي أعلنها يسوع، رسالة الإنجيل تلك التي تَحِلُّ الآن محل رسالة الإنجيل عنه والتي أعلنها الرسول بولس والكنيسة التاريخية؟ نحصل على معرفتنا بها فقط من خلال كلمات يسوع المُدونة في العهد الجديد. لكن تلك الكلمات كما تَظهر، تُوضِّح بشكل كبير أن رسالة الإنجيل تلك

التي أعلنها يسوع كانت أيضًا في قلبها، رسالة إنجيل عنه؛ لقد قامت بما هو أكثر من تقديم طريق للاقترب من الله والذي اتبعه يسوع نفسه، لأن تلك الرسالة تُقدّم يسوع بصفته هو الطريق الذي يُمكن اتباعه بواسطة البشر الخُطاة. وفقًا للعهد الجديد، قدّم ربنا نفسه حتى في أيام جسده لا بصفته مُجرد مُعلم ومثال وقائد، بل أيضًا وبشكل أساسي، بصفته فاديًا؛ قدّم نفسه للبشر الخُطاة بصفته الوحيد الذي يستطيع أن يُمنحهم دخولًا إلى ملكوت الله؛ أشار كل شيء في تعاليمه مُقدّمًا إلى عمله الفدائي في موته وقيامته؛ كان الصليب هو ذروة رسالة إنجيل يسوع. لم يكن من المُمكن توضيح أهمية الفداء حتى تمّ الفداء فعليًا؛ ولذلك أشار ربنا مُقدّمًا إلى الإعلان الكامل والذي كان سيُعطى من خلال رُسُلِهِ؛ لكن فقط عن طريق النبوة لكن بوضوح كافٍ، أخبر يسوعُ الناسَ، حتى عندما كان على الأرض، بما جاء إلى العالم ليفعله. قال يسوع: "لأنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ أَيْضًا لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيُخْدَمَ وَلِيَبْدُلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ".

سيتم الاعتراف عامةً بالكثير، إذا تم قبول كلمات يسوع باعتبارها أصيلة كما دُوِّنَتْ في الأناجيل، فحينها يُصبح الفصل بين رسالة الإنجيل عن يسوع ورسالة إنجيل يسوع فصلًا زائفًا بشكل جذري؛ لأن رسالة الإنجيل عن يسوع (وهي رسالة الإنجيل التي أتت بالسلام للنفوس المُتعبَة عبر القرون) كانت هي رسالة الإنجيل التي أعلنها يسوع نفسه في أيام جسده.

إذن، إن كنت سنصل إلى يسوع أبقى نفسه خارج رسالة إنجيله، وقدّم للبشر فقط طريقًا للاقترب إلى الله الذي هو اتبعه بنفسه، فلن نستطيع أن نفعل ذلك من خلال قبول شهادة العهد الجديد عن كلمات يسوع كما هي موجودة، لكن يُمكننا فقط فعل ذلك من خلال عملية نقدية للشهادة من داخلها. يجب فصل كلمات يسوع الحقيقية من الكلمات التي نُسبت له زورًا قبل أن نتمكن من الوصول إلى رسالة الإنجيل الحديثة التي تَحذف الفداء والصليب.

لكن يظهر استحالة تلك العملية النقدية عند فحصها. حتى في أقدم المصادر التي يفترض، سواء بشكل صحيح أو خاطئ، النقاد المُعاصرون أنها تقف وراء شهادة أناجيلنا، يُقدّم يسوع نفسه لا باعتباره مُجرد مثال للإيمان بل باعتباره موضوع الإيمان. لم يدعُ الناس فقط ليكون لهم إيمان بالله مثل إيمانه بالله، بل دعاهم ليكون لهم إيمان به. لقد اعتبر نفسه المسيحًا بوضوح، لا بمعنى أقل مكانةً للكلمة، بل بصفته ابن الإنسان السماوي الذي كان سيأتي على سحاب السماء وسيكون أداةً في دينونة العالم؛ لقد أشار مُقدّمًا بوضوح إلى حدثٍ كارثي ما، كان سيكون له فيه الدور المركزي، حدثٍ كارثي ما به سيعلن اقتراب ملكوت السماوات. إن الحقيقة هي أن يسوع الذي نادى برسالة إنجيل تتعلّق بأبوة وبنوّة إلهية شاملة والتي كانت من حق الإنسان لمكانته كإنسان، لم يكن موجودًا إلى أن بدأت العصور الحديثة؛ لم يُقدّم يسوع الحقيقي نفسه باعتباره مُعلمًا فقط بل أيضًا باعتباره الربّ والفادي. لذلك، إذا كنّا سنتمسك "برسالة إنجيل يسوع" الحقيقية، يجب علينا أيضًا أن نتمسك "برسالة الإنجيل عن يسوع"، ويجب التخلّي عن الفصل بين الإثنين.

توجد طريقة أخرى تجعل الصراع بين مسيحية تعتبر يسوع مجرد مثال الإيمان، ومسيحية تعتبر يسوع موضوع الإيمان، وتظهر في العالم المعاصر، هي في الإجابات المتنوعة للسؤال المتعلق بما إذا كان يسوع "مسيحيًا" أم لم يكن. وفقًا لطريقة منتشرة بشكل واسع للتفكير، كان يسوع مؤسس المسيحية لأنه كان أول من عاش حياة مسيحية، بكلمات أخرى، لأنه هو نفسه كان المسيحي الأول. على الناحية الأخرى، وفقًا لمنظورنا، يقف يسوع في علاقة أكثر جوهرية وحميمية مع المسيحية عن ذلك؛ نؤكد على أنه ليس مؤسس ديانتنا لأنه كان المسيحي الأول، بل لأنه جعل المسيحية ممكنة بواسطة عمله الفدائي.

لا تظهر المشكلة في العالم الديني المعاصر أبدًا في هيئة مميزة أكثر من هنا. يعترض الكثيرون في ذهول أمام تأكيدنا على أن يسوع لم يكن مسيحيًا، بينما نحن من جهتنا، ننظر إلى القول بأنه كان مسيحيًا على أنه أقصى درجات التجديف. تُعد "المسيحية" بالنسبة لنا طريقًا للتخلص من الخطيئة؛ ولذلك أن نقول إن يسوع كان مسيحيًا سيعني إنكار قداسه.

يُقال، "لكن هل تقصد أن نخبرنا بأنه إذا عاش رجل ما حياة مثل حياة يسوع لكنه يرفض عقيدة عمل المسيح الفدائي في موته وقيامته، ليس رجلًا مسيحيًا؟" كثيرًا ما يُطرح السؤال بشكل أو بآخر؛ لكن الإجابة بسيطة جدًا. بالطبع، إذا عاش رجل ما حياة مثل حياة يسوع تمامًا؛ فإن ذلك الرجل بالتأكيد ليس مسيحيًا، لكنه أفضل من المسيحي - إنه شخص لم يفقد أبدًا مكانته السامية المرتبطة ببنيوته لله. لكن دون أن نقول أي شيء عن حياة المستندين بثقة كبيرة على مدى تطابق حياتهم مع حياة يسوع، تُعد مشكلتنا هي أن حياتنا لا تبدو مشابهة لحياة يسوع. على عكس يسوع، نحن خطاة، ولذلك، على عكسه، نُصبح مسيحيين؛ نحن خطاة، ولذلك نقبل بشكر محبة ربنا يسوع المسيح الفادية، الذي أشفق علينا وصالحنا مع الله من خلال موته الكفاري، بدون استحقاق مِنَّا.

إن ذلك لا يعني بالتأكيد أن مثال يسوع غير هام للمؤمن؛ على العكس، إنه المرشد اليومي لحياة المؤمن، والذي بدونهِ سيُصبح مثل سفينة بدون دفة القيادة وسط بحر مجهول. لكن مثال يسوع لا يُعد مُفيدًا للمؤمن قبل الفداء، بل بعده.

من ناحية ما، يُعد بالتأكيد مُفيدًا قبل الفداء: يُعد مُفيدًا لأن يُحضر إنسانًا خاطيًا إلى يأسٍ من القدرة على إرضاء الله بمجهوداته الشخصية؛ لأنه إذا كانت حياة يسوع هي الحياة التي يطلبها الله، من يقدر أن يقف في محضر قداسه؟ لذلك يُعتبر لمثال يسوع لغير المفدين جزءًا هامًا في إعلان الناموس الإلهي الرهيب الذي هو المؤدب أو المرّي الذي يُحضر البشر إلى المسيح؛ يُنتج عن طريق طهارته السامية إدراكًا بالخطيئة وبذلك يقود البشر إلى الصليب.

لكن فيما يتعلّق بأيّ عزاء أو مساعدة إيجابية، يُعدّ مثال يسوع مُفيدًا فقط للذين تمّ فداؤهم بالفعل. لذلك نختلف بشدة مع أولئك المُعلمين والوعّاظ الذين يَعتقدون أنه ينبغي تقديم يسوع أولاً باعتباره قائدًا ومثالًا، وربما بعد ذلك، سيكون من المُمكن تقديمه باعتباره المُخلّص؛ نُعبّر للشباب عن استكارنا للكُتب المشهورة التي تَستند إلى الشعور بالولاء باعتباره طريقة الاقتراب الأولى من يسوع؛ يبدو لنا أنه إهانة وبالتأكيد يُعدّ تجديدًا، على سبيل المثال، عندما يُقدّم اختيار يسوع للحياة العمل باعتباره مُرشدًا لاختيار حياة العمل من قبل الأولاد والشباب. نَعتقد أن الطريقة بأكملها خاطئة. بالتأكيد، يُعتبر مثال يسوع هامًا، لكنه ليس أساسيًا؛ إن الانطباع الأول الذي ينبغي إعطاؤه لطفلٍ ليس انطباعًا بخصوص الطُرق التي يُشبهنا يسوع فيها، لكن بخصوص الطُرق التي يَختلف يسوع عنّا فيها؛ ينبغي تقديمه أولاً بصفته المُخلّص وبعدها فقط باعتباره مثالًا؛ لا ينبغي أن يُحتكّم إلى القوى الداخليّة القادرة على اتباع مثال يسوع، بل إلى الشعور بالخطيّة والاحتياج.

لعله لا يُقال إن طريقة الاقتراب هذه لا تُناسب الشباب، وتُؤسّس على سيكولوجيّة زائفة؛ على النقيض، أثبتت فاعليّتها عبر القرون الطويلة في حياة الكنيسة. والآن بعدما تمّ التخلّي عنها، انجرف الأولاد والبنات بعيدًا عن الكنيسة، في حين أنه عندما كانت تُتبع، نموا ليُصبحوا مُؤمنين أقوياء ومُؤمنات قويّات. إنه أمرٌ طبيعيّ جدًّا لأحد أبناء العهد أن يتعلّم أولاً أن يثق بالمسيح بصفته المُخلّص على الأغلب مباشرةً بمجرد أن تبدأ الحياة الواعية، وبعدها يُصبح ابنًا لله من خلال المُخلّص، يقوم باتباع مثاله المُبارك. توجد ترنيمة للأطفال -وهي ترنيمة لا أعتقد أنه يُمكن للمؤمن أن ينمو لدرجة عدم الاحتياج إليها- والتي تُعبّر عن المسألة بشكل صحيح:

يا عزيزي، لقد أحبّ بشدة،

ويجب أن نُحبّه أيضًا،

وأن نثق بدماء فدائه،

وأن نُحاول أن نعمل أعماله.

إن هذا هو الترتيب الصحيح للتربيّة المسيحيّة - أولاً، "أن نثق بدماء فدائه"، ثم "نُحاول أن نعمل أعماله". دائمًا ما ستتّجّج كوارث عندما يُعكّس ذلك الترتيب.

لقد أتى الرب يسوع إذن إلى هذا العالم لا في الأساس ليقول شيئًا، ولا حتى ليكون شخصًا ما، بل ليفعل شيئًا ما؛ لم يأت فقط ليقود البشر من خلال مثاله إلى "حياة أكبر"، لكن ليُهَب حياة، من خلال موته

وقيامته، للذين كانوا أمواتًا في الذنوب والخطايا؛ لسنا مسيحيين لأنه لدينا إيمان بالله مثل إيمان يسوع بالله، بل لأنه لدينا إيمان بيسوع.

لكن، أيمكن أن نؤمن به حقًا؟ لا يمكننا فعل ذلك إذا كان المسيح مجرد مؤسس "الحياة المسيحية" الذي يُقدّم كثيرًا في الوعظ المعاصر؛ لكن يمكننا فعل ذلك إذا كان هو المُخلص الحي الذي تُقدّمه كلمة الله.

مع ذلك، ما زال يُهاجمنا أحد الشكوك المُربعة. يأتي إلينا مما يُمكن أن يُسمى البُعد الكوني للحياة البشرية، من التفكير المُخيف في الهاوية اللانهائية المُحيطة بنا بينما نسير على الأرض.

يَجِب الاعتراف بأن التأمل في عدمية الحياة البشرية عادةً ما يكون بالأحرى أمرًا مُملًا؛ يُلبس التأمل نفسه بسهولة بالنفاق. لكن إذا كان أمرٌ ما صحيحًا، فلن يُصبح خاطئًا بكونه مُبتدلاً. وفي الواقع، لا يُمكن إنكار أن الإنسان محبوس على واحد من الكواكب الصغيرة، وأنه مُحاط باللانهاية من كل الجهات، وأنه يعيش ليوم واحد فقط فيما يبدو أنه مسيرة ليس بها رحمة. إن الأشياء التي يهتم بها الإنسان، كل عالمه، لا تُشكّل سوى واحة غير مُدرّكة في الصحراء الشاسعة. من الغريب أنه يُمكن أن يَنشغل بأشياءٍ لا بد وأن تبدو، من وجهة نظر اللانهاية، أصغر من أصغر الألعاب.

لا يُمكن إنكار أن الإنسان كائنٌ محدود؛ يَسْكُن على كوكب الأرض. من وجهة نظر مُعينة، يُشبه الحيوانات التي تُباد؛ يعيش مثلهم في عالم من الظواهر؛ يتعرض إلى سلسلة مُتتابة من الخبرات، ولا يفهم أي خبرة منها. يستطيع العلم أن يقوم بالملاحظة؛ لكنه لا يستطيع تقديم التفسير، إذا حاول التفسير سيتوقّف عن كونه علمًا ويُصبح أحيانًا مُثيرًا للضحك. إن الإنسان بالتأكيد محدودٌ.

لكن تلك ليست الحقيقة كلها. إن الإنسان ليس محدودًا فقط؛ فهو يَعرف أنه مُحدودٌ، وتلك المعرفة تُحضره إلى تواصل مع اللانهاية. يعيش الإنسان في عالم محدود، لكنه يَعرف، على الأقل، أن ذلك ليس مُجمل الأمر. يعيش الإنسان في سلسلة مُتتابة من الظواهر، لكن لِيُنقذ حياته، لا يستطيع إلا أن يَبحث عن العلة الأولى. في وسط حياته التافهة، تَنشأ في ذهنه فكرة غريبة وطاغية – فكرة وجود الله. يُمكن أن تَنشأ عن طريق التأمل، أو عن طريق حُجة دقيقة تَتعلّق بالسبب والنتيجة، أو تَتعلّق بالتصميم والمُصمم. أو قد تَنشأ عن طريق "لمسة غروب". "خلف الأعماق الحمراء والغامضة والرهيبية والصامتة، وخلف مكان اللقاء الصامت للبحر والسماء، توجد قوة لا يُمكن إدراكها. يَقف الإنسان في مَحضرها عاجزًا مثل عصا أو حجر. يَقف عاجزًا، بل وبالأحرى تعيسًا – تعيسًا بسبب الخوف. بأي ثَقّة نستطيع أن نُقابل القوة المُطلقة؟ إن أعمالها في الطبيعة، بغض النظر عن كل جمال الطبيعة، تُعد أعمالًا رهيبة في الإلحاق بالمُعاناة. وماذا لو لم تَكُن المُعاناة المادية هي كل المُعاناة؛ ماذا عن الشعور بالذنب؛ ماذا لو كان الشعور إدانة الضمير ما هو إلا

تنوفاً مُسبقاً للدينونة؛ ماذا لو كان التواصل مع اللا محدود تواصلاً مع قداسة لا نهائية مُخيفة؛ ماذا لو تَبَيَّن أن عِلَّة كل الأشياء التي لا يُمكن إدراكها هي بعد كل شيء، إلهٌ صالح؟

إنه بُعد غامض بشكل كبير – هل يستطيع يسوع أن يُعيدنا هنا؟ اجعل يسوع عظيماً قدر ما شئت، وسيظل غير كافٍ. فم بتوسيع مجالات قُدرته إلى ما هو أبعد من حدود معرفتنا، ويبدو أنه ستظل هناك حافة بيننا وبين اللانهاية. وسنظل مُعرضين للخوف. نرى أن القوة الغامضة التي تُفسِّر العالم ما زالت ستكتسحنا وستطغي علينا، نحن ومُخلِّصنا على حد السواء. نحن الأكثر بؤساً بين البشر؛ لقد وثقنا بالمسيح؛ لقد حَمَلْنَا قليلاً في طريقنا، ثُمَّ تَرَكْنَا عاجزين مثل من قَبْل، على حافة الأبدية. ليس لنا رجاء؛ نَقِف غير مَحْميين مُطوَّلاً في مَحْضَر سِرٍّ لا يُمكن إدراكه، إلا –وهذه تُعد فكرةً جامحةً ورائعةً– إذا كان مُخلصنا، يسوع هذا الذي وَثَقْنَا به، هو نفسه في اتحادٍ غامض مع الإله الأزلي. ويأتي حينها العزاء الكامل والغني لكلمة الله – الجُملة العجيبة الموجودة في رسالة فيلبي: "الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللَّهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلَّهِ". أو الشرح الغريب للكون في رسالة كولوسي: "الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللَّهِ غَيْرِ الْمُنْظُورِ، بِكُرِّ كُلِّ خَلِيقَةٍ. فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الْأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى، سَوَاءً كَانَ عَرُوشًا أَمْ سَيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلَاطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ. الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِيهِ يَقُومُ الْكُلُّ؛" أو المُقدمة الملوكية في الإنجيل الرابع: "فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ؛" أو إدراك يسوع العجيب: "كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الْابْنَ إِلَّا الْآبُ، وَلَا أَحَدٌ يَعْرِفُ الْآبَ إِلَّا الْابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الْابْنَ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ."

لقد تمَّ احتقار هذه الأمور باعتبارها تكهنات فارغة، لكنها في الحقيقة نَفَس حياتنا المسيحية. إنها بالتأكيد أرض المعركة بالنسبة لللاهوتيين؛ لقد أطلقت الكنيسة الحرمان على اللذين قالوا إن المسيح رُغم عظمتهم كان أقل من الله. لكن ذلك الحرمان كان نافعاً وصحيحاً. لم يكن ذلك الرأي المُخالف بسيطاً؛ لا يوجد أمر اسمه "بالكاد إله". إن هذه الفكرة تجديف؛ إن ما هو أقل من اللا محدود هو أقل منه بلا حدود. إذا كان المسيح أعظم الكائنات المحدودة، فإن قلوبنا إذن ما زالت بلا راحة، ما زلنا مُجرد أشخاص يبحثون عن الله. لكن الآن المسيح هو مُخلصنا، الذي يقول: "مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ"، فهو المُعلن بصفته الله ذاته. ونحن نؤمن بذلك. إنها مُغامرة الإيمان الأسمى؛ لا يستطيع الإيمان أن يسمو أكثر من ذلك. إن ذلك الإيمان عجيبٌ بالنسبة لنا نحن الذين نَمْتَلِكُه؛ يَسْخَر منه الذين ليس عندهم هذا الإيمان. لكن من يَمْتَلِكُه يَغْلِب العالم. كل الأشياء هي لنا في المسيح. لا يوجد بالنسبة لنا الآن بُعدٌ غامض ومُخيف. بالطبع، لا نستطيع تفسير العالم، لكننا نَفْرَح الآن لأننا لا نستطيع تفسيره؛ يُعد كل شيء بالنسبة لنا غير معروف، لكنه لا يَحْوِي أي غموض لمُخلِّصنا؛ إنه جالسٌ على العرش؛ إنه في المركز؛ إنه الأساس والتفسير لكل الأشياء؛ إنه يتخطى أبعد الحدود؛ فيه تقوم كل الأشياء. يَمْتَلِئُ العالم بالقوى الغامضة والمُخيفة؛ يَلْمُسُونَا بالفعل

بآلاف المصائب. لكننا آمنون من جميعها. "مَنْ سَيَفْصِلُنَا عَنْ مَحَبَّةِ الْمَسِيحِ؟ أَشِدَّةٌ أَمْ ضَيْقٌ أَمْ اضْطِهَادٌ أَمْ جُوعٌ أَمْ غُرْيٌ أَمْ خَطَرٌ أَمْ سَيْفٌ؟ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «إِنَّا مِنْ أَجْلِكَ نَمَاتُ كُلَّ النَّهَارِ. قَدْ حُسِبْنَا مِثْلَ غَنَمٍ لِلذَّبْحِ». وَلَكِنَّا فِي هَذِهِ جَمِيعِهَا يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا بِالَّذِي أَحَبَّنَا. فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لَا مَوْتَ وَلَا حَيَاةَ، وَلَا مَلَائِكَةَ وَلَا رُؤَسَاءَ وَلَا قُوَّاتٍ، وَلَا أُمُورَ حَاضِرَةً وَلَا مُسْتَقْبَلَةً، وَلَا غُلُوَ وَلَا عُمُقَ، وَلَا خَلِيقَةَ أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبَّنَا."

الفصل الرابع

الإيمان المُتَوَلَّد عن الاحتياج

لقد تبيّن في الفصل السابق أن يسوع الذي تم تقديمه في العهد الجديد هو شخص يستطيع الإنسان أن يثق به؛ لا توجد حدود لصلاحه ولا حدود لقوته. لكن ذلك التقديم في ذاته لا يُوفّر أساسًا كافيًا للإيمان؛ مهما كان المُخلّص عظيمًا وصالحًا، لا يُمكننا الثّقة به إلا إذا كان هناك نوع من الاتصال بالتحديد بيننا وبينه. إن الثّقة بشخصٍ لا تتضمّن مُجرد الاقتناع بأن الشخص الموثوق فيه يستطيع أن يُخلّص، بل يتضمّن أيضًا الاقتناع بأنه يستطيع ويرغب في أن يُخلّصنا؛ لكي يكون هناك إيمان، يجب أن يكون هناك علاقة مُحدّدة من نوع ما بين الشخص الموثوق فيه والاحتياج المُحدّد لمن يثق به. إن الرجال والنساء الذين قال لهم يسوع في الأناجيل (فيما معناه أو صراحةً): "إِيمَانُكَ قَدْ خَلَّصَكَ، اذْهَبِي بِسَلَامٍ"، كان عندهم جميعًا احتياجات وثقوا بأن يسوع سيُسدّدها. كان أحدهم مريضًا، وأحدهم فاقداً للسمع، وأحدهم أعمى؛ وعندما جاءوا إلى يسوع لم يكونوا فقط مُقتنعين بأنه كان بشكل عام شافيًا قديرًا، لكن كل واحد منهم كان مُقتنعًا، بدرجة أو بأخرى، بأنه يستطيع أن يَشفي مرضه الخاص، وسعى كل واحد منهم للشفاء بحسب ما تتطلّب حالته المُحدّدة. هكذا هو الأمر معنا اليوم. لا يكفينّا أن نعرف أن يسوع عظيمٌ وصالِحٌ؛ لا يكفينّا أن نعرف أن دوره كان أساسيًا في خَلْق العالم وأنه الآن يجلس على عرش الوجود كله. إن هذه الأمور بالطبع ضروريّة للإيمان، لكنها ليست كل ما هو ضروري؛ إذا كُنّا سنثق بيسوع، يجب أن نأتي إليه شخصيًا وبشكل فردي، باحتياج ما للنفس، يستطيع هو وحده أن يُسدّده.

إن احتياج النفس ذلك والذي يستطيع يسوع وحده أن يُخلّص منه هو الخطيئة. لكن عندما أقول كلمة "الخطيئة"، لا أعني فقط الخطايا العالم أو خطايا الآخرين، لكنني أعني خطيئتك أنت - خطيئتك وخطيئتي. إن التركيز على خطايا الآخرين هو أخطر المُسكّنات الأخلاقية؛ إن يُريح ألم الضمير، لكنه أيضًا يُدَمِّر الحياة الأخلاقية. يختلف التّبكيّ على الخطيئة الذي يقود الإنسان إلى أن يكون له إيمان بالمسيح عن ذلك تمامًا.

إن ذلك الشعور بتبكيّ الخطيئة يظهر باعتباره شرطًا أوليًا للإيمان في آية عظيمة في رسالة غلاطية، والتي تصف في أقصر مسار الطريق المسيحي الحقيقي للاقتراب من المسيح. يقول بولس: "إِذَا قَدْ كَانَ النَّامُوسُ مُؤَدِّبَنَا إِلَى الْمَسِيحِ، لِكَيْ نَتَبَرَّرَ بِالْإِيمَانِ". مما لا شك فيه أن بولس يُشير بالتحديد إلى ناموس موسى باعتباره مُربّيًا أو مُعلّمًا يَهْدِف إلى الإتيان باليهود إلى المسيح؛ لكننا مُحِقُّون تمامًا في تقديم تطبيق أوسع بكثير للآية. وفقًا لبولس، كانت الطريقة المُحدّدة التي قادت بها شريعة العهد القديم اليهودَ إلى المسيح

أنها أوصَلَتْهم إلى مرحلة من اليأس بسبب خطاياهم، وبذلك جعلتهم مُستعدين لقبول المُخْلِص عندما أتى. إن "المُؤدَّب" في التشبيه الذي استخدمه بولس، لم يكن مُدرِّسًا في العالم القديم؛ بل كان عبدًا يُعَيَّن في العائلات الميسورة في ذلك الزمان ليذهب مع الأطفال إلى المدرسة ويمنعهم عامةً من التمتع بأي حُرِّيَّة. لذلك، يَختلف التشبيه في تلك الآية بشكل بسيط عن ذلك الذي يَظهر قبلها مُباشرةً، حيث يُقدِّم الناموس باعتباره سَجَانًا. لكن بولس يَقصد أنه فيما يَتعلَّق بالناموس، كان بإمكان اليهود أن يَعْتقدوا أن برَّهم الشخصي كان كافيًا؛ لكن في كل مرة تم إغراؤهم بأن يسعوا إلى الهرب من الدينونة، أظهرت لهم معايير الناموس العالية كيف أخفقوا بشدة في تتيميم مشيئة الله، وبذلك تم منعه من أن يكون لهم آمال مُزيفة.

بالطبع، يُعد هذا وَجْهًا واحدًا للتدبير القديم؛ وفقًا لبولس، حتى تحت التدبير القديم، تواجد الإيمان كما تواجد الناموس؛ لقد أُعلنت نعمة الله كما أُعلن برَّ الهائل؛ لا يُقدِّم بولس ديانة العهد القديم بأي شكل باعتبارها ديانة كآبة لم تُرفع. لكن وفقًا لبولس، وفيما يَتعلَّق الأمر بمجهدات الإنسان، كانت الكآبة مُكتملة؛ لم يكن هناك رجاء في البشر، بل في وعد الله المُنعم بالخلاص المُستقبلي.

وفقًا لبولس، كان إذن ناموس موسى مُربِّيًا يَهْدُف إلى إحضار اليهود إلى المسيح لأنه أنتج إدراكًا بالخطيئة. لكن إذا كان الأمر كذلك، فمن الطبيعي أن يفترض المرء أن أي إعلان عن ناموس الله مثل ناموس موسى والذي يُنتج إدراكًا بالخطيئة يُمكنه بالمثل أن يعمل كمؤدَّب للبشر إلى المسيح.

بالتأكيد، لدينا داعم مُباشر لهذا الامتداد الواسع لتطبيق الآية. يقول بولس في مَقطع آخر: "لأنَّه الأَمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ، مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ، فَهَؤُلَاءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأنْفُسِهِمْ". يُشار هنا بوضوح إلى علاقة ناموس موسى بقانون يَخضع له كل البشر؛ إن نصوص العهد القديم تَجعل القانون الإلهي واضحًا أكثر مما هو واضح للبشر الآخرين، لكن كل البشر حَصَلُوا، في ضمائرهم، على بعض الإعلان عن مشيئة الله، وهم بلا عُذر عندما يَعصونها. إذن، مهما كانت الطريقة التي يُعلن بها القانون الإلهي، سواء في العهد القديم، أو (بشكل أوضح) في تعاليم ومِثال يسوع، أو في صوت الضمير، يُمكنه أن يكون مُربِّيًا يأتي بالبشر إلى المسيح إذا أنتج إدراكًا بالخطيئة.

إن تلك هي الطريقة القديمة في المجيء إلى المسيح – التوبة أولًا أمام الصوت المُخيف للناموس، ثم الفرح أمام دعوة المُخْلِص الكريمة. لكن تلك الطريقة، في الأعوام الأخيرة، تُهمل بشكل مُحزن؛ لا توجد صفة مُميِّزة للمسيحية الحالية أكثر من فقدانها لإدراك الخطيئة؛ لقد تم استبدال القبول المُمتن لنعمة الله بالثقة في الإمكانات البشرية.

يُعبَّر عن تلك الثقة في الإمكانات البشرية بطُرقٍ كثيرة؛ يُعبَّر عنها حتى في الصلاة. أُنذِكرُ اجتماعًا حضرته منذ سنة أو أكثر في كنيسة قروية جذابة. إن الواعظ والذي كان رجلًا مُتعلِّمًا وجادًا، تَمَتَّع على

الأقل بالشجاعة للتمسك بقناعاته، ولم يُعبر عن ديانته الإنسانية المتفائلة في عِظته فقط، بل في صلواته أيضًا. بعد اقتباس النص الموجود في إرميا ويقول: "الْقَلْبُ أَخَذَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ"، في الواقع، قال الواعظ، (رغم أنني لا أستطيع تذكر كلماته بالضبط): "يا رب، أنت تعرف أننا لا نستطيع قبول هذا التفسير؛ لأننا نعتقد أن الإنسان لا يرغب في فعل الشر بل يفشل فقط بسبب نقص المعرفة." كان ذلك صريحًا ومُتسقًا على الأقل، ويجب أن أعترف أنه كان لدي احترام لذلك، أكبر من العبارات المُتدنية التي تُغطى عادةً بها الديانة الإنسانية المعاصرة. لقد كانت وثنية خالصة وبسيطة، لكنها على الأقل، كانت وثنية تُحترم، ولا تخاف من صراحة الحديث. وبالتأكيد، لا ينبغي نسيان أن الوثنية تستطيع أن تكون أمرًا مُحترمًا جدًّا؛ إن الثقة المعاصرة بالإنسان لا تختلف عن ثقة الرواقيين؛ والفلسفة الرواقية (Stoicism)، مع عقيدتها بخصوص أخوية بشرية كونية وتوقعاتها حول المجهودات الإنسانية، لها في رصيدها بعض الإنجازات الأخلاقية العالية.

لكن الأخبار السارة التي تحملها الوثنية، القديمة منها والحديثة، الأخبار السارة التي مدحها الواعظ الذي سمعته يعِظ مؤخرًا باعتبارها "الأخبار السارة البسيطة بخصوص قيمة البشر"، لها حدودها؛ يظل تفاؤلها، بعد كل شيء، على سطح الحياة، وتوجد بأسفل ذلك أعماق لا تستطيع الوثنية أن تلمسها أبدًا. إنها تختلف على أي حال عن الإيمان المسيحي؛ لأنه يوجد في جذور المسيحية إدراكًا عميقًا للخطية. بالطبع، يوجد بعض التشابه على السطح؛ يتحدّث الواعظ الحداثي بتواضع ظاهري عن الإخفاقات البشرية الحزينة، وعن الحاجة إلى مساعدة إلهية. لكن ذلك التواضع لا يلمس قلب المسألة إطلاقًا؛ بالطبع، يتضمّن فعلًا تشابهًا في النوع، ولكن ليس في الدرجة، بين ما هو موجود الآن وما ينبغي أن يكون. يختلف التوجّه المسيحي كثيرًا عن ذلك. بالنسبة للمسيحي، لا تختلف الخطية عن الصلاح فقط من حيث درجة الإنجاز التي تم الوصول إليه؛ لكن الخطية تُعتبر تعديًا على ناموسٍ ثابت بشكل مُطلق؛ يختلف كثيرًا الإحساس الوثني بالخلل عن الإحساس المسيحي بالخطية.

يوجد في جذور التوجّه المسيحي إدراكًا عميقًا بعظمة الناموس والأخلاقي. لكن عظمة الناموس والأخلاقي يتم حجبها بطرق عديدة في الوقت الحاضر، وبأكثر خطورة في مجال التعليم. بالتأكيد، وبشكل غريب، يتم حجبها في مجال التعليم بواسطة أولئك الذين يصيرون واعين بأكثر حماس للإفلاس الأخلاقي للحياة المعاصرة. لتسديد هذا الاحتياج، يتم تقديم إمدادات متنوعة للتدريب الأخلاقي في مدارسنا الأمريكية العامة؛ يتم صياغة العديد من المبادئ الأخلاقية لتعليم الأطفال الخاضعين لرعاية أو إشراف الدولة. لكن الأمر المُحزن هو أن تلك المجهودات لا تؤدي إلا إلى تفاقم الوضع للأسوأ بعشرة أضعاف؛

بدلًا من فحص دمار الفساد الأخلاقي، تُعتبر عامةً مجهودات غير أخلاقية في جذورها. أحيانًا ما تكون مُخطئة بخصوص التفاصيل، كما هو الحال عندما ينغمس معيار أخلاقي حديث في جدال مُستتر يُعارض

المسيحية عن طريق الإشارة إلى اختلاف في "العقيدة" والذي بلا شك سيُعتبر استهزاءً، ويتبنّى ذلك المعيار الحديث الفكرة الوثنية عن أخوية إنسانية قائمة بالفعل، في تمييز عن الفكرة المسيحية عن أخوية ينبغي تأسيسها عن طريق إحضار البشر إلى اتحاد مُشترك مع المسيح. لكن الاعتراض الحقيقي للبعض، وإن لم يكن للكل، على تلك المجهودات لا يتركز على التفاصيل؛ يتركز بدلاً من ذلك على حقيقة أن أساس المجهود خاطئ بشكل جذري. يظهر الخطأ الجذري بوضوح مُحدّد في "معيار أخلاقي للأطفال" تم اقتراحه مؤخرًا من قِبَل "معهد تعليم الشخصية" (The Character Education Institution) في واشنطن. يحتوي ذلك المعيار على أحد عشر قسمًا، وعناوينها الفرعية كالتالي: ١، "الأمريكيون الصالحون يتحكمون في أنفسهم"؛ ٢، "الأمريكيون الصالحون يُحاولون أن يكونوا بصحة جيدة والحفاظ عليها"؛ ٣، "الأمريكيون الصالحون طيّبون"؛ ٤، "الأمريكيون الصالحون يُنافسون بشرف"؛ ٥، "الأمريكيون الصالحون يعتمدون على أنفسهم"؛ ٦، "الأمريكيون الصالحون يقومون بواجباتهم"؛ ٧، "الأمريكيون الصالحون يعتمدون على أنفسهم"؛ ٨، "الأمريكيون الصالحون صادقون"؛ ٩، "الأمريكيون الصالحون يُحاولون فعل الصواب بالطريقة الصائبة"؛ ١٠، "الأمريكيون الصالحون يعملون في تعاون ودي مع الزملاء"؛ ١١، "الأمريكيون الصالحون مُخلصون".

تُعتبر الحياة الأخلاقية هنا نتيجةً للوطنية؛ تُعتبر خبرة الأمة القاعدة التي يُصاغ بها المعيار الأخلاقي. يظهر هذا المبدأ (غير الأخلاقي بعمق) بشكلٍ فظ تحديدًا في "النقطة الثانية" في الخطة ذات الخمس نقاط لمعهد تعليم الشخصية في فصول المدرسة الابتدائية: يقول المنشور الدعائي: "يقدّم المُعلّم للأطفال المعيار الأخلاقي باعتباره بيانًا موثوقًا للسلوك الذي يُعتبر سليمًا بين الأولاد والبنات المُخلصين للعام سام، والذي تُبرّره خبرة جماهير من المواطنين البارزين الذين كانوا أولادًا وبنات للعلم سام منذ تأسيس الدولة. ينصح المُعلّم الأطفال بأن يدرسوا هذا المعيار الأخلاقي ليكتشفوا ما يراه العام سام صحيحًا...."

لكن ماذا عن تلك الحالات غير النادرة حيث يكون ما يراه "العام سام" صحيحًا هو ما يرى الله أنه خطأ؟ أن تقول للطفل: "لا تكذب لأنك أمريكي"، هو في الحقيقة أمر غير أخلاقي. ما يصحّ أن يُقال هو، "لا تكذب لأن الكذب خطأ". ولا أعتقد أنه تدخّل غير دستوري من قِبَل المسيحية في المدارس العامة أن يقول المُعلّم ذلك.

بشكل عام، إن توجّه تقوُّق الشخص روحياً على الآخرين، والذي يبدو أنه يُلمَح إليه في برنامج معهد تعليم الشخصية، تقريبًا من البداية إلى النهاية، هو بالتأكيد، في الأزمة الحالية في تاريخ العالم، ليس أقل من مُروّع. ينبغي بالتأكيد تعليم الطفل أن يُحب بلده، وأن يشعُر أنها بلدنا، سواء كانت جيدة أو سيئة. لكن حُب الوطن أمر رقيق جدًّا، وأفضل طريقة لقتله هي محاولة غرسه بالقوة. وأن يتم التعليم، في تحديّ للحقائق، بأن الصدق والعطف والطهارة هي فضائل أمريكية بشكل استثنائي – يُعد ذلك مُضرًا بالتأكيد لأقصى الحدود. لقد وجّهنا اللوم لألمانيا، بشكل سليم أو خاطئ، على هذا النوع من الأمور؛ لكننا باسم الوطنية

الآن، نُؤيّد غرسًا ضارًا لنفس الروح التي كان من المُمكن أن تُتهم بها بروسيا في أسوأ حالاتها. بالتأكيد، يُعد الأمر الوطني الوحيد الذي ينبغي تعليمه للطفل هو أنه يوجد قانون أخلاقي عظيم تخضع له دولتنا وكل الدول في العالم.

لكن الخطأ الأكثر خطورة في هذا البرنامج "لبناء الشخصية" هو أنه يجعل الحياة الأخلاقية نتاجًا للخبرة، أي أنه يجد معيار السلوك السليم في تحديد ذلك الأمر الذي "ثبّر خبره جماهير من المواطنين البارزين الذين كانوا أولادًا وبنات للعم سام منذ تأسيس الدولة." إن ذلك أمر خاطئ، كما لاحظنا بالفعل، لأنه يؤسّس الحياة الأخلاقية على خبرة الأمة؛ لكنه سيكون خاطئًا أيضًا إذا أسّسه على خبرة الجنس البشري كله. إن معيارًا ناتجًا فقط عن تجارب البشر ليس معيارًا للأخلاقيات إطلاقًا، بل يُعد نفيًا للأخلاقيات. وبالتأكيد لن ينجح. لقد كانت المعايير الأخلاقية قوية فقط عندما كانت تُغلّف بمجد غير أرضي، وعندما كانت تُعامل باعتبارها مختلفة تمامًا من حيث النوع عن جميع قواعد المنفعة. إن الحقيقة هي أن الوفاق لا يمكن أن ينتج بدون مبادئ. إنه من غير المُحدي أن يُحاول المرء كبح بحر الرغبة الهائج بواسطة السدود الطينية الواهية المؤسّسة على الاستناد إلى الخبرة. بدلًا من ذلك، سيكون من الضروري اللجوء من جديد إلى البناء القوي الصلب لناموس الله، رُغم الدعائم التي توقّرها الأبوية المادية للدولة الحديثة. لا تستطيع سلطة من صنع البشر أن تضمن توقير البشر؛ يستطيع المُجتمع أن يصمّد فقط إذا بُني على صخرة وصايا الله.

لن يكون مُمكنًا الآن أن نقترح بشكل كامل حلًا للمشكلة التعليمية الصعبة التي كُنّا نتحدّث عنها للتو. لدينا بالتأكيد ذلك الحل. نعتقد أن أهم شيء هو تشجيع المدارس الخاصة ومدارس الكنيسة؛ إن التعليم العام العلماني، على الرغم من أنه لا بد من، إلا أنه شرٌّ لا بد منه؛ يكمن الرجاء الحقيقي لأي شعب في نوع من التعليم فيه يحدث التعلّم جنبًا إلى جنب مع التقوى. نعتقد أن المسيحية تأسّست على مجموعة من الحقائق؛ لذلك، تُعد أمرًا يجب تعليمه؛ ويجب تعليمها في المدارس المسيحية.

لكن، بالنظر إلى المدرسة العامة باعتبارها مؤسّسة راسخة، وباعتبارها ضرورية تحت الظروف الحالية، توجد طرق مُحدّدة يُمكن بها تقليل خطر تلك المؤسّسة.

١. ينبغي الحدّ من وظيفة المدرسة العامة بدلًا من توسيعها. ينبغي فحص الميل الحالي لانتزاع سلطة الوالدين.

٢. ينبغي أن تتنبه المدرسة العامة إلى الوظيفة المحدودة لكن مهمة جدًا والتي تُهمّلها حاليًا - أي نقل المعرفة.

٣. إن التأثير الأخلاقي لمُعَلِّم المدرسة العامة ينبغي أن يُبدَل بطُرق عمليّة بدلاً من الطُرق النظريّة. بالتأكيد، ينبغي تَجَنُّب التأسيس (المُدمر بشدة وغير الأخلاقي) للأخلاقيات على الخبرة. من المؤسف أنه قد يَتَحَنَّن أيضًا تَجَنُّب التأسيس الحقيقي للأخلاقيات على مشيئة الله، في المدارس العامة. لكن، إذا كان المُعَلِّم نفسه يَعْرِف التمييز الأساسي بين الصواب والخطأ، فإن تأثيره الشخصي، بدون التأسيس النظري وبدون "معايير الأخلاقيات"، سَيُنَاشِد التمييز بين الصواب والخطأ المغروس في روح الطفل، وستتم المُحافظة على النعمة الأخلاقيّة للمدرسة. لا نقصد للحظة أن ذلك النوع من التدريب كافٍ؛ لأن التأسيس الحقيقي الوحيد للأخلاقيات يُبنى على مشيئة الله المُعلنة: لكنه على الأقل سَيَتَجَنَّب التسبُّب في الضرر.

٤. ينبغي الحفاظ على نظام المدرسة العامة سليماً عن طريق الإمكانية الحرة بالكامل للمنافسة مع المدارس الخاصة ومدارس الكنيسة، وينبغي أن تَمَتَّع الدولة عن تنظيم تلك المدارس بشكل يجعل حريتها وهمية.

٥. ينبغي تَجَنُّب التماثل في التعليم -الميل الذي يَظهر في اقتراح قسم فيدرالي للتعليم في الولايات المتحدة- باعتباره أحد أكبر الكوارث التي قد تَسْقُط فيها أي أمة.

٦. لا ينبغي تشجيع قراءة نصوص مُختارة من الكتاب المُقدَّس، والتي يُفترض أن اليهود والكنائس والبروتستانت وآخرون يُمكنهم أن يَتَفَقَّوا عليها، ولا زال ينبغي أن يُطالب القانون بما هو أقل. يُعد الفداء المركز الحقيقي للكتاب المُقدَّس؛ ولإعطاء انطباع عن أن الأمور الأخرى في الكتاب المُقدَّس تحتوي على أي رجاء للبشرية بمعزل عن الفداء هو تعارض مع الكتاب المُقدَّس في مركزه. حتى أفضل الكتب، إذا تم تقديمها بشكل مُشوَّه، يُمكن جعلها تقول عكس ما تعنيه تماماً.

٧. ينبغي إخراج أطفال المدرسة العامة في ساعة مُحددة ومُناسبة في أثناء الأسبوع، حتى يَتِمَّكَّن الآباء، إذا أرادوا، من أن يُقَدِّموا لهم التعليم الديني؛ لكن ينبغي أن تَمَتَّع الدولة بالكامل من مدح المدرسة على العمل الذي تقوم به في تلك الساعات، وأن تَمَتَّع عن مُمارسة أي سيطرة سواء على الحضور أو طبيعة التدريس.

بشكل عام، تُعد تلك الاقتراحات البديلة التي قد نُقَدِّمها إذا كُنَّا نتعامل مع المُشكلة التي قادت إلى المجهودات في "بناء الشخصية" الذي تَحَدَّثنا عنه. ندرك بالكامل الدوافع الجيدة للذين يقومون بتلك المجهودات؛ لكن المجهودات تَفْسَد بسبب المبدأ الخاطئ القائل بأن الأخلاقيات تُؤَسَّس على الخبرة؛ ولذلك نخاف أنها ستعمل فقط على تقويض الشعور بعظمة ناموس الله في قلوب الناس.

بالتأكيد، إذا لم يكن هناك ناموس إلهي مُطلق، لا يُمكن أن يكون هناك أي إدراك بالخطيئة؛ وإذا لم يكن هناك إدراك بالخطيئة، لا يُمكن أن يوجد إيمان بالمُخلَّص يسوع المسيح. فلا عجب أن العديد من الأشخاص

يَعتبرون يسوع مُجرد مؤسّس "حياة مسيحيّة" فيها يكونون قادرين تمامًا، دون المزيد من التأخير، على الدخول؛ لا عجب أنهم يعتبرون حياتهم مُختلفة في الشدة فقط عن حياته. لن يروا أبدًا لمحة حقيقيّة من عظمة شَخْصه ولن يفهموا أبدًا عمله الفدائي، إلى أن يأتوا من جديد إلى تواصل مع عظمة الناموس. حينها وحينها فقط، سيُدركون خطاياهم واحتياجهم، وبالتالي يتوصّلوا إلى ذلك التخلّي عن كل الثّقّة في أنفسهم والذي هو أساس الإيمان.

يَجب الاعتراف بأن هذه الطريقة في الاقتراب من المسيح كثيرًا ما تكون قاسية وشائكة. بالطبع، لا يعني ذلك أن الإيمان بالمسيح يَجب أن يَسبقه دائمًا عذاب النفس. إن الخبرة المسيحيّة مُتنوعة بشكل غير محدود غالبًا؛ وكثيرًا ما يبدو أن الإيمان يَأتي في نفس لحظة الندم. إن أطفال المؤمنين بالتحديد، كثيرًا ما يأتون إلى وَضْعِ ثِقَتهم في المسيح بصفته مُخلّصهم غالبًا بمُجرد أن يَبْدَأ إدراكهم؛ يَعرف أولادُ العهد هؤلاء نعمة الله غالبًا بمُجرد أن يَعرفوا الخطيّة. لكن مهما كان الشكل المُحدّد للخبرة المسيحيّة، فإن طريقة الاقتراب من المسيح من خلال ناموس الله دائمًا ما تَتضمّن توبيخًا للكبرياء البشري.

لذلك، ليس غريبًا أن تُقترح كثيرًا طرق أخرى للاقتراب من المسيح. لأن هذه الطريقة قاسية وشائكة، يُبحث عن طرق أخرى. يبدو أنه من الصعب على الكثير من الناس أن يدخلوا الحياة المسيحيّة من الباب الضيق، ولذلك يُحاول الكثيرون القفز من فوق السور.

في المقام الأول، توجد الطريقة العقلانيّة الخالصة. يُقال إنه يَجب فَحص تصريحات المسيحيّة بحسب خصائصها، باستخدام منهجيّة علميّة صارمة؛ و فقط إذا ثَبُتَت صِحّة تلك التصريحات يُمكن السماح لها بأن تَتحكّم في الحياة الشعوريّة والإراديّة.

بالنسبة لهذه المنهجيّة، كما يَتّضح من كل ما قيل في الشرح السابق، لدينا أحر التعاطف؛ نعتقد بالتأكيد أنه لا يوجد خطأ في المنهجيّة نفسها، إلى حد ما، لكن المشكلة تكمن فقط تطبيق المنهجيّة. نعتقد أنه إذا كان الرجل رجلٌ علمٍ بحق فسيتنوّع بحقيقة المسيحيّة، سواء كان قديسًا أو شيطانًا؛ حيث أن حقيقة المسيحيّة لا تَعتمد إطلاقًا على الحالة الروحيّة لمن يقوم بِفحصها، لكنها ثابتة بشكل موضوعي. لكن السؤال يدور حول ما إذا كانت المنهجيّة التي تَتجاهل إدراك الإنسان للخطيّة هي في الحقيقة منهجيّة علميّة أم لا؛ ونعتقد أن الإجابة يَجب أن تكون أنها ليست علميّة. إذا وضعت كل الحقائق في الاعتبار، ستتنوّع بحقيقة المسيحيّة؛ لكن لا يُمكنك أن تَضع كل الحقائق في الاعتبار إذا تجاهلت حقيقة الخطيّة. لا يُمكنك أن تَضع كل الحقائق في الاعتبار إذا كنت، في أثناء دراسة السماء التي فوق والأرض التي تحت، تَتجاهل حقيقة نفسك أنت.

لنرى كيف تعمل منهجية فحص المسيحية والتي تُعتبر ظاهرياً منهجية علمية. في تنفيذنا لذلك، نبدأ بطريقة نظامية؛ أولاً، نُقدِّم حُججنا لوجود إله شخصي. ومن جهتي، أعتقد أنها حُجج جيدة؛ أعتقد أنه لم يتم هدمها بالكامل بواسطة نقد كانط. لو أثبتنا إذن وجود الله، فسيظهر السؤال بخصوص ما إذا كان أعلن عن ذاته بطريقة تجعل تلك الشركة الشخصية معه مُمكنة للبشر. من المُحتمل أن يتم الاعتراف بأنه إذا كان قد فعل ذلك على الإطلاق، فلقد فعله في المسيحية؛ على الأقل، سيتم الاعتراف بأن المسيحية تُقدِّم أكثر التصريحات المعقولة بين كل أديان العالم، بأنها مؤسسة على إعلان حقيقي لله. لكن هل دَعَمَ التصريح المسيحي موثوقيته الذاتية؟ لقد فعل ذلك -لكي نُقدِّم الأمر بأقصر مسار ونتعامل معه بخصوص النقطة الحرجة بحق- إذا قام يسوع من الأموات؛ لم يدعم التصريح المسيحي ذاته لو لم يُقَم يسوع من الأموات. توجد بعض الأدلة على قيامة يسوع. من المُعترف به أن أصدقاءه المُقربين آمنوا بأنه قام، وبُناءً على ذلك الاعتقاد تأسست الكنيسة. لكن ما الذي بدوره سبَّب ذلك الاعتقاد؟ لقد تم اقتراح العديد من الإجابات على هذا السؤال؛ لكن ولا واحدة منها مُرضية تماماً، إلا الإجابة البسيطة القائلة بأن اعتقاد التلاميذ تأسس على حقيقة. سيتم الاعتراف بشكل واسع بالكثير من الأمور؛ من المُعترف به أن نشأة الكنيسة تُعد أمراً مُحيراً جداً؛ يستطيع الجَهل فقط أن يُنكر صعوبة المشكلة التاريخية التي يَتَضَمَّنُها الأمر لكل المؤرخين المُنتسبين للمذهب الطبيعي.

سَيُقال، لكن ستوجد أيضاً إحدى الصعوبات في الحل التقليدي، كما في الحلول المُرتبطة بالمذهب الطبيعي. تُظهر الصعوبة في الطبيعة الخارقة الطبيعة في الحَدَث المزعوم. لو كانت القيامة حدثاً عادياً، لكان الدليل كافياً على نحو لا يُمكن إنكاره؛ لكن في الواقع، إنها ليست حدثاً عادياً بل مُعجزة، ويوجد ثَقَلٌ هائل من الافتراضات ضد قبول شيء مثل هذا.

أنا لستُ أميل إطلاقاً من جهتي أن أتعامل بِخَفَّة مع هذا الاعتراض. بالطبع، إذا كان الدليل على القيامة، كما لَخَصناه، قائماً بمفرده، أعتقد أنه قد يكون غير كافٍ. حتى لو أتى إلَيَّ اثنا عشر رجلاً ممن أُقَدِّر شخصياتهم وإنجازاتهم، وأخبروني، بشكل مُستقل إلى حدٍ كبير، أنهم رأوا إنساناً يقوم من الأموات، لستُ مُتأكداً ما إذا كان ينبغي عليَّ أن أُصدِّقهم حتى للحظة. لماذا أُمْنَحُ إذن لشهودٍ منذ زمن بعيد -لشهود أيضاً عاشوا في عصر غير علمي نسبياً (رُغم أن كثيراً ما يُبالَغ بشكل هائل بخصوص طبيعته غير العلمية)- درجة من المصداقية التي قد أرفض مَنحها للباحثين المُدْرَبين في يومنا هذا؟ لما أؤمن بقيامة يسوع في حين أنني قد لا أؤمن بقيامة إنسان مُعاصر لي، حتى على أساس الشهادة الساحقة.

يبدو أن إجابة السؤال للوهلة الأولى صعبة، لكن الإجابة في الحقيقة ليست صعبة جداً كما تبدو. إن الإجابة هي أنني أؤمن بالمُعجزة التي تُعد أساس الكنيسة لأن في تلك الحالة، لا تَتَعَلَّقُ المسألة بمُجرد قيامة شخص لا أعرف عنه أي شيء، الشخص س أو ص، لكنها تَتَعَلَّقُ تحديداً بقيامة يسوع؛ ولم يَكُن يسوع

مثل أي شخص عاش من قبل. أقول إنه من غير المعقول أن يُقام أي شخص عادي من الأموات، لكن يسوع لم يكن شخصاً عادياً؛ يَنقلب الافتراض الهائل ضد المُعجزة إلى العكس في حالته؛ بدلاً من أن يكون أمراً غير معقول أن يُقام من الأموات، يُعد من غير المعقول في حالته ألا يُقام من الأموات؛ فشخص مثله لا يمكن أن يُمسك من قبل الموت. لذلك يُضاف إلى الدليل المُباشر على القيامة انطباعاً بخصوص التقرُّد الأخلاقي لشخص المسيح. لا يعني ذلك أنه إذا انبهرنا بالتقرُّد الأخلاقي لشخص المسيح، سيُصبح الدليل المُباشر على القيامة غير ضروري، أو أن المؤمن يستطيع أن يكون غير مُبالٍ بالدليل؛ بل يعني أنه يجب إضافة ذلك الانطباع إلى الدليل المُباشر لكي يُنتج اقتناعاً.

لكن كيف نعرف أن طبيعة يسوع الأخلاقية فريدة تماماً؟ نعرف ذلك فقط بسبب إدراكنا للخطيئة. باقتناعنا بعدم طهارتنا، كما أعلنها عظمة ناموس الله، نُصبح مُقتنعين باختلافه عنّا في الطبيعة، ولذلك نقول إنه وحده طاهر. لذلك، حتى من أجل إثبات حقيقة القيامة، يجب تعلُّم درس الناموس.

بطريقة أخرى أيضاً، يُعتبر التبكي على الخطيئة ضرورياً لكي نؤمن بقيامة المسيح وبذلك نَقبل تصريحات المسيحية. كما رأينا، إذا حدثت القيامة بالفعل، فهي كانت مُعجزة؛ لقد تَصَمَّنَتْ تدخُّلاً لقوة الله الخالقة في مسار العالم. يصعب قبول حدث هائل ما لم نتمكن من اكتشاف غرض مُناسب له؛ ويكتشف الغرض المُناسب فقط من قبل إنسان تحت تبكي الخطيئة. إن رجلاً مثل هذا وحده يستطيع أن يفهم الحاجة إلى الفداء؛ وحده يعرف أن الخطيئة تسببت في حدوث فجوة كبيرة في تركيب الكون، والتي لا يمكن أن يُغلقها إلا فعل إلهي خلاق. يفرح التائب الحقيقي بما هو فوق طبيعي؛ لأنه يعرف أن لا شيء طبيعي يستطيع أن يُسدّد احتياجه. يفرح حتى بالإدراك الجديد بانتظام ووحدة الطبيعة الذي نشره العلم الحديث بشكل واسع؛ لأن انتظام الطبيعة ذلك يُعلن فقط في وضوح جديد عن التقرُّد الكامل للفداء الذي يُقدِّمه المسيح.

لذلك، حتى لكي نعرض حقيقة المسيحية بحسب معيار المنطق، من الضروري تعلُّم درس الناموس. يستحيل إثبات أن المسيحية حقيقية أولاً، وبعدها نتقدّم على أساس حقيقتها لنُصبح مُدركين لخطيئة الإنسان؛ لأن حقيقة الخطيئة نفسها تُعتبر واحدة من الأساسات الرئيسية التي يُبنى عليها الدليل.

عندما تُدرك حقيقة الخطيئة تلك، وعندما يُضاف إلى إدراكها تدقيقٌ عادل للدليل التاريخي، فسيبدو حينها أنه من المنطقي بشكل عميق أن يؤمن الإنسان بأن المسيحية حقيقية. أي شخص عقله صافٍ، مهما كان توجُّهه الشخصي، نعتقد أنه سيَقبل حقيقة المسيحية؛ لكن لا يُعتبر عقل أحدهم صافياً إذا كان يُنكر الحقائق المُتعلّقة بروحه: لكي يأتي الشخص إلى المنظور المسيحي للمسيح، من الضروري فقط أن يكون المرء علمياً؛ لكن لا يستطيع أحد أن يكون علمياً بحق إذا كان يتجاهل حقيقة الخطيئة.

نحن لا نتجاهل الجوانب الشعورية والإرادية للإيمان؛ نحن لا ننكر أنه من حيث الواقع، بالنسبة للبشرية كما هو مؤسس بحق، يُرافق الاقتناع الفكري بحقيقة المسيحية تغييراً للقلب واتجاهاً جديداً للإرادة. لا يعني ذلك أن المسيحية حقيقية فقط بالنسبة للذين يُريدون أن يقبلوها، وهي غير حقيقية للآخرين؛ على النقيض، نعتقد أنها حقيقية حتى بالنسبة للشياطين في الجحيم وكذلك بالنسبة للقديسين في السماء، رغم أن حقيقتها لا تُفيد الشياطين. ولكن أن يكون الأمر حقيقياً فهذا شيء، وأن يتم الاعتراف بأنه حقيقي هو شيء آخر؛ ولكي يُنظر إلى المسيحية باعتبارها حقيقية بواسطة البشر على هذه الأرض، يجب إزالة تأثيرات الخطيئة المُسببة للعمى. تُزال تأثيرات الخطيئة المُسببة للعمى بواسطة روح الله؛ ويختار روح الله أن يفعل ذلك فقط للذين يُحضّرونهم بواسطة الولادة الجديدة إلى ملكوت الله. لذلك، لا يقف التجديد أو الولادة الجديدة في تعارض مع توجّه علمي حقيقي نحو الدليل، بل على النقيض، يُعد ضرورياً لكي يتحقق ذلك التوجّه العلمي الحقيقي؛ ليس بديلاً للتفكير، بل على العكس، يصير التفكير من خلاله أداةً جديدةً بالنسبة لإدراك الحقيقة. تظهر الحالة الحقيقية للمسألة في الإجابة الشاملة في دليل أسئلة وأجوبة وستمنستر الموجز لسؤال: "ما هي الدعوة الفعّالة؟" يقول دليل الأسئلة والأجوبة: "الدعوة الفعّالة هي عمل روح الله، الذي به، يبكّتنا على خطيئتنا وشقائنا، ويُنير أذهاننا في معرفة المسيح، ويجدد إرادتنا، وهو يُقنعنا ويُمكننا أن نقبل يسوع المسيح، المقدم لنا مجاناً في الإنجيل." وذلك يُنصف جميع جوانب المسألة؛ التبكيت على الخطيئة والشقاء باعتبارهما شروطاً مُسبقّة للإيمان، وإنارة الذهن الذي أعمته الخطيئة، وتجديد الإرادة؛ ويُحدث روح الله كل هذه الأمور.

ثانياً، بدلاً من اتباع الطريقة الفكرية الخالصة التي تمت مناقشتها للتو، يُحاول البشر أحياناً أن يأتوا إلى المسيح من خلال إدراك الجمال. وبالتأكيد، يُعد ذلك أمراً جميلاً – حياة المسيح تلك، النابذة مثل وردة جميلة وسط قذارة الإمبراطورية الرومانية، وتلك التعاليم الغريبة البسيطة جداً ومع ذلك عميقة جداً. لكن يوجد على الأقل اعتراض واحد على الاقتراب إلى المسيح من خلال إدراك الجمال – لا يُمكن فرضه على الذين لا يرغبون فيه. لا يوجد تنازع حول الأدواق: قد يُعجب أحدهم بيسوع، وقد يُفضّل آخرُ الأمجاد الوثنية لليونان القديمة أو النهضة الإيطالية؛ وإذا كانت المسألة جماليةً فقط، لا يُمكن الوصول لقرار سليم بشكل شامل. إذا كانت طريقة الاقتراب فقط من خلال إدراك الجمال، فحينها ينبغي التخلّي عن أن تكون المسيحية بأي حال ديانة كونية أو شاملة.

علاوة على ذلك، هل تُعد حياة وتعاليم يسوع جميلة بعد كل شيء؟ قال يسوع بعض الأشياء التي استاءت بسببها مشاعر الكثير من الناس، مثل المرات التي تحدّث فيها عن الظلمة الخارجية والنار الأبديّة، وعن الخطيئة التي لن تُغفر في هذا العالم أو العالم الآتي. لا يُمكن قول إن تلك الأمور "جميلة" تماماً؛ ويتجاهلها الكثيرون ببساطة. منذ عدة سنوات، استمعتُ إلى أحد الوُعّاض، وبعد إساءة الاقتباس المُعتادة لكلمات كالفن وآخرين، نال ابتساماً من مُستمعيه عن طريق اقتباس شيئاً قاله كوتون ماثر (Cotton Mather) عن الجحيم.

إن السؤال الذي ربما خطر على بالي بينما استمعتُ له كان: لما كان على الواعظ أن يبتعد كثيرًا هكذا. لماذا لجأ إلى كوتون ماثر، بينما كانت كلمات يسوع ستقوم بذلك؟ توجد كلمات ليسوع عن الجحيم رهيبية بنفس قدر أي كلمات يُمكن العثور عليها في كتابات اللاهوتيين؛ وربما كانت تلك الكلمات ستلقى إبتسامة جيدة -من أولئك المُستمعين- مثل كلمات جوناثان إدواردز (Jonathan Edwards) أو كوتون ماثر أو الآخرين.

مع ذلك، لم تكن تلك الكلمات لتلقى ابتسامة مثل تلك من طبقة مُعينة من الناس، وبالنسبة لهم، يبدو أن تلك الكلمات لم تكن لتُفسد ولو مقدارًا ضئيلًا من جمال تعاليم الرب. هؤلاء هم الناس الذين عبروا خلال الخبرة العجيبة لتبكيته الخطيئة، وهم الناس الذين يتمسكون بنفس المنظور عن الخطيئة والعقاب الذي تمسك به يسوع. بالنسبة لهؤلاء الأشخاص، وبالنسبة لهم وحدهم، يُعد جمال المسيح بلا عيب. لا يُمكن تقدير ذلك الجمال بدون معرفة للقداسة التي يُبنى عليها؛ وتُعتبر القداسة غير معروفة إلا للذين تم تبكيته على خطاياهم من خلال تعلم درس الناموس.

ثالثًا، يُمكن أن يُحاول البشر المجيء إلى المسيح من خلال الرغبة في الرفقة؛ يسعون إلى إيجاد صديق فيه، والذي سيكون مُخلصًا عندما يرحل الأصدقاء الآخرون. لكن الرفقة مع يسوع ليست أمرًا مُريحًا دائمًا مثلما يُنظر إليها أحيانًا؛ لم يجعل يسوع دائمًا من السهل أن تكون تلميذًا له. قال يسوع لأحد المُتحمسين الذين أتوا في حماس إليه لكن دون الرغبة في التخلي فورًا عن كل شيء: "دَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتَاهُمْ". وقال للشباب الغني: "يُعْزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ"، فمضى الشاب حزينًا. وقال لرجال أرادوا أن يُرافقوه دون أن يتحازوا لأحد الأطراف: "مَنْ لَيْسَ مَعِيَ فَهُوَ عَلَيَّ". وقال أيضًا: "إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلَا يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلَادَهُ ... فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تَلْمِيزًا". لقد كان أمرًا جادًا للغاية، في تلك الأيام، أن يكون الإنسان تلميذًا للمسيح.

ولقد كان أمرًا جادًا لا فقط في مجال السلوك بل أيضًا في مجال الفكر. لم يكن هناك خطأ أكبر من افتراض أن إنسانًا ما في تلك الأيام، كان يستطيع التفكير كما يحلو له ويظل تابعًا ليسوع. على العكس، إن العثرة موجودة فيما يتعلّق بمجال العقيدة كما في مجال الحياة؛ إن تصريحات يسوع الحصريّة -أنه ينبغي على الإنسان أن يتخلى عن الكل لكي يتبعه، إذا وجب ذلك- كانت مؤسسة على المنظور الهائل الذي كان ليسوع بخصوص شخصه وإرسالته؛ لم يكن لأي إنسان أن يستمتع حقًا برفقة بيسوع إذا لم يعترف بسُلطة يسوع المطلقة.

بالتأكيد، لبعض الأشخاص كان نيره هَيِّنًا وجملة خفيفًا؛ فَرِحَ البعضُ بالأمور السامية التي طلبها باعتبارها رجاء نفوسهم. كان هؤلاء هم الذين وقعوا تحت تبكيت الخطيئة – الخُطاة الذين ليس لهم التماس إلا لرحمته، سمعوا تلك الكلمات المُنعمية: "مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ".

كما كان الأمر حينها، هكذا سيكون اليوم: تُعتبر رفقة يسوع بالتأكيد أمرًا مُنعمًا للنفوس المُتعبَة؛ لكنها أمرًا فظيعةً للذين ليس لهم ثقة في بَرِّهم الذاتي. لا يستطيع أي إنسان أن يَعتبر يسوع صديقًا له دون أن يدعوه ربًّا؛ ولا يستطيع أي إنسان أن يدعوه ربًّا قبل أن يقول أولًا: "ابتعد عني يَا رَبُّ، لَأَنِّي رَجُلٌ خَاطِئٌ". لذلك، يقع في قلب الصداقة الحقيقية مع يسوع إدراكٌ للخطيئة ومعها الاتكال على رحمته؛ لكي تكون لك شركة معه، من الضروري أن تتعلَّم الدرس الرهيب المُتعلِّق بناموس الله.

أخيرًا، يسعى البشر إلى المجيء إلى المسيح من خلال الرغبة في إيجاد مثل أعلى قَيِّم؛ بالطبع، تُعتبر هذه أكثر الطرق المُتَّبعة على الإطلاق الآن. كثيرًا ما يقول أحد الأشخاص المُعاصرين: "قد لا يكون إيماني مُستقيمًا جدًّا، لكنني مسيحي لأنني أوُمن بأن مبادئ يسوع ستحل كل مشاكل حياتي وكذلك مشاكل المُجتمع".

إن أوضح اعتراض على طريقة الاقتراب من يسوع هذه هو أنها لن تُجدي نفعًا؛ إن مثلًا أعلى سيعتبر بلا قوة بالنسبة لإنسان تحت عبودية الخطيئة؛ ويُعد المجد الحقيقي للمسيح هو أنه يُحطِّم تلك العبودية، وبدلًا من أن يُقدِّم مُجرد الإرشاد، مثلما قد يفعل مثلٌ أعلى، سيعطي يسوع القوة أيضًا.

مع ذلك، يوجد اعتراض آخر. يُقال إنه يُمكن النظر إلى يسوع باعتباره المثل الأعلى الأسمى والمثالي للبشرية. لكن، هل هو مثل أعلى مثالي؟ توجد صعوبة واحدة بخصوص نظر الأشخاص المُعاصرين إليه بهذه الطريقة – الصعوبة الناتجة عن تصريحاته الهائلة. لا يُمكن أن يتواجد شك حقيقي، في ذهن مؤرخٍ يفحص الحقائق، في أن يسوع الناصري هذا أعلن نفسه بصفته المَسيَّا؛ ولا يُمكن أن يتواجد شك حقيقي أيضًا في أنه أعلن نفسه بصفته المَسيَّا لا فقط بمعنى أدنى للمصطلح، بل بالمعنى السامي الذي يَصِف به ابن الإنسان السماوي، الشخص المجيد الذي ظهر في الأصحاح السابع من سفر دانيال في مَحضر القديم الأيام. بكلمات أخرى، يسوع الناصري هذا الذي يُنظر إليه بصفته المثل الأعلى السامي للجنس البشري، بينما تَطَّلَع إلى مُعاصريه، آمن بالفعل بأنه سيجلس يومًا ما على عرش الله وسيكون دَيَّانهم، ودَيَّان كل الأرض! ألن يكون شخص مثل هذا، إن لم يَكُن مجنونًا بالفعل، على الأقل غير مُترن وغير جدير بثقة البشر الكاملة؟

توجد طريقة واحدة للتغلب على هذه الصعوبة – هي قبول التصريحات السامية ليسوه باعتبارها حقيقة مُترنة. إذا تم إنكار تلك التصريحات – مهما جادل البشر – فسيَتوقَّف حينها النبي الذي من الجليل عن أن

يكون مثلاً أعلى سامياً وكاملاً. لكن يُمكن قبول التصريحات باعتبارها صحيحة فقط عندما يتبنّى الإنسان نفس منظور يسوع نحو إرساليّة يسوع نفسه، وفقط عندما ينظر الإنسان إليه بصفته الفادي الإلهي الذي أتى طوعاً إلى العالم ليخلص البشر من الذنب ومن قوة الخطيئة. لو كان يسوع مجرد مثلٍ أعلى، فلن يكون مثلاً أعلى مثالياً؛ لأنه صرّح بأنه أكثر من ذلك بكثير: لكن إذا كان المُخلص من الخطيئة، فهو إذن النموذج المثالي الذي لا يُمكن التفوّق عليه أبداً. لكن يُمكن قبوله بصفته المُخلص من الخطيئة فقط بواسطة الذين لهم نفس منظوره للخطيئة؛ ويُمكن أن يكون ذلك المنظور فقط لدى الذين تعلّموا درس الناموس.

الحقيقة إذن هي أنه لا توجد طريقة أخرى للمجيء إلى المسيح سوى الطريقة القديمة الموجودة في التبكيث على الخطيئة. لا يُمكن إثبات حقيقة المسيحيّة عن طريق التفكير إلا إذا تم بناء جزء هام من الحجة على حقيقة الخطيئة المُعلنة في ناموس الله؛ إن جمال يسوع، والذي يجذب أنظار البشر، لا يُمكن تقديره بدون معرفة للقداسة التي يتأسس عليها؛ تُعتبر رفقة يسوع مُمكنة فقط للذين يقولون أولاً، في ندم عميق: "ابتعد عني يا ربّ، لأنّي رجلٌ خاطئٌ". يُعتبر نموذج يسوع بلا قوة للذين هم في عبوديّة الطبع الشرير، ولا يُعتبر حتى نموذجاً مثالياً إلا إذا كان هو الفادي الإلهي الذي صرّح أنه هو. لذلك، يوجد المرئي الحقيقي الذي يأتي بالبشر إلى المسيح، الآن ودائماً، في ناموس الله – ناموس الله الذي يُعطي البشر إدراكاً للخطيئة.

إن إعلاناً جديداً وأكثر قوة لذلك الناموس، ربما يُعد الحاجة الأكثر إلحاحاً اليوم؛ سيواجه البشر صعوبة أقل مع رسالة الإنجيل إذا كانوا قد تعلّموا فقط درس الناموس. كما هو الوضع، يبتعدون عن المسار المسيحي؛ يتحوّلون إلى قريّة الأخلاق، وإلى بيت الأستاذ "ناموسي"، الذي يُقال إنه ماهر جداً في التخفيف عن أحمال الناس. بالتأكيد، تنكّر الأستاذ ناموسي في يومنا هذا بشكل ما، لكنه مثل نفس المُخادع الذي كتب عنه بنيان (Bunyan). أن "يجعل المسيح سيّداً" في الحياة، ووضع "مبادئ المسيح" قيد التنفيذ عن طريق مجهودات الإنسان – هي مجرد طرق جديدة لنوال الخلاص عن طريق طاعة الإنسان لوصايا الله. ويتم استخدام تلك الطرق بسبب منظور مُتكاسل نحو حقيقة تلك الوصايا. هكذا هو الأمر دائماً: يُحضر منظورٌ أدنى للناموس الناموسيّة دائماً إلى المسيحيّة؛ يقوم منظورٌ سامٍ للناموس بجعل الإنسان باحثاً عن النعمة. صلّوا إلى الله أن يسود مُجدداً المنظور السامي؛ أن يُشرف جبل سيناء على الطريق مُجدداً وينفُث لهباً، من أجل أن يُقابل البشر في يومنا هذا، مثل "المسيحي" في قصة سياحة المسيحي، بعض الكارزين الحقيقيين، الذين سيُشيرون إلى الطريق القديم، عبّر الباب الضيق، إلى مكان مُرتفع بشكل ما، حيث سيرون الصليب فعلاً والشخص الذي تعلق عليه،

وأنه أمام ذلك المنظور، حمل ذنب الخطيئة الذي لا تستطيع يد أي إنسان أن تُزيله، سيقع من على أكتافهم إلى قبر بجانب الطريق، وأنه حينها، في خِفةٍ عجيبة وحرية وفرح، سيسلكون الطريق المسيحي، عبّر وادي

الإهانة ووادي ظل الموت، صعودًا إلى الجبال المُفرحة، إلى أن يَعبروا النهر في النهاية بانتصار إلى مدينة الله.

الفصل الخامس

الإيمان ورسالة الإنجيل

إن كان ما قلناه حتى الآن صحيحًا، فيوجد مُخَلِّصٌ حَيٌّ جديرٌ بثقتنا، المسيح يسوع الرب، ويوجد احتياجٌ شديد لنفوسنا، لأجله نأتي إلى المسيح، أي لعنة ناموس الله، الذنب الرهيب للخطيئة. لكن تلك الأشياء ليست كل ما نحتاجه لكي يكون لنا إيمان. من الضروري أيضًا، أن يكون هناك اتصال بين المُخلص والاحتياج. إن المسيح مُخلصٌ كافٍ؛ لكن ما الذي فعله، وما الذي سيفعله، لا فقط لأجل البشر الذين كانوا معه في أيام جسده، بل لأجلنا نحن؟ كيف يلمس المسيح حياتنا؟

إن الإجابة التي تُقَدِّمها كلمة الله على هذا السؤال هي إجابة مُحدَّدة وواضحة تمامًا. وفقًا للعهد الجديد، يلمس المسيح حياتنا من خلال الصليب. لقد كُنَّا نَسْتَحِقُّ الموت الأبدي، وفقًا للعنة ناموس الله؛ لكن الرب يسوع، لأنه أحبُّنا، حملَ بنفسه ذنب خطايانا ومات بدلًا عنا في الجُلُثَّة. ويتكوَّن الإيمان ببساطة من قبولنا لتلك العطية العجيبة. عندما نَقْبَل العطية، نلبس بر المسيح، بدوننا أي استحقاق منا إطلاقًا؛ عندما يَنْظُر الله إلينا، فإنه لا يرى نجاستنا بل طهارة المسيح التي بلا عيب، ويقبلنا باعتبارنا "أبرار في نظره، فقط لأن بر المسيح حُسب لنا، ولنلناه بالإيمان وحده."

لا يُمكن إنكار أن مَنظَر الصليب يَتعارض تمامًا مع ذهن الإنسان الطبيعي. بالتأكيد، لا يُعد الصليب مُعَقِّدًا أو غامضًا؛ على العكس، يُعد بسيطًا للغاية لدرجة أن طفلًا يستطيع فَهْمه، وما يُعتبر غامضًا بالفعل هو المجهود المُعاصر المُتعدد لتفنيد الصليب بطريقة تجعله أكثر توافقًا مع الكبرياء البشري. لكن بالتأكيد، يُعد الصليب سرًّا، وبالتأكيد لكي يُقْبَل، يَتطلَّب الأمر شعورًا هائلًا بالذنب والخطيئة. إن ذلك الشعور بالخطيئة والذنب، ذلك الاستيقاظ الأخلاقي لنفسٍ ميتة في الخطيئة، هو عمل روح الله؛ بدون عمل روح الله، لن يُحضر أي اقناع بشري الإنسان إلى الإيمان. لكن ذلك لا يعني أنه ينبغي علينا أن نكون غير مُهتمين بالطريقة التي تُنادي بها برسالة الإنجيل: إن كَوْن المُناداة بالرسالة غير كافية لإنتاج أو حَثِّ الإيمان، لا يعني بالضرورة أن المُناداة بها غير ضرورية؛ على العكس، إنها الوسيلة التي يَستخدِمها روح الله نفسه بشكل مُنعم في إحضار البشر إلى المسيح. لذلك، ينبغي عَمَل كل مجهود بمُساعدة من الله، لإزالة الاعتراضات على "كلمة الصليب" هذه، ولتقديمها في كامل قوتها المُنعمة.

بالتأكيد، لا يُمكن القيام هنا بأي مجهود منظومي للتعامل مع الاعتراضات. كل ما يُمكن عمله هو ذِكر واحد أو اثنين منها، لكي تَتَّضح المسألة الحالية، أن صليب المسيح هو الأساس الخاص للإيمان المسيحي.

أولاً، إن المنظور بخصوص الصليب والذي تم استعراضه للتو، كثيراً ما يُستخَف به باعتباره مُجرد "نظرية للكفارة". يُقال إنه يُمكن أن تكون لدينا حقيقة الكفارة، بغض النظر عن أي نظرية مُحَدَّدة نتمسك بها بخصوصها، وحتى بدون التمسك بأي نظرية مُحَدَّدة على الإطلاق. لذلك يُقال إن نظرة البدلية هو بعد كل شيء، واحدة من بين نظريات كثيرة.

يَتأسَّس هذا الاعتراض على منظور خاطئ عن التمييز بين الحقيقة والنظرية، وعلى استخدام غامض بشكل ما لكلمة "نظرية". ما المقصود بكلمة "نظرية"؟ مما لا شك فيه، أن غالباً ما يكون للكلمة وقع غير مُحبب؛ وقد يبدو أن استخدامها في الرَبْط الحالي يُوحي بأن المنظور بخصوص الكفارة الذي تُحدِّد باعتباره "نظرية" هو مُجرد مجهود من الإنسان ليشرح بطريقته ما قدَّمه الله. لكن، أليس من المُمكن أن يكون الله أعلن "نظرية" لأمر ما بشكل حقيقي مثل الأمر نفسه؛ أليس من المُمكن أن يكون الله قد أعطى الشرح عندما أعطى الأمر نفسه؟ في تلك الحالة، يأتي لنا الشرح وكذلك الأمر نفسه بواسطة سلطان إلهي، ومن المستحيل قبول واحدٍ دون الآخر.

مع ذلك، لم نصل بعد إلى قلب الموضوع. يقول الناس إنهم يقبلون حقيقة الكفارة دون أن يقبلوا نظرية الكفارة البدلية، وبالطبع بدون التأكد من أي نظرية على الإطلاق. إن المشكلة في هذا التوجُّه هو أنه في اللحظة التي نقول فيها كلمة "كفارة"، نكون اجتزنا بالفعل الخط الذي يفصل بين الحقيقة والنظرية؛ إن "الكفارة" حتى بالمعنى الأكثر عمومية والأقل تحديداً الذي يُمكن تصوُّر أن يُعطى للكلمة، لا يستطيع أن يكون مُجرد حقيقة، بل هي حقيقة كما تُشرح بواسطة الغرض منها ونتائجها. إذا قلنا إن حدثاً ما كان "كفارة" للخطية أو أنه "كفارة" بمعنى أنه تحقيق للتناغم بين الله والإنسان، فإننا نكون قد وَصَفنا ما هو أكثر من مُجرد الحدث الخارجي. ما قُمنا به بالفعل هو وَصَف الحدث من خلال شرح لمعناه. لذلك لا يُمكن أن تكون الكفارة التي أتمَّها المسيح حقيقة عارية بالمعنى الذي نتعامل معه الآن. إن الحقيقة العارية هي ببساطة موتُ رجلٍ يهودي على صليبٍ في القرن الأول، وليس لتلك الحقيقة العارية أي قيمة لأي إنسان؛ ما يُعطيها قيمتها هو شرحها بصفاتها وسيلةً بها تمَّ إحضار الإنسان الخاطي إلى مَحضر الله. من المُستحيل علينا أن نحصل على أي فائدة ولو قليلة من تأمل مُجرد لِموت المسيح. تأتي لنا كل الفوائد أو البركات من معرفة معنى ذلك الموت، أو بكلمات أخرى (إذا أُستخدِم التعبير بالمعنى السامي) من معرفة نظريتنا بخصوص ذلك الموت. لذلك، إذا تحدَّثنا عن "الحقيقة" العارية للكفارة، كما تَنَميَّز عن "نظرية" بخصوصها، فإننا نَشترك في استخدام مُضِلٍّ للكلمات؛ إن الحقيقة العارية هي الموت، وفي اللحظة التي نقول فيها كلمة "كفارة"، نكون عهدنا بأنفسنا لنظرية ما. إن الأمر الهام إذن، بما أنه يجب أن يكون لنا نظرية ما، هو أن تكون تلك النظرية المُحدَّدة صحيحة.

لكن يُمكن أن يُقال، أليس من المُمكن أن يكون الله حَقَّقَ أمرًا عجيبيًا بموت المسيح، دون أن يُعلن لنا ماذا كان ذلك الأمر، إلا بالتعبيرات الأكثر عموميّة؟ ألم يكن بإمكانه أن يُخبرنا ببساطة أن خلاصنا يعتمد على موت المسيح دون أن يُخبرنا كيف حدث ذلك؟ نُجيب بأنه بالتأكيد كان بإمكانه فعل ذلك؛ لكن السؤال هو ما إذا كان فعل ذلك حقيقةً. توجد العديد من الأمور التي من المُمكن تصوُّر أنه كان بإمكانه فعلها، لكنه لم يفعلها حقيقةً. فمثلاً، من المُمكن تصوُّر أنه خلَّصنا عن طريق وضعه لنا في حالة من اللاوعي ثم يُنهضنا إلى حياة جديدة ليس للخطيئة مكان فيها. لكن، من الواضح تمامًا، أنه من الواقع، أنه لم يفعل ذلك؛ وحتى نحن بذكائنا المحدود الزهيد، قد نتمكّن من رؤية أن طُرقه أفضل من ذلك. لذا، من المُمكن تمامًا تصوُّر أن الله خلَّصنا بموت المسيح دون أن يُعلن لنا كيف فعل ذلك؛ في تلك الحالة، سيكون علينا أن نَسُجِدَ أمام صليبٍ بَقَهُمْ أدنى بكثير من ذلك الموجود في أقل أشكال التقوى الكاثوليكيّة الرومانيّة. من المُمكن تصوُّر أنه تعامل معنا بتلك الطريقة. لكن، حمدًا لله، لم يفعل ذلك؛ حمدًا لله أنه سرٌّ، في نعمته غير المحدودة، أن يتعامل معنا لا كالعُصي والحجارة، بل بصفتنا أشخاصًا. حمدًا لله أنه سرٌّ بأن يُعلن لنا في صليب المسيح معنى ما والذي يُهدأ الصوت اليائس للضمير ويضع في قلوبنا أنشودة فرح والتي ستعلو بتسبيحه بطول الأبدية.

يوجد ذلك الغنى في المعنى فقط في العقيدة المباركة التي تقول إن على الصليب، أخذ الرّب مكاننا، وإنه قدّم نفسه "ذبيحة لاسترضاء العدل الإلهي، وليُصالحنا مع الله." توجد بالتأكيد طُرق أخرى للتفكير في الصليب، وبالتأكيد، يُجب ألا يتجاهلها المؤمن. لكنه خطأ قاتل ومُحزن أن نتعامل مع تلك الطُرق الأخرى كما لو أنها تقع في نفس المستوى مع هذه الطريقة الأساسيّة؛ في الواقع، تفقد كل "نظريّات" الكفارة الأخرى كل معناها إلا إذا تم ربطها مع هذه "النظرية" المباركة. عندما تؤخّذ مع تلك الطريقة للنظر إلى الصليب، فإن الطُرق الأخرى تكون مُفيدة بالكامل للمؤمن؛ لكن بدون الطريقة الأساسيّة، ستفقد الطُرق الأخرى فقط إلى الحيرة واليأس. لذلك يُعتبر صليب المسيح بالتأكيد مِثَالًا نبيلًا على التضحية بالذات؛ لكن إذا كان مِثَالًا نبيلًا فقط على التضحية بالذات، فلن يحمل أي راحة للنفوس المتعبّة؛ إنه يُظهر بالتأكيد أن الله يكره الخطيئة؛ لكن إذا لم يفعل سوى إظهار يُظهر أن الله يكره الخطيئة، فإنه فقط سيُعمّق يأسنا؛ إنه يعرض بالتأكيد محبة الله، لكن إذا لم يفعل أي شيء سوى عرض محبة الله، فإنه سيكون مُجرد عرض بلا معنى لا يليق بالله. يُعلّمنا الصليب العديد من الأمور؛ لكننا نتعلّم الأمور الأخرى فقط إذا تم الحفاظ على المعنى المركزي، المعنى المركزي الذي تعتمد عليها كل الأمور الباقية. لقد دُفِع ثمن أو عقوبة خطايانا على الصليب؛ إن الأمر كما لو أننا نحن مُتنا كتحقيق للعنة الناموس العادلة؛ لقد مُحي الصك الذي علينا في فرائض؛ وبذلك تكون لنا حياة جديدة بالكامل في نعمة الله الكاملة.

مع ذلك، يوجد اعتراض آخر على "كلمة الصليب" هذه. يأتي الاعتراض من الذين يضعون إيمانهم بشخص ما في تعارض مع قبول عقيدة ما، وخصوصًا، عقيدة مَبْنِيَّة على ما حدث منذ زمن بعيد. يُقال، ألا نستطيع أن نثق بالمسيح باعتباره مُخلصًا حاضرًا دون قبول عقيدة ما تشرح الموت الذي ماته في القرن الأول الميلادي؟ كثيرًا ما يُسأل هذا السؤال بشكل أو بآخر، وكثيرًا ما تتم إجابته بالإيجاب. بالطبع، كثيرًا ما نُقدِّم الرسالة العقائدية بخصوص المسيح باعتبارها عائقًا يجب إزالته لكي نحصل على المسيح نفسه؛ يُقال إنه ينبغي إزالة الإيمان بعقيدة ما لكي يبقى الإيمان بالشخص.

أيًا ما كان تقييمنا لهذه الطريقة في التفكير، يجب الاعتراف في البداية على أي حال، بأنها تتضمن انشقاقًا كاملاً عن الكنيسة المبكرة. إذا كان هناك شيء واحد واضح للمؤرخ، فهو أن المسيحية في بدايتها تأسست مباشرة على الأمور التي حدثت بالفعل، أي تأسست على مجموعة من الأخبار، أو بكلمات أخرى، على "رسالة الإنجيل". إن المسألة واضحة تحديدًا في الملخص الذي قدَّمه بولس في كورنثوس الأولى ١٥: ٣-٧ عن التقليد المبكر في أورشليم: "أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا حَسَبَ الْكُتُبِ، وَأَنَّهُ دُفِنَ، وَأَنَّهُ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ حَسَبَ الْكُتُبِ." من الواضح أن أقدم كنيسة في أورشليم، لم تتأسس على ما كان صحيحًا على الدوام بل على الأشياء التي حدثت، لا على الحقائق الأزلية للمسيحية فقط بل على الحقائق التاريخية أيضًا. علاوة على ذلك، لا تُعتبر الحقائق التاريخية التي تأسست المسيحية عليها حقائق عارية بل حقائق كان لها معنى؛ لم يُنادى فقط بأن "المسيح مات" - كان ذلك سيكون (على الأقل إذا نُظر إلى كلمة "المسيح" باعتبارها مجرد اسم عَمَل لا بحسب الأهمية الرفيعة "للمسيح") حقيقة عارية - لكن ما نُؤدِّي به هو "أَنَّ الْمَسِيحَ مَاتَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا"، وتلك كانت حقيقة تُقدِّم معنى الحقيقة - بكلمات أخرى، كانت عقيدة.

لا يُعتبر ذلك المقطع معزولاً عن تعاليم العهد الجديد، لكنه فقط خلاصة لما تفترضه كل النصوص. بالتأكيد، إن تأسيس المسيحية على الحقائق والأحداث التي يتم تمييزها عن مبادئ أزلية خالصة، لا يمكن أن يُعتبر نقطة تعارضت فيها كنيسة الرسل مع تعاليم يسوع نفسه التي قدَّمها في أيام جسده، لكن ذلك التأسيس يجد مُبرراً له في الكلمات التي نطق بها يسوع. بالطبع، إذا كان يسوع حقًا كما تقول أسفار العهد الجديد، قد أتى بحسب لغة أحد الوُعَاظ البارزين - لا ليقول شيئاً ما في الأساس بل ليفعل شيئاً ما، وإذا تمَّ ذلك الشيء بواسطة موته وقيامته، فمن الطبيعي إذن أن التفسير الكامل لما فعله لا يمكن أن يُقدِّم قبل أن يحدث الموت والقيامة. لذلك، يُعد ذلك خطأً كبيراً أن يُنظر إلى الموعظة على الجبل باعتبارها أكثر قدسية أو ضرورة لطبيعة الحياة المسيحية من الأصحاح الثامن لرسالة رومية مثلاً. لكن رغم أن التفسير الكامل للفداء لا يمكن أن يُقدِّم قبل أن يقع الحدث الفدائي، فإنَّ ربَّنَا أشار إلى ما هو آتٍ، حتى في أيام جسده، عن طريق النبوة. لقد أشار مُسبقاً إلى الأحداث الكارثية التي سيُقدِّم بها الخلاص للبشر؛ لقد فشل كل المجهودات لإزالة هذا الجانب في تعاليمه عن ملكوت الله. في أثناء خدمة يسوع على الأرض، كان

العمل الفدائي الذي تنبأ به أنبياء العهد القديم ما يزال في المُستقبل؛ بالنسبة لكنيسة الرُّسل كان ذلك الأمر في الماضي: لكن، أعلن كلٌّ من يسوع وكنييسة الرُّسل، أحدهم عن طريق النبوة، والآخر عن طريق الشهادة التاريخية، عن حدثٍ تأسَّس عليه رجاء المؤمنين.

إن فكرة الإصرار على أن رسالة الفداء من خلال موت وقيامة ربِّنا يضع حاجزًا بين أنفسنا وبينه لم تكن عند الكنيسة المبكرة؛ على العكس، لقد نُظِرَ إلى تلك الرسالة في عصر الرُّسل باعتبارها مصدرًا لكل النور والفرح. وفي الوُضع الحالي، كما في حالات أخرى، يُمكن إظهار أن الرُّسل (وربِّنا نفسه) كانوا على حق. الحقيقة هي أنه ينبغي التخلّي عن التعارض بأكمله بين الإيمان بشخصٍ ما وقبول رسالة ما عن ذلك الشخص. كما رأينا بالفعل، إن تلك الفكرة مبنية على سيكولوجية مُضِلَّة؛ لا يُمكن الثِّقة بشخصٍ ما دون قبول الحقائق المُتعلِّقة بذلك الشخص. لكن في حالة يسوع، تُعدُّ الفكرة زائفة تحديدًا؛ لأن الرسالة المُتعلِّقة بيسوع، الرسالة التي تُعلن الصليب والقيامة، هي التي تأتي بنا إلى تواصل معه. بدون تلك الرسالة، سيُصبح المسيح بعيدًا إلى الأبد -سيُصبح شخصًا عظيمًا، لكن يستحيل أن تكون لنا شركة معه- لكن من خلال تلك الرسالة، يُصبح المسيح مُخلِّصنا. لا تُحدِّث الشركة الحقيقية مع المسيح فقط عندما يقول إنسان ما عند تأمله في الصليب: "بِالْحَقِيقَةِ كَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ بَارًّا"، أو "حَقًّا كَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ ابْنًا لِلَّهِ"، بل عندما يقول بدموع الامتنان والفرح: "أَحَبَّنِي وَأَسَلَّمَ نَفْسَهُ لِأَجْلِي".

توجد جُملة رائعة في دليل أسئلة وأجوبة وستمنستر الموجز والتي تصيغ الحالة الحقيقية للقضية بطريقة كلاسيكية. يقول الدليل: "الإيمان بيسوع المسيح هو نعمة مُخلِّصة، من خلالها نقبل المسيح ونتكل عليه وحده للخلاص، كما هو مقدّم لنا في الإنجيل." في تلك الجُملة: "كما هو مقدّم لنا في الإنجيل"، يوجد لدينا قلب ولُب القضية كلها. لا يَنفَعنا الرب يسوع المسيح إطلاقًا، مهما كان عظيمًا، إلا إذا قُدِّمَ لنا؛ وفي الواقع، يُقدِّم لنا المسيح في الأخبار السارة المُتعلِّقة بعمله الفدائي. توجد طرق أخرى يُمكن تصوُّر أنه يُقدِّم بها إلينا؛ لكن تلك الطريقة تتميز بأنها طريقة الله. وأفضِّل أن أظن أننا على المدى البعيد سنرى أن طريقة الله هي الأفضل.

صحيح أنه في البداية، قد تكون هناك الكثير من الأمور التي لا نفهمها؛ توجد أمور بخصوص طريق الخلاص والتي قد نَقبلها في البداية بالمعنى الأشمل "بالإيمان". قد تُعتبر البساطة المدهشة لرسالة الإنجيل أكبر العثرات على الإطلاق، والتي تختلف عن الخطط التي صنعناها بأنفسنا. مثل نُعمان السرياني، نتفاجأ عندما تُرفض أموالنا الكثيرة وخطابات التزكية الخاصة بنا، عندما يُنظر إلى كل مجهوداتنا لتخليص أنفسنا بواسطة شخصياتنا أو أعمالنا الصالحة باعتبارها غير نافعة على الإطلاق. نقول: أَلَيْسَ أَبَانَةٌ وَفَرْفَرٌ نَهْرًا دِمَشْقَ أَحْسَنَ مِنْ جَمِيعِ مِيَاهِ إِسْرَائِيلَ؟" أليست مجهوداتنا الشخصية لتنفيذ "مبادئ يسوع"، أو "لجعل المسيح سيّدًا" عن طريق مجهوداتنا الشخصية في حياتنا، أفضل من رسالة الصليب الغريبة تلك؟ لكن، إذا

وضعنا كبرياءنا جانبًا، إذا كُنَّا راغبين في تصديق كلام الله، إذا اعترفنا بأن طريقته هي الأفضل، قد نجد مثل نُعمان أن جسدنا، والمُصاب بالخطيئة، سيرجع ثانية ويصير مثل جسد طفل صغير وسيتطهر.

وستُعلن لنا حينها عجائب الخلاص الكاملة؛ بينما تمضي السنون، سنتوصل إلى فهم مجد الصليب أكثر وأكثر، قد يبدو في البداية أمرًا غريبًا أن المسيح لا يُقدِّم لنا بطريقةٍ ما أخرى، بل بهذه الطريقة تحديدًا؛ لكن بينما ننمو في المعرفة والنعمة سنرى في اكتمال مُتزايد أنه لا يمكن أن تكون هناك طريقة أفضل من هذه. لا يُقدِّم لنا المسيح بطريقة عامة، بل "في رسالة الإنجيل"؛ لكن في رسالة الإنجيل يوجد كل ما يستطيع قلب الإنسان أن يَتَمَنَّاه.

لذلك، ينبغي ألا نضع الشركة الحالية مع المسيح أبدًا في تعارض مع رسالة الإنجيل، مثلما يفعل الكثيرون؛ ينبغي ألا نقول أبدًا إننا مُهتمون بما يفعله المسيح لأجلنا، لكننا غير مُهتمين بنفس القدر بما فعله لأجلنا منذ زمن بعيد. هل نعرف ما الذي يحدث سريعًا بعدما يتحدَّث الناس هكذا؟ إن الإجابة واضحة للغاية. يفقدون سريعًا أي اتصال بالمسيح الحقيقي؛ ما يدعونه "المسيح" بداخل النفس، يُصبح سريعًا مُرتبطًا بشكل ضعيف جدًا مع الشخص الحقيقي؛ يسوع الناصري؛ إن مسيحيَّتهم ستبقي جوهريًا كما هي إذا أثبت التاريخ العلمي أن شخصًا يدعى يسوع لم يكن موجودًا على الإطلاق. بكلمات أخرى، يستبدلون سريعًا ما أعلنه الله بما تتخيَّله قلوبهم؛ يستبدلون المسيحية بالصوفيَّة باعتبارها ديانة نفوسهم.

ينبغي أن يتجنَّب المؤمن ذلك الخطر بكل قوة مُمكنة لديه. لقد أعطانا الله مرساةً لنفوسنا؛ لقد ثبتَّت الله لنفسه بواسطة رسالة الصليب. ليتنا لا نطرح تلك المرساة بعيدًا؛ ليتنا لا نُضعف من ارتباطنا مع الأحداث التي يتأسَّس عليها الإيمان. إن ذلك الاعتماد على الماضي لن يَمُنَّعنا أبدًا من التمتع بشركة حالية مع المسيح؛ ستكون شركتنا معه داخلية، وحميمية وغير مُقيَّدة بواسطة أي حاجز شعوري، بنفس درجة الشركة التي يتفخَّر بها الصوفيون؛ لكن على عكس شركة الصوفيين، لن تكون شركة مع ما تتخيَّله قلوبنا، بل مع المُخلص يسوع المسيح الحقيقي. إن رسالة إنجيل الفداء من خلال صليب وقيامه المسيح ليست عائقًا بيننا وبين المسيح، لكنها الرابطة المُباركة، التي رَبطنا بها لنفسه إلى الأبد، برُبط المحبة.

إن قبول الرب يسوع المسيح، كما تُقدِّمه لنا رسالة إنجيل عمله الفدائي، هو إيمان مُخلِّص. في يأسنا من أي خلاص يُمكن الحصول عليه بمجهوداتنا، نثق به ببساطة لأن يُخلِّصنا؛ لا نقول بعد الآن، بينما نتأمل الصليب، إنه فقط "خلَّص آخرين" أو "خلَّص العالم" أو "خلَّص الكنيسة"؛ بل يقول، كل واحد مِنَّا، عن طريق قوة الإيمان الفردي الغربية: "أَحْبَبَنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لِأَجْلِي". عندما يقول ذلك أحدُ الأشخاص، في قلبه لا يَفْهمه فقط، فمها كان ذنبه، ومهما كان ابتعاده عن أي سلوك بشري مقبول، ومهما كانت فُرصته ضئيلة على إصلاح الشر الذي ارتكبه، فهو نفس مفديَّة، وابنٌ لله إلى الأبد.

عند هذه النقطة، قد يُطرح سؤالٌ ما. لقد قلنا إن الإيمان المُخلَص هو قبول المسيح، لا بشكل عام فقط، بل كما تُقدِّمه لنا رسالة الإنجيل. قد يُسأل إذن، كم من رسالة الإنجيل يَحْتَاج الإنسان إلى أن يقبل لكي يَخْلَص؛ لكي نَصيغ السؤال بجرأة، ما هي أقل المُتطلبات العقائدية لكي يكون الإنسان مؤمنًا؟ ذلك هو السؤال الذي يُطرح عليّ كثيرًا بشكل أو بآخر؛ لكنه أيضًا سؤال لم أجب عليه أبدًا، وهو سؤال ليس لدي أي نية لإجابته الآن. يُعد بالتأكيد سؤالًا لا أعتقد أن أي إنسان يستطيع إجابته. من سيجرؤ على أن يقول على وجه اليقين ما هي الحالة الروحية لشخص آخر؛ من سيجرؤ على أن يقول ما إذا كان توجُّه الشخص الآخر نحو المسيح، والذي لا يستطيع أن يُعبر عنه بكلام مناسب، هو توجُّه للإيمان المُخلَص أم لا؟ هذا واحد من الأمور التي يجب بالتأكيد أن تُترك لله.

يوجد بالتأكيد سبب مُحدَّد لأن يكون من الطبيعي أن يُطرح السؤال أشرنا إليه للتو؛ يُعد طبيعيًا بسبب وجود الكنيسة المرئية. ينبغي أن تسعى الكنيسة المرئية إلى قبول أكبر عدد ممكن من الأشخاص المُتحدِّين بالمسيح بإيمان مُخلَص، إلى شركة الصلاة وشركة الخدمة، وينبغي أن تسعى إلى إبعاد أكبر عدد ممكن من الأشخاص غير المُتحدِّين به. إذا لم تُمارس الإبعاد وكذلك الضم، فستتوقف سريعًا عن الدفاع عن أي شيء، بل وستندمج مع حياة العالم؛ ستُصبح سريعًا مثل الملح الذي فقد ملوحته، ويصلح فقط لأن يُطرح خارجًا ويُداس من الناس.

لذلك، من أجل تُحفظ نقاوة الكنيسة، يجب مُطالبة كل من يرغبون في أن يكونوا أعضاء في الكنيسة بأن يعترفوا بإيمانهم بالمسيح. لكن أي نوع من الاعتراف يجب أن يكون ذلك؟ أعتقد من ناحيتي أنه يجب ألا يكون مُجرد اعتراف شفوي، بل اعترافًا له مصداقية. يبدو لي أن أحد أكبر الشرور في الحياة الدينية في الوقت الحاضر، هي قبول أشخاص إلى الكنيسة والذين يُكررون فقط صيغةً للكلمات مثل "أنا أقبل يسوع بصقته مُخلَصي الشخصي"، دون إعطاء أي دليل على أنهم يعرفون ما تعنيه تلك الكلمات. وكنتيجه لهذه الممارسة، يتم ضم مجموعة كبيرة من الناس إلى الكنيسة، كما قيل ببراعة، على أساس لا شيء أكثر من تقدير مُبهم لطبيعة يسوع الأخلاقية، أو على أساس غرض مُبهم للاشتراك في العمل الإنساني. أعتقد من ناحيتي أن وجود شخص مثل هذا بداخل الكنيسة، يتسبب بضرر كبير لقضية المسيح أكثر من عشرة أشخاص خارج الكنيسة؛ ويجب تغيير كل هذه الممارسة بشكل جذري. الحقيقة هي أن تلك العملة الكنسية ليوما قد تدهورت بشكل مُحزن؛ لم تُعد عضوية الكنيسة وكذلك الوظائف الكنسية تعني ما يجب أن تعنيه. في ضوء وضع مثل هذا، أعتقد أنه ينبغي أن نواجه الواقع على الأقل؛ بدلًا من تعزية نفوسنا بإحصائيات حضور الكنيسة، ينبغي أن نواجه الحقائق؛ ينبغي أن نلغي تلك العملة الورقية ونعود إلى معيار ذهبي.

أعتقد أنه لهذا الغرض، ينبغي أن يُجعل انضمام أحدهم إلى الكنيسة أكثر صعوبة: ينبغي أن يكون اعتراف الإيمان المطلوب اعترافاً له مصداقية؛ وإذا صار أكيداً بعد الفحص أن المُتقدِّم للعضوية ليس لديه فكرة عما يقوم به، ينبغي أن يُنصح بأن ينضم بعد حضور دورة تعليمية قبل أن يصبح عضواً في الكنيسة.

علاوة على ذلك، ينبغي ألا تُقدِّم تلك الدورة التعليمية بواسطة أشخاص غير مُرتسمين وغير مُدرِّبين نسبياً، بل ينبغي تقديمها عادةً بواسطة الخُدام المُرتسمين؛ ينبغي بشكل عام إحياء المؤسسة الممتازة لفصول التعليم بطريقة السؤال والجواب. إن تلك الكنائس، مثل الكنائس اللوثرية في الولايات المتحدة، والتي أبقت على تلك المؤسسة، استفادت بشكل هائل من توظيفها؛ ويستحق مثالهم بشكل عام أن يُتبع.

مع ذلك، بعد كل شيء، إن تلك الاستفسارات بخصوص أرواح الرجال والنساء والأطفال الذين يرغبون في الانضمام إلى الكنيسة يجب أن يُنظر إليها باعتبارها على الأفضل صعبة جداً ومؤقَّتة بالكامل. بالتأكيد، ينبغي تمييز شروط الانضمام إلى عضوية الكنيسة عن شروط الخدمة بأكثر الطرق الدقيقة الممكنة. إن الخلط بين هذين الأمرين في النقاشات الكنسية في الأعوام القليلة الماضية تسبب في ظلم كبير في الكنيسة من نَحونا نحن الذين ندعى مُحافظين. لقد تم تصويرنا أحياناً كأننا نُطالب الذين يرغبون في أن يصبحوا أعضاء في الكنيسة بأن يقبلوا عصمة الكتاب أو إقرار إيمان كنيستنا، في حين أننا في الواقع، كُنَّا نُطالب فقط الذين يترشَّحون للرئاسة بتلك الأمور. بالتأكيد، يوجد تمييز هام جداً هنا. إن العديد من الأشخاص – إذا استخدمنا مثلاً علمانياً – يستطيعون أن ينضموا إلى مؤسسة تعليمية باعتبارهم طلاباً والذين ما زالوا غير مؤهلين لتقلد منصب في هيئة التدريس. بصورة مُماثلة، يستطيع الكثيرون أن ينضموا إلى عضوية الكنيسة والذين لا ينبغي قبولهم بعد في الخدمة؛ إنهم مؤهلون للتعلُّم، لكنهم غير مؤهلين للقيام بالتعليم؛ لا ينبغي السماح لهم بالتقدُّم باعتبارهم مُعلِّمين مُعتمدين من خلال التأييد الرسمي للكنيسة.

صحيح أن ذلك التشبيه لا ينطبق بالكامل: نعتقد أن الكنيسة ليست مجرد مؤسسة تعليمية، بل تُعتبر المُمثل الظاهر لجسد المسيح في العالم؛ ولا يُعتبر أعضاؤه مجرد باحثين عن الله، بل هم أولئك الذين وجدوه بالفعل؛ ليسوا مُهتمين فقط بالمسيح، بل مُتحدِّين به عن طريق العمل التجديدي لروح الله. مع ذلك، رغم أن التشبيه لا ينطبق بالكامل، إلا أنه ينطبق بما يكفي ليوضِّح ما نَعنيه. يوجد هامش واسع من الاختلاف بين المؤهلات لعضوية الكنيسة والمؤهلات للوظائف الكنسية – خصوصاً الوظيفة أو المنصب التعليمي الذي نُسَميه الخدمة الكنسية. كثيراً ما يتم قبول إلى شركة الكنيسة والفرائض شخصٍ إيمانه ضعيف ويُصارع، وتُمزقه الشكوك؛ سيكون أمراً قاسياً أن يُحرَم من الراحة التي تُوفِّرها شركة مثل هذه؛ تُقدِّم الكنيسة مجاناً لشخص مثل هذا تغذيتها بهدف أن يُقاد إلى معرفة أشمل وإيمان أقوى. لكن أن يُقبل شخص مثل هذا في الخدمة الكنسية، سيكون جريمة في حق تلاميذ المسيح الصغار، الذين يتطلَّعون إلى الخدمة التي تُقدِّمها الكنيسة بحثاً عن كلمة أكيدة، فيما يتعلَّق بالطريقة التي سيخلصون بها. مع ذلك، إن هؤلاء الأشخاص

ليسوا حتى هم من نُشير إليهم بشكل أساسي عندما تُدافع عن عناية أكبر اليوم عند قبول الأشخاص في الخدمة. إننا لا نَعترض بشكل أساسي على ضم أشخاص يُصارعون مع الشكوك والصعوبات بخصوص رسالة الإنجيل، بل على ضم أشخاص مُقتنعين تمامًا برسالة إنجيل أخرى؛ إنه ليس اعتراضًا على أشخاص إيمانهم يفتقر للتأكيد، بل رجال لديهم عدم إيمان مؤكّد.

حتى فيما يتعلّق بعضويّة الكنيسة، كما تَتَمَيَّز عن الخدمة، كما رأينا، يوجد حدّ والذي أبعد منه ينبغي بالتأكيد ممارسة العزل أو الإبعاد؛ لا ينبغي المطالبة فقط بالرغبة في الانضمام إلى الكنيسة، بل وببعض المعرفة أيضًا بخصوص ما يعنيه الانضمام إلى الكنيسة، ولا ينبغي المطالبة فقط باعتراف بالإيمان بل باعتراف له مصداقيّة بشكل مُقنع. لكن النّقطة التي نُحاول الآن إثباتها هي أن تلك الشروط يجب أن تُعتبر بشكل واضح مؤكّقة؛ لا تُحدّد موقف الإنسان أمام الله، بل تُحدّد فقط موقف الإنسان أمام الكنيسة المرئيّة، على أفضل تقدير أعطاه الله للبشر الضّعفاء والجهلاء. إن ذلك أحد الأسباب التي لأجلها يجب أن نرفض أن نُجيب، بأي شكل قاطع أو رسمي، على السؤال المتعلّق بأقل المتطلبات العقائديّة الضروريّة لكي يكون الإنسان مؤمنًا.

مع ذلك، يوجد سبب آخر. يُعتبر السبب الآخر هو أن طرَح السؤال ذاته كثيرًا ما يكون بمثابة علامات على توجّه مؤسّف تجاه الإيمان المسيحي. من ناحيتنا، لا نشعر بقدر كبير من التعاطف مع الرغبة الحالية المنتشرة في إيجاد أكبر عامل مُشترك والذي سيُوحد البشر من كيانات مسيحيّة مُختلفة؛ لأن كثيرًا ما يتضح أن ذلك العامل المُشترك الأكبر بالتأكيد صغير جدًا. يبدو أن بعض الناس يُكرسون مُعظم طاقاتهم لمُهمة رؤية أصغر مقدار من الحقيقة المسيحيّة والذي يستطيعون الانسجام معه. من ناحيتنا، نعتبر ذلك عملاً محفوفًا بالمخاطر، بدلًا من رؤية أصغر مقدار من الحقيقة المسيحيّة الذي نستطيع الانسجام معه، نُفضل أن نرى أكبر مقدار من الحقيقة المسيحيّة والذي نستطيع الوصول إليه. يجب علينا أن نفحص النصوص المقدّسة في وقارٍ وبتفكير عميق، وأن نُصلي إلى الله طالبين أن يقودنا إلى فهم أشمل للحقيقة القادرة أن تجعلنا حُكماء للخلاص. لا توجد أي فضيلة في الجهل، بل توجد فضيلة كبيرة في معرفة ما أعلنه الله.

الفصل السادس

الإيمان والخلاص

لقد انخرطنا في الجزء الأخير من الفصل السابق في نوع من الاستطراد، وحاد الوقت الرجوع إلى النقطة التي تحركنا منها. لاحظنا أنه عندما يقبل إنسان ما المسيح، لا بشكل عام بل بالتحديد "كما تُقدِّمه لنا رسالة الإنجيل"، فإن قبول المسيح هكذا هو إيمانٌ مُخلِّص. قد يحتوي على قدرٍ صغير أو كبير من المعرفة. كلما زادت المعرفة التي يحتويها، كلما كان ذلك أفضل للنفس؛ لكن حتى أقل قدرٍ من المعرفة سيحدث اتحاد حقيقي مع المسيح. إن المسيح، كما تُقدِّمه لنا رسالة إنجيل عمله الفدائي، عندما يُقبل بالإيمان، فإن نفس الإنسان الذي يؤمن تخلص.

إن خلاص المؤمن ذلك، في أحد أبعاده، يُدعى "التبرير بالإيمان"؛ ويجب التفكير في عقيد التبرير بالإيمان تحديداً، لكن باختصار، في المرحلة الحالية مناقشتنا.

مع ذلك، ربما سيكون هناك اعتراضٌ على المصطلحات التي نَجراً على توظيفه. سيُقال إن كلمة "التبرير" هي كلمة طويلة بشكل مُزعج؛ وكذلك بالنسبة لكلمة "عقيدة"، تلك الكلمة التي لها وقع بغیض. بدلاً من تلك المصطلحات، يجب علينا بالتأكيد أن نجد كلمات أبسط والتي ستقوم بتوصيل الموضوع للبشر المعاصرين بطريقة هم معتادون على استخدامها.

يُعتبر هذا الاقتراح نموذجي لما يُقال كثيراً في الوقت الحاضر. يرتعب الكثيرون من استخدام لمصطلح لاهوتي؛ يبدو أنهم يظنون أنه يجب مخاطبة المؤمنين المعاصرين دائماً بكلمات تتكون من مقطع واحد، وأنه في المسيحية يجب علينا التخلي عن الدقة العلمية للغة التي نَبَّتْ أنها مفيدة في مجالات أخرى. في محاولة تطبيق ذلك الميل، لقد تم اقتراح ترجمات متعددة للكتاب المقدس علينا مؤخراً، والتي تختزل كلمة الله بشدة، بشكل أو بآخر، إلى لغة الشارع الحديث، أو التي "تزيل كل الدين من العهد الجديد"، كما تم ذكر الأمر على مسامعي مؤخراً من قبل شخصٍ ذكي. لكننا نعتقد من ناحيتنا، أنه يجب مقاومة ذلك الميل كله. يبدو أن وراء ذلك كله يوجد الافتراض الغريب بأن الناس المعاصرين، وتحديداً الجامعيين المعاصرين، لا يستطيعون بأي طريقة أن يتعلموا أي شيء؛ لا يفهمون المصطلحات اللاهوتية التي تظهر بغنى في الكتاب المقدس، ويُعتبر ذلك نهاية المسألة؛ من الظاهر أنه لا يخطر على بال أي شخص أنهم يستطيعون أن يحصلوا على معرفة المصطلحات الكتابية التي يفتقرون إليها حالياً. لكنني من جهتي غير مُستعد أن أتفق معهم بأي طريقة. بالتأكيد، أنا مُستعد تماماً للموافقة على أنه ينبغي مُصالحة الكتاب المقدس والإنسان

المُعاصر. لكن ما يتم تقويته دائماً هو أنه توجد طريقتان لتحقيق ذلك الهدف. تُعتبر الطريقة الأولى هي إنزال الكتاب المقدس إلى مستوى الإنسان المُعاصر؛ لكن الطريقة الأخرى هي رفع الإنسان المُعاصر إلى مستوى الكتاب المقدس. من ناحيتي، أن أميل إلى تأييد الطريقة الثانية. ولست مُستعداً بأي شكل أن أتخلّى عن المزايا المرتبطة باستخدام مُصطلح دقيق في تلخيص حقائق الكتاب المقدس. في مجال الدين كما في المجالات الأخرى، يُعتبر المُصطلح الدقيق في النهاية أمراً اقتصادياً بشكل عقلي؛ إنه يُكافئ بغنى المجهود البسيط المطلوب لإتقانه. لذلك، لست أَسْتَحْي إطلاقاً أن أتحدّث، حتى في هذا اليوم وهذا الجيل، عن "عقيدة التبرير بالإيمان".

مع ذلك، لا ينبغي افتراض أن تلك العقيدة هي أمر غامض أو مُعقد. على العكس، إنها أمرٌ بسيط جداً، وتتوافق مع الحياة بشكل غريزي.

إنها الإجابة على أعظم سؤال شخصي سألته نفسٌ بشريّة على الإطلاق - السؤال هو: "كيف أستطيع أن أتصالح مع الله؟ كيف أقف أمام مَحْضَر الله؛ بأي نعمة يَنْظُر إليّ؟" يجب الاعتراف بأنه يوجد هؤلاء الذين لا يَطْرَحون ذلك السؤال أبداً؛ يوجد هؤلاء الذين يهتمون بالسؤال عن مَوقِفهم أمام البشر، لكن لا يهتمون إطلاقاً بالسؤال عن مَوقِفهم أمام الله؛ يوجد هؤلاء الذين يهتمون بما "يقوله الناس"، لكن لا يهتمون بالسؤال عما يقوله الله. مع ذلك، هؤلاء الأشخاص ليسوا هم مَن يُحْرِكون العالم؛ إنهم قادرون على السباحة مع التيار؛ إنه قادرون على فعل ما يفعله الآخرون؛ إنهم ليسوا الأبطال الذين يُغَيِّرُونَ مصير الجنس البشري. تَظْهَر بداية النُبل الحقيقي عندما يتوقف إنسانٌ ما عن الاهتمام بحُكْم الآخرين، ويُصْبِح مُهْتَمّاً بحُكْم الله.

لكن إذا استطعنا الحصول على ذلك القدر من البصيرة، وإذا أصبحنا مُهْتَمِّين بحُكْم الله، كيف سنَقْفُ أمام ذلك الحُكْم؟ كيف سنتصالح مع الله؟ إن أكثر الإجابات وضوحاً هي: "عن طريق طاعة ناموس الله، وعن طريق أن نكون من يُريدنا الله أن نكون." لا يوجد أي خطأ نظرياً في تلك الإجابة إطلاقاً؛ إن المُشْكَلة الوحيدة هي أنها لا تنجح معنا. لو كُنَّا أطعنا ناموس الله، لو كُنَّا الأشخاص الذين أرادنا الله أن نكون، لكان كل شيء سليماً بلا شك؛ لاستطعنا الاقتراب من عرش دينونة الله وَلَا عَمَدُنَا ببساطة على اعترافه العادل بالحقائق. ولكن للأسف، لم نُطِعْ ناموس الله، بل تَعَدَّينا به بالفكر، والقول، والفعل؛ وبدلاً من أن نكون من يُريدنا الله أن نكون، أصبحنا مُلَطَّخين ومُتَسَخِّين بالخطيئة. إن البُقعَة ليست على السطح فقط؛ ليست أمراً يُمكن مَسْحَه بسهولة؛ بل تَغْلَغَلَتْ إلى خبايا نفوسنا. وكلما زاد وضوحُ فَهْمِنَا لناموس الله، كلما صار يَأْسِنَا أعمق. يبحث بعض الناس عن مَهْرَب من الدينونة في نَظَرَة مُتَدَنِّية لناموس الله؛ يَحْدُون الناموس في الوصايا الخارجيّة، وعن طريق طاعة تلك الوصايا يأملون في شراء رضا الله. لكن في اللحظة التي يَحْصُل فيها الإنسان على رؤية للناموس كما هو حقيقةً - خصوصاً، كما تُعلنه كلمات يسوع ومِثَاله - يَعْرِف أنه بلا رجاء. إذا كانت مُصالحتنا مع الله تَعْتَمِد على أي شيء فينا، فإننا بلا رجاء.

مع ذلك، تم شق طريق آخر إلى محضر الله؛ ويوصف افتتاح ذلك الطريق في رسالة الإنجيل. لقد كُنَّا نَسْتَحِق الموت الأبدي؛ لقد كُنَّا نَسْتَحِق العزل من بيت الله؛ لكن الرب يسوع حملَ في نفسه كل ذنب خطيَّتنا ومات بدلاً عَنَّا على الصليب. وبذلك تم استيفاء مطالب الناموس لأجلنا بواسطة المسيح، ورحلتْ مخاوفه تجاهنا، ولأننا لسنا لابسِين لِبَرِّنا بل لِبَرِّ المسيح نَقِف بلا خوف، مثلما يَقِفُ المسيح بلا خوف أمام عرش دينونة الله. يقول الناس أن هذه نَظَرِيَّة غامضة؛ لكن بالتأكيد، تُوضَع الصفة في غير محلها. إنها سِرٌّ، لكنها ليست غامضة؛ إنها عجيبةٌ، لكنها أيضًا بسيطة جدًا لدرجة أنه يُمكن لطفل أن يفهمها.

مع ذلك، ينبغي التفكير في اعتراضين على عقيدة التبرير، حتى من خلال تقديم مُختَصَر مثل الذي نقوم به الآن.

أولًا، يُقال إن "التبرير" هو مُصطلح "قضائي"؛ أي أنه مُستعار من المحاكم القضائية؛ يَفِيح برائحة كميَّة كبيرة من العفن المُلتصق بِعِجَلِ ناموسي؛ ونحن المُعاصرون نُفَضِّل مصادر أخرى لتشبيهاتنا؛ نُفَضِّل التفكير في الخلاص بطريقة حيويَّة لا قانونيَّة.

بالطبع للإجابة، يُمكن أن يُقال إن التبرير بالإيمان ليس هو كل ما يَتعلَّق بعقيدة الخلاص المسيحيَّة؛ توجد على الجانب الآخر عقيدة التجديد أو الولادة الجديدة. إن ما يناله المؤمن من الله ليس مُجرد علاقة سليمة وجديدة معه والتي فيها يُمحي ذنب الخطيَّة، لكنه ينال أيضًا حياةً جديدة فيها هُزِمَتْ قوَّة الخطيَّة؛ يُعتبر المنظور المسيحي للخلاص حيويًا وكذلك قضائيًا. على الناحية الأخرى، تُخطئ طريقة التفكير المُعاصرة هذه في كونها أحاديَّة الجانب؛ إنها لا تُخطئ بالتأكيد في إصرارها على الجانب "الحيوي" للخلاص، بل في إصرارها على أن الخلاص أمر حيوي فقط. عندما يُفصل الجانبُ الحيوي هكذا عن الجانب القضائي، فإن العواقب ستكون خطيرة بالتأكيد؛ ما يحدث بالفعل هو أن كل الطبيعة الأخلاقيَّة للمسيحيَّة تتعرض للخطر أو تَتَدَمَّر. من المهم أن نفهم أن المؤمن له حياة جديدة بالإضافة إلى مَوقِف جديد أمام عرش دينونة الله؛ لكن أن يكون المرء مُهتَمًّا بالحياة الجديدة على حساب المَوقِف الجديد أمام الله هو حرمان الحياة الجديدة من أهميَّتها الأخلاقيَّة. لأن الحياة الجديدة تَخْتَلِف عن حياة النباتات والحيوانات فقط بالحُكم عليها بحسب معيارٍ مُطلق للبر.

مع ذلك، يَتعلَّق السؤال النهائي والذي يَكْمُن في ذلك الاعتراض بصلاحيَّة العدالة العقابيَّة. يَعتبر الاعتراض أن استخدام عقيدة التبرير لُغَةً المحاكم القضائية يُعد إهانةً لتلك العقيدة. لكن، هل يُعد ذلك إهانةً لتلك العقيدة؟ من ناحيتنا، نعتقد أنه ليس إهانةً، للسبب البسيط المُتعلِّق بأننا نَتَمَسَّكُ بمنظور مُختلف تمامًا للمحاكم القضائية عن منظور المُعتَرَض. عند هذه النقطة، كما عند نقاط أخرى كثيرة، يَظهر الطابع بعيد

المدى للخلاف الموجود في العالم المسيحي المعاصر. لا يتعلّق الاختلاف فقط بما يُسمى الدين عادةً، بل يتعلّق غالبًا بكل مجالات الحياة البشريّة. يتعلّق بالتحديد بالنظرية الأساسية للعدالة الإنسانية.

يُعتبر المُعترض أن استخدام عقيدتنا بخصوص التبرير للغة المحاكم القضائيّة يُعد إهانةً. لكنه يفعل ذلك فقط بسبب الوظيفة المحدودة التي بحسب رأيه يجب أن تكون المحاكم القضائيّة راضية بها. وفقًا لرأيه، تهتم محاكمنا القضائيّة فقط بإصلاح المُجرم أو حماية المُجتمع؛ فيما يتعلّق بمحاكمنا، يعتقد أنه يجب التخلّي عن فكرة العدالة العقابية بأكملها. يختلف منظورنا للغاية عن ذلك؛ ولأنه يختلف، لا يظهر لنا أن استخدام عقيدة التبرير للغة القانونيّة يُعد إهانةً بل أمرًا يُمدح بشدة. نعتقد أن المحاكم، وحتى المحاكم البشريّة، بدلًا من أن تُمارس مُجرد وظيفة نفعية، تُؤسّس على مبدأ يجد جذوره في كينونة الله. بالتأكيد، تُمارس المحاكم أيضًا وظائف نفعية تحدّثنا عنها للتو؛ تسعى إلى إصلاح المُجرم وحماية المُجتمع؛ ويجب ألا تَسمح أبدًا بأن تُنسى تلك الاعتبارات. لكن وراء كل ذلك، تكمن الحقيقة غير القابلة للاختزال للعدالة العقابية. لا نَعني أن القضاة البشريين يستطيعون أن يتحدثوا بطريقة معصومة بصوت إلهي؛ يجب أن تُؤخذ الحدود البشريّة في الاعتبار دائمًا؛ يجب غالبًا ترك التسوية النهائيّة والعدالة بحق لمُحكمة أعلى. لكن مع ذلك، عندما يُعترف بذلك وأكثر، يبقى هناك أساس للأهميّة الأبدية في كل محكمة قضائيّة حقيقيّة. بالتأكيد، يتم التعتميم كثيرًا على تلك الأهميّة؛ لقد اجتاحت النظرية النفعية الأدنى، والتي تحدّثنا عنها للتو، قاعات محاكمنا في كثير من الأحيان، ووضعت اعتبارًا ضئيلاً للعواقب في محلّ عظمة القانون. يشكو الناس من النتيجة، لكنهم غير راغبين في التعامل مع السبب. يشكون بصوت عالٍ من تزايد الجريمة؛ يملئون الكتب التشريعيّة بشكل محموم بكل أنواع المحظورات؛ يفعلون أفضل ما بوسعهم ليمنعوا تفكّك المُجتمع. لكن المجهود كله يُعتبر عديم الفائدة بدرجة كبيرة. لا تكمن المُشكلة الحقيقيّة في تفاصيل قوانيننا، بل في المبدأ الأساسي لماهيّة القانون.

صحيح أنه حتى في مجال التفاصيل، توجد مساحة للتطوير - مع ذلك، يُعتبر تطويرًا في اتجاه يختلف بشدة عن ذلك الذي اعتاد المُشرعون المُعاصرون أن يتجهوا نحوه، لا في اتجاه التضاعف المُتزايد للتشريعات، بل رجوعًا إلى البساطة. بدلًا من مجموعة المحظورات التافهة والمُزعجة في كثير من الأحيان، والتي تملأ كُتب التشريع الخاصة بنا، يجب أن تكتفي الهيئات التشريعيّة بما يُطالب به الحُكم الأخلاقي السالح للشعب؛ نعتقد أن أحد طرق تشجيع احترام القانون ستكون من خلال جعل القانون مُحترمًا أكثر. مع ذلك، تُعتبر المُشكلة الحقيقيّة جوهريّة بشكل أكبر من كل ذلك؛ لا تكمن في مسائل تفصيليّة، بل في المبدأ الأساسي. لا يُمكن الحفاظ على احترام القوانين البشريّة، على المدى البعيد، إلا إذا تواجدت تلك العدالة، في التشريع النهائيّ للأمور؛ لن تكبح النفعية الخالصة عصيانَ الجسد إطلاقًا؛ سيتم احترام القضاة البشريين فقط عندما يُضفى عليهم رداءً من العظمة التي تصدر في الأساس عن ناموس الله.

لذلك، لا يُعد استخدام عقيدة التبرير للغة المحاكم القضائية إهانة لها؛ لأن المحكمة القضائية -بطريقة غامضة، لكن حقيقية- تُمثّل حقيقة ما في كينونة الله. يقول الناس إنهم بالطبع يُفضّلون التفكير في الله بصفته أبًا لا كقاضٍ؛ لكن لماذا ينبغي علينا الاختيار بين الاثنين؟ إن الطريقة الصحيحة للتفكير فيه هي التفكير فيه بصفته أبًا وقاضيًا معًا. إن الأبوة، كما نعرفها على هذه الأرض، تُمثّل أحد الجوانب في كينونة الله؛ لكن عزل ذلك الجانب يُعد انتقاصًا منه وحرمانًا له من طبيعته الأخلاقية. تُعتبر العقيدة التي تصف الله بأنه أب عقيدة هامة بالتأكيد؛ لكنها لن تكون هامة إن لم يتم استكمالها بالعقيدة التي تصف الله بأنه القاضي النهائي.

يُمكن التعامل بنفس الاختصار مع الاعتراض الآخر على العقيدة المسيحية للتبرير؛ حيث أن الاعتراض يَختفي سريعًا بعد الفحص. يُقال لنا إن التبرير يتضمّن مجرد حيلة قانونية والتي تُعتبر إهانة لشخص الله؛ يُقال إنه وفقًا لهذه العقيدة، يُمثّل الله على أنه انتظر إلى أن دفع المسيح ثمن الخطيئة بصفته بديلًا عن الخاطي قبل أن يُسامح الله الخاطي؛ يُمثّل الله على أنه تم شراؤه بموت المسيح لكي يُعلن أن الذين ليسوا أبرارًا إطلاقًا، هم أبرارٌ في نظره. يتساءل الرجل المعاصر قائلًا: "كم ذلك مُخزٍ، وكم من الأفضل أن يُقال ببساطة إن الله راغبٌ أن يُسامح الإنسان أكثر مما الإنسان راغبٌ في أن يُسامح!" لذلك تُمثّل عقيدة التبرير على أنها تُعارض محبة الله.

يتجاهل هذا الاعتراض صفةً أساسيةً للعقيدة التي يتم انتقادها؛ يتجاهل حقيقة أنه وفقًا للمنظور المسيحي، الله نفسه وليس آخر، هو من يقوم بدفع ثمن الخطيئة في الموت الكفاري للمسيح - الله نفسه في شخص الابن الذي أحببنا وبذل نفسه لأجلنا، والله نفسه في شخص الأب الذي أحب العالم حتى بذل ابنه الوحيد. يؤكّد المسيحي على أن الخلاص مجانيٌّ لنا مثل الهواء الذي نتنفسه؛ يتحمّل الله التكلفة وحده، ولنا نحن المكسب العجيب. يُمجد منظور مثل هذا محبة الله أكثر بكثير مما تفعل النظريات الحديثة فيما يتعلّق بغفران الخطايا: لأن تلك النظريات تتساوى، في التحليل الأخير، في إنكارها للحقيقة المخيفة للذنب وعدم إمكانية إلغاؤه؛ تسعى إلى إنقاذ محبة الله عن طريق إنكار القانون الأخلاقي لهذا الكون، وبفعلها ذلك، تُدمر حتى الأمر الذي شرعته في الحفاظ عليه؛ إن المحبة الإلهية التي تسعى النظريات إلى إنقاذها على حساب عدالة الله يتضح أنها مجرد لا مبالاة سهلة، والتي لا تُعتبر محبةً على الإطلاق. إنه أمرٌ مُضلل أن نُطبّق تعبير "المحبة" على شعور غير مُكلّف. تختلف المحبة التي يتحدّث عنها الكتاب المقدّس عن ذلك كثيرًا؛ لأن تلك المحبة أحضرت الرب يسوع إلى الصليب. لا يُقدّم الكتاب المقدّس أملًا للخاطي عن طريق تخفيف حقيقة الخطيئة؛ على العكس، يُعلن تلك الحقيقة في صراحةٍ رهيبه، والتي لم تكن لندرك بطريقة أخرى. لكن حينها، وعلى أساس تلك الاستنارة القاسية للحقائق الأخلاقية للحياة، يُقدّم طريقًا مجانيًا تمامًا وشاملاً وكاملًا للهروب من خلال ذبيحة المسيح.

لا شك في أن ذلك الطريق ليس من اختيارنا؛ ولا شك في أنه قد يبدو غريبًا. قد يبدو غريبًا أن يحمل أحدهم ذنب خطايا الآخرين. وبالتأكيد، بالنسبة لأي شخص، باستثناء المسيح، سيُعتبر ذلك حتى أبعد من مقدور قوة المحبة. صحيحٌ تمامًا أن لا أحد يستطيع أن يحمل خطايا إنسان آخر؛ إن المرات التي حدثت فيها آلام نيابية في الحياة الإنسانية، والتي تم تذكرنا بها باعتبارها في نفس فئة آلام المسيح، تتجح فقط في إظهار مدى بُعد الأشخاص الذين يذكرونها عن إدراك المقصود من وراء الصليب. لكن، لأن إنسانًا خاطئًا وضعيفًا لا يستطيع أن يحمل خطايا الآخرين، لا يلزم بالضرورة أن المسيح لا يستطيع فعل ذلك. وفي واقع الأمر، حمدًا لله، لقد فعلَ المسيح ذلك؛ لقد انزاحت أثقال خطايا البشر في الصليب، وتحقق مع الله سلامٌ لا يستطيع العالم أن يعرفه. بالتأكيد، لا نهدف إلى تمجيد العاطفة على حساب الدليل الموضوعي؛ نُعارض بكل قوتنا استبدال كلمة الله، باعتباره كرسي السلطة في المسيحية، "بالخبرة": لكننا نعتقد أن الروح القدس يشهد في روح الإنسان لمصادقية الكلمة، ويشهد للفاعلية المُخلصة للصليب، عندما يصرخ "يا آبا الآب" في قلوبنا. نرى أن تلك الصرخة تُعد صدًى حقيقياً للحكم المُبارك بالتبرئة، وحكم "التبرير" المُبارك، الذي يناله الخاطي عندما يكون المسيح المدافع عنه أمام عرش دينونة الله.

لقد كنا نتحدث عن "التبرير". ورأينا أنه يعتمد بالكامل على عمل المسيح الفدائي. لكن يبقى سؤال آخر في غاية الأهمية. إن كان التبرير يعتمد على عمل المسيح الفدائي، كيف تنال النفس الواحدة فائدة ذلك العمل الفدائي؟

قد تبدو أكثر إجابة طبيعية هي أن النفس تنال فائدة عمل المسيح عن طريق استحواذها على ذلك العمل؛ قد يبدو طبيعيًا أن نعتبر استحقاقات المسيح نوعًا من الرصيد أو المخزون الذي يستطيع الفرد أن يسحب منه حسب إرادته. لكن إذا كان أمرٌ ما واضحًا، فهو أن ذلك ليس ما تُعلم به كلمة الله؛ إذا كان أمرٌ ما واضحًا، فهو أن العهد الجديد لا يُقدّم الخلاص، أو دخول ملكوت الله، باعتباره عملَ الإنسان، بل باعتباره عملَ الله والله وحده. إن عمل المسيح الفدائي يتحقق في نفس الإنسان، بحسب العهد الجديد، بواسطة الروح القدس وبواسطته فقط.

ما الذي نَعنيه إذن عندما نتحدث عن "التبرير بالإيمان"؟ يُعد الإيمان، بعد كل شيء، أمرًا في الإنسان؛ ولذلك، إذا كان التبرير يعتمد على إيماننا فيبدو أنه يعتمد علينا مثلما يعتمد على الله.

إننا نُرحب بالتناقض الظاهري؛ حيث أنه يقود إلى فهم حقيقي للإيمان. إن الإيمان البشري، إذا فهم بشكل صحيح، لا يستطيع أن يقف في تعارض مع اعتماد الخلاص بشكل كامل على الله؛ لا يمكن أبدًا أن يعني أن الإنسان يقوم بجزء، بينما يقوم الله فقط بالباقي؛ ببساطة، لأن الإيمان لا يتوقف على فعل أمرٍ ما، بل

قبول أمرٍ ما. أن نقول إننا نَتَبَرَّر بالإيمان هي طريقة أخرى للقول بأننا لا نَتَبَرَّر بأي حال من الأحوال بأنفسنا، بل فقط وببساطة، بواسطة الشخص الذي يُوضَع فيه إيماننا.

يَتَضَح عند هذه النُقطة السبب العميق لما قد تبدو للوهلة الأولى حقيقة مُفاجئة. ما السبب في أن العهد الجديد، فيما يَتَعَلَق بِنَوَالِ الْخَلَاصِ، يُخَصِّص مكانًا حصريًا بشكل مُطلق للإيمان؛ لماذا لا يَتَحَدَّث مثلاً عن كوننا نَتَبَرَّر بالمحبة؟ إذا فعلَ ذلك، فسيكون ذلك مُتَوَافِقًا بشكل أكبر مع الميول المُعاصرة؛ في الواقع، يُوَكِّد أحد الوُعَاظ المشهورين أن عقيدة بولس الأساسية بالتأكيد لم تُكُن التبرير بالإيمان بل الخلاص بالمحبة. لكن بالتأكيد، ذلك فقط يَعْنِي أن الفكرة تَنَتُج عن الرَغْبَة؛ في الواقع، سواء شِئْنَا أم أبِينَا، من الواضح تمامًا أن بولس لم يَتَحَدَّث عن الخلاص بالمحبة، بل تَحَدَّث بدلًا من ذلك عن التبرير بالإيمان. بالطبع يَتَطَلَّب الأمرُ شرحًا؛ وبالتأكيد لا يَعْنِي أن الرسول بولس كان يَمِيل إلى الانتقاص من قَدْرِ المحبة. على العكس، قَدَّمَ المحبة بوضوح على الإيمان في أحد المقاطع. يقول بولس: "أَمَّا الْآنَ فَيُثَبِّتُ: الْإِيمَانُ وَالرَّجَاءُ وَالْمَحَبَّةُ، هَذِهِ الثَّلَاثَةُ وَلَكِنْ أَكْبَرُهُنَّ الْمَحَبَّةُ". لماذا إذن، إذا كان يَضَع المحبة في مكانة أعلى، يَنْسِب مكانًا حصريًا بشكل مُطلق للإيمان، فيما يَتَعَلَق بِنَوَالِ الْخَلَاصِ؟ ولماذا لم يَقُل يسوع إن: "مَحَبَّتُكَ خَلَّصَتْكَ، اذْهَبِي بِسَلَامٍ"، بل قال "إِيمَانُكَ قَدْ خَلَّصَكَ، اذْهَبِي بِسَلَامٍ"؟ لماذا قال ذلك فقط، للرجال والنساء الذين أتوا إليه في أيام جسده؛ ولماذا يقول ذلك فقط، وفقًا للعهد الجديد بكامله، للنفوس المُتَعَبَة اليوم؟

إن الجواب على هذا السؤال واضحٌ للغاية. إن السبب الحقيقي وراء إعطاء الإيمان مكانًا حصريًا في العهد الجديد، فيما يَتَعَلَق بِنَوَالِ الْخَلَاصِ، على عكس المحبة أو أي شيء آخر في الإنسان، باستثناء الأمور التي يُمكن أن تُعتبر مُجرد جوانب للإيمان، هو أن الإيمان يَعْنِي قبولَ أمرٍ ما، لا فعلَ أمرٍ ما أو أن يكون الإنسان شخصًا ما. لذلك، أن نقول إن إيماننا يُخَلِّصنا ذلك يَعْنِي أننا لا نُخَلِّص أنفسنا بأي حال من الأحوال، بل يُخَلِّصنا الله. ستختلف كثيرًا المسألة إذا قِيلَ إننا نَخَلِّص بالمحبة؛ لأن الخلاص حينها سيعتمد على صفةٍ سامية فينا. وفوق كل شيء، ذلك هو ما يَهْتَم العهد الجديد بِرَفْضِهِ. تُعد عقيدةُ نعمة الله المركزَ والقلبَ في الكتاب المُقَدَّس كله – نعمة الله التي لا تَعْتَمِد بأي مِقْدَار على أي شيء في الإنسان، بل تُعد غير مُسْتَحَقَّةٍ إِطْلَاقًا، ولا يُمكن مُقاومتها، وهي ذات سيادة. يُمكن أن يُوضَع لاهوتيو الكنيسة في ترتيبٍ تصاعديٍّ من حيث مدى وضوح إدراكهم لتلك العقيدة المركزية العظيمة، تلك العقيدة التي تَمْنَح تَنَاسُقًا لباقي العقائد؛ وتَعْتَمِد خبرة المؤمن أيضًا في عُمقها وقوتها على الطريق التي يُقَيِّمُ بها المؤمنُ تلك العقيدة المُباركة في أعماق قلبه. يوجد مركز الكتاب المُقَدَّس، ومركز المسيحية، في نعمة الله؛ ويُعد الخلاصُ بالإيمان وحده النتيجةُ الضروريةُ لنعمة الله.

نأتي عند هذه النقطة إلى حقيقة عميقة عن الإيمان، حقيقة بدونها سيكون كل شيء آخر حاولنا قوله بلا قيمة. إن الحقيقة التي نُشير إليها هي: أنه ليس باعتباره صفةً في النفس أن الإيمان يُخلص الإنسان، بل فقط باعتباره اتصالاً بالموضوع الحقيقي للإيمان.

تُرفض هذه الحقيقة بشكلٍ عام في الفكر المعاصر؛ وينبُع من رفضها الكثير من الشرور، الفكرية وغيرها، التي تُهاجم العالم المسيحي. بالتأكيد، يتم رفع الإيمان إلى السماء في أيامنا هذه؛ لكن الحقيقة المُحزنة هي أن هذا التمجيد نفسه يقود منطقياً وحتمياً إلى شكوكية ليس لها نهاية والتي تسبق اليأس.

إن المشكلة كلها هي أن الإيمان يُنظر إليه فقط باعتباره صفةً نافعةً للإنسان، بغض النظر عن حقيقة أو كذب الموضوع الذي يؤمن به؛ ويتدمر الإيمان في اللحظة التي يُنظر فيها إليه بهذه الطريقة.

مع ذلك، يبدو التوجّه المعاصر للوهلة الأولى مليئاً بالوعود؛ على سبيل المثال، يتجنّب الصعوبة البالغة الموجودة في مختلف قوانين الإيمان. يتم الحث على ترك الإنسان ينظر إلى أي شيء يُساعده باعتباره صحيحاً، وعلى ألا يتدخل في الشيء الذي يُساعد غيره. إننا نُسأل، ما الذي يهّم بخصوص طبيعة الأمر الذي يُتمم العمل ما دام العمل يتم؛ ما الذي يهّم بخصوص ما إذا كان المرض يُعالج بواسطة علمٍ مسيحي أو بواسطة إيمان بسيط بالمسيح يسوع؟ يبدو أن بعض الناس يجدون حتى أن المادية الخالصة عقيدة مفيدة - تؤدي إلى حياة هادئة وصحية، وتحمي من المخاوف المرضية والتوتر العصبي. إذا كان الأمر هكذا، فلماذا نُزعج "إيمانهم" بالكلام عن الذنب والعقاب؟

يوجد للأسف عائق واحد كبير في طريق تلك الانتقائية الواسعة. إنه عائق حقيقي جداً، رغم أنه في بعض المرات يبدو أنه ليس عملياً بعض الشيء. إنه العائق القديم - الحق. كان ذلك مُخطئاً كبيراً في مسرحية ناثان الحكيم (Nathan der Weise) لمؤلفها ليسينج (Lessing)، بأن يُسمح لليهودية والإسلام والمسيحية بالعيش في سلام جنباً إلى جنب، ويُساهم كلٌ منهم بنصيبه في الخير العام للبشرية؛ ونالت الخطة شهرة واسع منذ أيام ليسينج، بِصَم كل مُعتقدات البشر إلى الرابطة المُقترحة للأديان. لكن المشكلة الكبيرة هي أن عقيدة ما ستكون فعالة فقط طالما كانت تُعتبر صحيحة؛ إذا كنتُ سأجعل عقيدتي فعالةً فإنني أستطيع أن أفعل ذلك فقط لأنني أعتبرها صحيحةً. لكن بِفعلي هذا، أكون مُلزماً بِحكم الضرورة الحتمية بأن أعتبر عقيدة الآخر زائفة إذا تعارضت مع مُعتقدي. سيُضعف ذلك من إيمانه بعقيدته، إذا كان سيتأثر بأي درجة برأيي؛ سيُصبح غير مُتأكد بعد من حقيقتها؛ وستُفقد فاعليتها بمجرد أن يُصبح غير مُتأكد من حقيقتها. أو إذا أبقى عقيدتي في الخلفية، بسبب مُراعاتي للآخر وبسبب فائدة عقيدته، فإن ذلك سيُضعف من إيماني بعقيدتي؛ سأبدأ في الإحساس بأن ما يجب إبقاؤه في الظلام لن يتحمّل نور النهار؛ ستتوقّف عقيدتي عن أن تكون فعالة في حياتي. إن الحقيقة هي أن كل العقائد تُقَمّ ادعاءات بخصوص نفس الأمر، أي امتلاكها

للحق. ونتيجةً لذلك، رُغم كل ما يُقال، إذا كان ينبغي التمسُّك بالعقيدة بأي حماس، وإذا كان ينبغي أن يكون لها أي قوة، فيجب أن تتعارض مع العقائد الأخرى؛ لا يمكن لكل منها أن تسمح للأخرى بالاستمرار في العمل في سلام. لذلك، إذا رغبتنا في استمرار العمل، يجب أن نواجه ونحسم ذلك الصراع المُتعلِّق بالوسائل؛ لا يمكننا أن نعتمد على معتقدات البشر لتساعدنا، إلا إذا حدَّدنا ما هو الذي ينبغي أن نؤمن به. إن الإيمان الذي يستطيع الموافقة على تجنُّب تحويل أشخاصٍ من مُعتقدات أخرى إليه، لا يُعد في الحقيقة إيمانًا على الإطلاق.

مع ذلك، قد يَبقى اعتراضٌ ما. ربما قد يبدو ما قلناه منطقيًا جدًّا، ومع ذلك يبدو أن الخبرة الواقعيَّة للجنس البشري تتعارض معه. على سبيل المثال، يُعد الأطباء أشخاصًا عمليين جدًّا، ومع ذلك يُخبروننا بأن الإيمان ببعض الأمور السخيفة للغاية أحيانًا ما يؤدي إلى نتائج نافعة وبعيدة المدى. لذلك، إذا كان الإيمان بأمور متنوعة ومُتناقضة يؤدي إلى النتائج، إذا كان يُخفف من ضغوط مُعاناة البشريَّة، كيف يمكننا أن نَجْروا على الإصرار على الاتساق المنطقي في الأمور التي يُؤمن بها البشر؟ على العكس، يتم الحث على الاكتفاء بأي نوع من الإيمان ما دام يقوم بالعمل؛ لا يَهْم ما يؤمن به المرء ما دام التوجُّه المُعطي للصحة المُتعلِّق بالإيمان موجودًا؛ كلما كان الإيمان أقلَّ عقائديَّةً، كلما كان أنقى، لأنه الأقلَّ تعرُّضًا للضعف بواسطة خليط المعرفة الخطير.

من الواضح تمامًا أن ذلك التوظيف للإيمان يأتي بالنتائج. لكن الأمر المُثير للفضول هو أنه إذا تم توظيف الإيمان بهذه الطريقة تحديدًا، فإن توظيف إيمان الآخرين هو ما يأتي بالنتائج دائمًا، وليس توظيف إيمان الشخص نفسه أبدًا. لأن الرجل الذي يستطيع التحدُّث بهذه الطريقة هو دائمًا غير مؤمن بل مُتشكِّك. إن القاعدة الأساسيَّة بخصوص الإيمان هي أن كل إيمان له موضوع؛ لا يُمارَس أي إيمان بواسطة شخصٍ ما فقط، بل يتوقَّف على الثقة بشخصٍ ما. قد لا يَعتمد شخصٌ من الخارج أن موضوع الإيمان هو الذي يقوم بالعمل فعلاً؛ من موقعه العلمي المتفوق، قد يَعتمد بوضوح أن الإيمان فقط، والذي يُعتبر مجرد ظاهرة سيكولوجيَّة، هو الشيء الهام، وأن أي موضوع آخر للإيمان كان سينفع أيضًا. لكن الشخص الذي يقوم بفعل الإيمان مُقتنعٌ دائمًا بأن الإيمان بالتحديد ليس هو الذي يُساعده بل موضوع الإيمان؛ سيختفي إيمانه في اللحظة التي يُصبح فيها مُقتنعًا بأن موضوع الإيمان لم يَكُن هامًا فعلاً وأن إيمانه الشخصي فعلاً هو الذي كان يُساعده. إن ذلك الإيمان السابق والزائف -الإيمان بأن موضوع الإيمان هو الذي كان يقوم بالعمل وليس الإيمان- إذن هو الذي كان يُساعده.

ستقوم الأمور الزائفة ظاهريًا ببعض الأشياء المُفيدة. إذا سُمح لنا أن نستخدم مُجددًا توضيحًا استخدمناه بالفعل في مسألة أخرى، وأن نُطبقه بشكل أبعد قليلًا، قد يلاحظ أن ورقة نقدية مُزيَّفة ستشري العديد من السلع المُفيدة - إلى أن تُكتشف حقيقتها. على سبيل المثال، ستشري تلك الورقة وجبة عشاء؛ وستُبقى

وجبة العشاء أحد الأشخاص حيًا مهما كانت طريقة الحصول عليها. لكن بمجرد أن أشتري وجبة العشاء لأحد الفقراء الذي يحتاج إليها بشدة فعلاً، يُخبرني أحد الخبراء أن تلك النتيجة المفيدة تَحَقَّقَتْ عن طريق ورقة نقدية مُزيَّفة. قد أغرى بأن أتعجب قائلاً: "أيها المُنظِّر البائس، ويا أيها التقليدي البائس، ويا أيها البائس المُدمِّر لكل ما يَعْتَرِ به البراجماتي! بينما يُناقش مسألة مصدر الورقة النقدية رُغم أن كل رجلٍ عصريٍّ يعرف أنه لا يَهُم مصدر شيءٍ مثل ذلك، وأن ما يَهُم فعلاً هو الهدف من ورائها- بينما يَسِرِد التفاصيل المعروفة حول التاريخ البدائي لتلك الورقة النقدية، يُعاني رجلاً فقيراً من نقص الطعام." هكذا هو الأمر مع الإيمان، إذا صحَّ المنظور الحالي؛ يُقال لنا إن الإيمان مُفيدٌ جداً لدرجة أنه يجب ألا نسأل عما إذا كانت الأمور التي يقودنا إلى قبولها حقيقية أم زائفة.

تُعد الطرق التي يسعى من خلالها الناس إلى تبرير تداول عملة مُزيَّفة في المجال الروحي طُرُقاً معقولة؛ يُقال لنا إنها صحيحة تماماً ما دامت لم تُكتشف حقيقتها. لقد تم تطبيق ذلك المبدأ ببراعة حتى على العملة العادية للعالم؛ لقد قيل إنه إذا كانت إحدى العملات المُزيَّفة مثاليةً تماماً بحيث لا يُمكن بأي طريقة اكتشافها أبداً، فما الضرر الذي نَتَسَبَّب فيه لإنسانٍ إذا أعطيناها إياها مع باقي أمواله؟ ربما لن يكون من الضروري الإشارة -على الأقل لقراء هذا الكتاب- إلى المُغالطة في هذا الإنجاز الأخلاقي؛ وتلك المُغالطة ستتطبق فعلاً على العملة الروحية كما على ورقة الخمسة جُنِيات. عن طريق تداول الأموال المُزيَّفة سنكون عاملين على التقليل من قيمة الأموال الحقيقية، وبذلك نكون عاملين على سرقة أغلب رفاقنا. لكن بعد كل شيء، يُعتبر ذلك سؤالاً أكاديمياً خالصاً؛ في الواقع، ليس من المؤكد عدم إمكانية اكتشاف العملات المُزيَّفة. ولا حتى العملة المُزيَّفة في المجال الروحي. من الخطر تشجيع الإيمان بما هو زائف، لأجل الفوائد الفورية التي يُؤدي إليها ذلك الإيمان؛ لأنه كلما زاد ارتفاع المبنى المُشيد على أساس مثل هذا، كلما زادت شدة الانهيار المحتوم عندما يَحْدُث الانهيار أخيراً.

يَجِب التخلص من تلك الورقة النقدية المُزيَّفة، لا بسبب الاهتمام بالتدمير، بل لإفساح المجال للذهب النقي الذي يُفترض وجوده بتداول تلك الأوراق النقدية المُزيَّفة. توجد أموال مُزيَّفة في العالم، لكن ذلك لا يعني أن كل الأموال مُزيَّفة. بالتأكيد، ذلك يعني العكس تماماً. لا يُمكن أن توجد ورقة نقدية مُزيَّفة إلا إذا وُجدت ورقة أصلية لتُقْلَدَها. وينطبق هذا المبدأ على المجال الروحي. يوجد في العالم الكثير من الإيمان بما هو زائف؛ لكن يصعب وجود إيمان بما هو زائف إلا إذا كان هناك أيضاً في مكان ما إيمان بما هو حقيقي. نعتقد نحن المسيحيون أننا وجدنا الإيمان بما هو حقيقي عندما يكون لنا إيمانٌ بالرب يسوع المسيح كما تُقدِّمه لنا رسالة الإنجيل. نحن مُدركون جيداً لما قيلَ ضد رسالة الإنجيل تلك؛ نحن نُدرك جيداً سوء السمعة التي سَتَهاجم الإنسان في اللحظة التي سيُعتبر فيها أمراً ما صحيحاً وسيُصِف أي شيء بأنه زائفٌ إذا تعارض مع ذلك الأمر؛ إننا مُدركون تماماً للمُخاطرة التي نَتَحَمَّلها عندما نَتَخَلَّى عن اتجاه انتقائي خالص

وعندما نضع كل ثقتنا في أمرٍ واحد وأمرٍ واحد فقط. لكننا مُستعدون لتحمل المخاطرة. إن هذا العالم مكانٌ مظلم بدون المسيح؛ لم نجد أي خلاص آخر سواء في أنفسنا أو في الآخرين؛ ولذلك من جهتنا، رغم الشكوك والمخاوف، نحن مُستعدون أن نثق تمامًا بكلمات المسيح وأن ندخل إلى العمق بُناءً على كلمته. إنها مُغامرة عظيمة، مُغامرة الإيمان؛ توجد صعوبات على طريق الإيمان؛ لم نحل كل الأسرار أو تخلصنا من كل الشكوك. لكن، رغم أن أذهاننا ما زالت مظلمة، رغم أننا لم نتوصل إلى دليل حسابي راسخ، لكننا حصلنا على الأقل على يقينٍ يكفي لأن يجعلنا نُخاطر بحياتنا. هل سيتُركنا المسيح عندما عهدنا بأنفسنا إليه؟ يوجد أشخاص من حولنا يُخبروننا بأنه سيتُركنا؛ توجد أصوات بداخلنا تهمس لنا بالشكوك؛ لكن يجب أن نتصرف بحسب أفضل نور أُعطي لنا، وبفعلنا ذلك نكون قد قررنا من ناحيتنا ألا نثق بشكوكنا وأن نؤسس حياتنا، رغم كل شيء، على المسيح.

لا تعتمد فاعليّة الإيمان إذن على الإيمان ذاته، الذي يُعتبر ظاهرة سيكولوجيّة، بل على موضوع الإيمان، أي المسيح. لا يُنظر في العهد الجديد إلى الإيمان على أنه عملٌ جديرٌ بالمُكافأة أو حالةٌ جديرةٌ بالمُكافأة والتي تتّصف بها النفس؛ لكن يُنظر إليه باعتباره وسيلةً تُستخدم بواسطة نعمة الله. لا يقول العهد الجديد أبدًا إن الإنسان يخلص على أساس إيمانه، لكن دائمًا ما يقول إنه يخلص بإيمانه أو من خلال إيمانه؛ إن الإيمان ما هو إلا الوسيلة التي يستخدمها الروح القدس ليُطبّق أو يُحقّق فوائد أو بركات موت المسيح في حياة الفرد.

ويُعتبر الإيمان بشكل ما أمرًا بسيطًا جدًا. بالتأكيد، فُمنّا بنوع من التحليل له؛ لكننا كُنّا نفعل ذلك، لا بسبب الاهتمام بالتعقيد، بل على العكس، لكي نواجه الأفكار الخاطئة التي تُدَمِّر البساطة. لم نكن نقصد ولو للحظة أن نُوحى بأن كل النتائج المنطقيّة التي وجدناها في الإيمان توجد بشكل واعي أو مُفصل في ذهن الإنسان الذي يؤمن؛ إن كيمياء النفس عجيبةٌ بالتأكيد، ويتم إيصال عالم كامل من الأفكار والحياة للإنسان في خبرةٍ للإيمان، والتي تبدو بسيطة بنفس بساطة سقوط ورقة شجرٍ من الغُصن، وتبدو حتميّة بنفس حتميّة تدفق نهر عظيم إلى البحر. بالتأكيد، في الأساس، يُعتبر الإيمان بشكل ما أمرًا بسيطًا جدًا؛ إنه يعني ببساطة، أننا نقبل عطية الخلاص التي يُقدّمها المسيح بالكامل ومجانًا عندما نتخلّى عن المجهود عديم الفائدة لاكتساب موضعٍ في محضر الله. هذه هي "عقيدة" -دعونا نتوقّف عن الخوف من تلك الكلمة- التبرير بالإيمان وحده.

إن هذه العقيدة كانت عقيدةً مُحرّرة في تاريخ العالم؛ يرجع إليها فضل كسر قيود العصور الوسطى في الإصلاح؛ يرجع إليها بشكل أساسي فضل الحريّة المدنيّة التي نتمتّع بها اليوم. وبما أنه يتم التخلّي عنها حاليًا، فإننا الحريّة المدنيّة تتدمّر ببُطء ولكن بثبات، لصالح فلسفة جماعيّة (collectivism) تقتل النفس والتي تُعتبر أسوأ في بعض الجوانب من الحكومات الاستبداديّة في الماضي. دعونا نأمل أن يتم إيقاف

هذه العملية في الوقت المناسب. إن كُنَّا مُهتمين بكيف يُفكّر الله فينا، فلن نُردّع بكيف يُفكّر البشر فينا؛ إن مُجرد الرغبة في أن نَتَبَرَّر أمام الله تَجْعَلُنَا مُستقلين عن حُكم البشر. وإذا كانت مُجرد الرغبة في أن نَتَبَرَّر رغبةً مُحرّرة، فكم بالحري يكون نوال التبرير نفسه! إن الإنسان الذي بَرَّره الله، الإنسان الذي قَبْلَ موقف المُصالحة مع الله الذي يُقدِّمه المسيح بصفته عطيةً مجانيةً، ليس إنسانًا يرجو أنه من المُمكن، مع المجهود المطلوب، إذا لم يَفْشل، أن يفوز أخيرًا بأن يُصبح ابنًا لله. لكنه إنسان أصبح بالفعل ابنًا لله. إن اعتمدَ كونه أبناءً لله علينا نحن بأقل قدر، لم نَكُنْ أبدًا لنتأكد من أننا نلنا تلك المكانة السامية. لكن في الواقع، لا يَعتمد الأمر علينا نحن؛ إنه يَعتمد على الله وحده. إنه ليس مُكافأةً فُزنا بها بل عطيةً قَبِلناها.

الفصل السابع

الإيمان والأعمال

بسبب الطبيعة الجوهرية للإيمان، كما تم توضيحها في الفصل السابق، على أساس تعاليم العهد الجديد، من الطبيعي أن نجد أن الإيمان في العهد الجديد، باعتباره قبول عطية مجانية، يوضع في أكثر المقارنات حدة مع أي تدخل للاستحقاق البشري؛ من الطبيعي أن نجد أن الإيمان يُقارَن بشكلٍ حادٍ مع الأعمال. إن المقارنة مُتضمنةً فعلاً عبر العهد الجديد كله، وفي أحد الرسائل، رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، تُشكِّل هذه المقارنة الموضوعَ الصريحَ للجدال. تُعد تلك الرسالة من البداية إلى النهاية جدالاً قوياً للدفاع عن عقيدة التبرير بالإيمان وحده؛ وبذلك يَحِقُّ لها أن تُسمى الوثيقة العُظمى للحرية المسيحية. كان العالم يَرُقْد في ظلام في بداية القرن السادس عشر؛ لكن الله أقام حينها رجلاً قرأ هذه الرسالة بعينه، فَوُلِد الإصلاح. لبت ذلك يَحْدُثُ أيضاً في أيامنا نحن. يَغُوص العالمُ مُجدداً في العبودية؛ إن حرية مجد أولاد الله تُزاح بواسطة عبودية ديانة الاستحقاق: لكن الله ما زال حياً، وسيُخرج روح الله وثيقة خريتنا إلى النور مرة أخرى.

في هذه الأثناء، تُخَيِّم ظلمة غريبة على عيون البشر؛ إن الرسالة التي تُقدِّمها رسالة غلاطية العظيمة، والتي تُعد واضحة بشكل مُذهل للإنسان الذي انفتح عيناها، تُعتبر مخفية بواسطة كتلة من سوء التفسير والذي تُعتبر طريقته سخيفة بنفس درجة هراء العصور الوسطى المُتعلِّق بنظرية المعاني الأربعة للكتاب المُقدَّس والتي نَحَاها الإصلاح جانباً. ما زال التفسير اللغوي التاريخي مُفضَّلاً من الناحية النظرية، لكن رُغم ما يُفعل نحوه في الممارسة العملية (بواسطة الوعاظ إن لم يكن بواسطة الباحثين أيضاً)؛ ويُجبر الرسول بولس على قول أي شيء يَوَدُّ الناس لو أنه كان قد قاله. نعتقد أن إصلاحاً جديداً مثل إصلاح القرن السادس عشر سيتميز، بجانب الأمور الأخرى، برجوع إلى التفكير السليم الواضح؛ وسيُسمَح للرسول بولس، رُغم إعجابنا أو كُرهننا، بأن يقول ما قَصَدَ فعلاً أن يقوله.

لكن ما الذي قَصَدَ الرسول بولس أن يقوله فعلاً في رسالة غلاطية؛ بالمُقارنة مع ما كان يكتبه في ذلك الجدل العظيم؛ وما الذي كان بولس يُؤسِّسه بدلاً من الأمر الذي كان يسعى إلى هُدمه؟

إن الإجابة التي يُقدِّمها الكثير من الكتَّاب المعاصرين على هذا السؤال هي أن الرسول بولس كان يُجادل فقط ضد ديانة طقسية خارجية لصالح ديانة تُؤسَّس على المبادئ العظيمة؛ أي أنه كان يُجادل ضد مفهوم مُجرأاً للأخلاقيات والذي يجعل الأخلاقيات تتكون من مجموعة من القواعد المُنفصلة، لصالح مفهوم يستمد

السلوك البشري طبيعياً من مصدر مركزي في المحبة؛ بكلمات أخرى، كان بولس يُجادل ضد "حرف الناموس" لصالح "روح" الناموس.

نعتقد أن هذا التفسير ينطوي على خطأ ينزع الأعضاء الحيويّة للمسيحيّة. بالطبع، مثل الأخطاء المميّزة الأخرى، يحتوي ذلك الخطأ على جانب من الحق؛ على الأقل، في أحد المقاطع في رسالة غلاطية، يبدو أن بولس يُشير فعلاً إلى الطبيعة الخارجيّة للناموس الطقسي باعتبارها أدنى من المرحلة الأسمى (أو باستخدام التعبير المعاصر، الأكثر "روحانيّة") التي وصلت إليها المسيحيّة في التدبير الجديد. لكن ذلك المقطع مجرد مقطع مُنعزل، وبالتأكيد لا يُعطي في حد ذاته المُفتاح لمعنى الرسالة. على العكس، حتى في ذلك المقطع، عندما يؤخذ بحسب سياقه، فإن المكانة الأدنى للتدبير القديم باعتباره يتضمّن مُتطلبات طقسيّة، يَضَع في الواقع مجرد علامة على المكانة الأدنى التي لا تزال أعمق؛ وأن تلك المكانة الأدنى الأعمق هي التي تَهْتَم الرسالة بأكملها بأن تُقَدِّمها. إن الطبيعة الطقسيّة لناموس العهد القديم، التي أدنى بكثير من الطبيعة الجوهريّة للتدبير الجديد، قَصَدَ الله منها أن تُحدِّد المكانة الأدنى لأي تدبير للناموس بالمُقارنة مع تدبير النعمة.

بالتأكيد، ينبغي مرة أخرى تقديم كلمة تحذير عند هذه النقطة. لم يقصد بولس إطلاقاً أن التدبير القديم كان مجرد تدبير للناموس؛ يعترف بولس دائماً، وبالتأكيد يُصر على جانب النعمة الذي كان موجوداً في كل أنحاء التدبير القديم من البداية إلى النهاية، جانب النعمة الذي ظهر في الوعد. لكن مُعارضيه في مدينة غلاطية كانوا قد رفضوا ذلك الجانب للنعمة؛ وإن استخدمهم لناموس العهد القديم، بالمُقارنة مع استخدامه السليم كمؤدّب أو مُعلم يقود للمسيح، جعل التدبير القديم فعلاً تدبيراً للناموس ولا أكثر.

وفقاً لبولس، ماذا كانت إذن المكانة الأدنى الحقيقيّة والأساسيّة لذلك التدبير للناموس؛ كيف ينبغي مُقارنته مع التدبير الجديد الذي افتتحه المسيح؟ من الصعب رؤية كيف يُمكن لإجابة هذا السؤال فعلاً أن تُعتبر غامضة؛ لقد سكب الرسول بولس نفسه ليجعل تلك المسألة واضحة. ومن المؤكد أن المُقارنة لم تكن بين ناموس أدنى وناموس أسمى؛ لم تكن بين مفهوم مُجزأ وخارجي للناموس ومفهوم يَخْتِزله إلى مبادئ أساسيّة عظيمة؛ لكنها كانت مُقارنة بين أي ناموس، مهما تسامى، بشرط أن يُنظر إليه باعتباره طريقة لنوال الاستحقاق، ونعمة الله المجانيّة بشكل مُطلق.

إن هذه المُقارنة يتم تفويتها تماماً بواسطة التفسير السائد شعبياً في كنيسة الحداثة: لقد افترض المُدافعون عن "الخلاص من خلال الشخصيّة" أن جدال الرسول بولس كان مُوجَّهاً فقط ضد أشخاص طقسيين مُعيّنين ومنسيين من الزمن الماضي، بينما في الواقع، يتم توجيهه ضد هؤلاء المُدافعين بنفس الدرجة. بالتأكيد يتم توجيهه ضد أي إنسان يسعى إلى الوقوف أمام الله على أساس استحقاقه الشخصي، بدلاً من الوقوف على

أساس الذبيحة التي قدّمها المسيح ليُرْضَى مطالب العدل الإلهي على الصليب. إن الحقيقة هي أن ذلك التفسير الحداثي السائد لرسالة غلاطية، والذي يبدو من بعض الجوانب أنه بالضبط التفسير الذي تُفضّله الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، يجعل الرسول بولس على الأغلب يقول تمامًا عكس ما كان يقصده.

إن عودة الحداثيين إلى العصور الوسطى في تفسيرهم لرسالة غلاطية لا تُعد أمرًا مُنْعَزَلًا، بل أحد جوانب سوء تفسير للكتاب المُقدَّس كله؛ يُعد بالتحديد أقرب بشكل كبير لسوء تفسير الجملة عظيمة في أحد رسائل بولس. توجد الجملة التي نُشير إليها في ٢ كورنثوس ٣: ٦: "الْحَرْفُ يَقْتُلُ وَلَكِنَّ الرُّوحَ يُحْيِي".

ربما تُعد تلك الجملة أكثر مقولة يُساء استخدامها بشكل مُتكرر في كل الكتاب المُقدَّس. تُقابل بالتأكيد مُنافسةً كبيرة من حيث هذا الأمر؛ تُستخدم العديد من كلمات العهد الجديد اليوم لتعني على الأغلب تمامًا العكس، على سبيل المثال، عندما تُجعل الكلمات "الله في المسيح" ومثيلاتها، تعبيرًا عن وحدة الوجود الغامضة والمشهورة جدًا حاليًا، أو عندما يُنظر إلى كل رسالة الإنجيل على أنها رمزٌ لمنظورٍ مُتقائل من نحو الإنسان، وهو ما كانت تلك العقيدة في الواقع اعتراضًا كبيرًا عليه، أو عندما تُقدّم عقيدة التجسّد باعتبارها تُشير إلى الاتحاد الضروري بين الله والإنسان! يتم تذكيرنا دائمًا في الوقت الحالي بالطريقة التي استخدم بها الغنوسيين في القرن الثاني نصوص الكتاب المُقدَّس ليدعموا أنظمتهم المُخالفة بشدة للكتاب المُقدَّس. تم التخلي بشكل عام عن المنهجية التاريخية للدراسة، على الأقل في الولايات المتحدة؛ ويُجبر كُتاب العهد الجديد على قول غالبًا أي شيء يود قُرّاء القرن العشرين لو أنهم كانوا قد قالوه.

إن هذا التخلي عن المنهجية التاريخية العلمية في التفسير، والذي يُعد مُجرد أحد تجلّيات التدهور الفكري في يومنا، يظهر في نقاط لا تُحصى في الأدب الديني المُعاصر؛ لكن لا يظهر بوضوح أكبر مما يظهر بارتباط مع العبارة العظيمة الموجودة في ٢ كورنثوس التي أشرنا إليها. إن الكلمات: "الْحَرْفُ يَقْتُلُ وَلَكِنَّ الرُّوحَ يُحْيِي"، تُفسّر دائمًا على أنها تعني أنه لنا كل الحق في قبول ناموس الله بنوع من التّشكُّك؛ تُستخدم تلك الكلمات لتُشير إلى أن بولس لم يكن إنسانًا "حرفيًا" بل "ليبراليًا"، والذي آمن بأن العهد القديم لم يكن بالتفصيل صحيحًا وأن ناموس العهد القديم لم يكن بالتفصيل شرعيًا، لكن كل ما طالَب به الله هو أن نَستخرج المبادئ العظيمة القليلة التي يُعلّم بها الكتاب المُقدَّس وألا نُصرّ على الباقي. باختصار، يُنظر إلى الكلمات باعتبارها تتضمّن مقارنة بين حرف الناموس و"روح الناموس"؛ يُنظر إليها على أنها تعني أن الحرفيّة مُميّنة، بينما الانتباه إلى المبادئ العظيمة يُبقي الإنسان حيًّا فكريًا وروحانيًا.

بذلك تقلّصت واحدة من أعظم عبارات العهد الجديد إلى مقارنة في عدم الأهمية – بالتأكيد، تُعد عدم أهمية مُغطاة بقشرة من الحق، ولكن عدم الأهمية تُعد واحدة في كل الأحوال. بالطبع، تُعتبر عدم الأهمية أمرًا نسبيًا؛ لا شك أنه من الهام ملاحظة أن الانتباه إلى المعنى العام لكتاب ما أو شريعة ما أفضل بكثير من

قراءة للتفاصيل فيها يتم تجاهل السياق التي توجد فيه التفاصيل. لكن كل ذلك يُعد غريباً عن المعنى الذي قصده الرسول بولس في ذلك المقطع، رُغم كونه صحيحاً وهاماً إلى حد كبير في موقعه، لكنه يُعد عديم الأهمية بالمقارنة مع الأمر الهائل الذي يسعى بولس إلى قوله هنا.

لا يُحاول بولس هنا أن يُقارن بين حرف الناموس وروح الناموس، بل أن يُقارن بين ناموس الله وروح الله. عندما يقول "الْحَرْفَ يَقْتُلُ"، فهو لا يُشير في احتقار إلى حرفية مُدققة والتي تجعل النفس تَذْبُل؛ لكنه يُقدِّم العظمة الرهيبة لناموس الله. يقول بولس إن الحرف، "الشيء المكتوب"، في ناموس الله يُصدر حكماً مُرعباً بالموت على المُتعدّي؛ لكن روح الله القدوس يُحيي، بالمُقارنة مع الناموس.

يَقصد بولس أن ناموس الله يُعتبر أمراً خارجياً بصفته قانوناً. إن مشيئة الله المُقدَّسة هي الأمر الذي ينبغي أن نتوافق معه؛ لكنها لا تحوي في ذاتها أي وعد بتتبعها؛ أن يكون الناموس مكتوباً هو أمر، وأما أن يُطاع فهو أمر مُختلف تماماً. في الواقع، بسبب الطبيعة الخاطئة لقلوبنا، وبسبب قوة الجسد، فإن إدراك ناموس الله فقط يجعل الخطيئة تأخذ الشكل المُحدَّد للتعدي؛ إنه فقط يجعل الخطيئة خاطئة جداً. كان ناموس الله مكتوباً على ألواح حجرية أو على لفائف أسفار العهد القديم، لكنه أمر مُختلف تماماً أن يُكتب على قلوب الناس وفي حياتهم. هكذا هو الأمر اليوم. يوجد تطبيقٌ واسع جداً للنص. يُعتبر ناموس الله "حرفاً"، مهما وصل إلينا؛ إنه "شيء مكتوب"، خارجي عن قلوب وحياة البشر. إنه مكتوبٌ في العهد القديم؛ إنه مكتوبٌ في الموعظة على الجبل؛ إنه مكتوبٌ في وصية يسوع الهائلة بخصوص محبة الله ومحبة القريب؛ إنه مكتوبٌ في أي طريقة نُصبح فيها مُدركين لوصايا الله. ليت لا أحد يقول إن ذلك التوسيع للنص ينطوي على نفس التحديث المُخالف للتاريخ الذي قُمنا بإدانتته للتو؛ على العكس، إنه توسيعٌ مُبرر بشدة بواسطة بولس نفسه. يقول بولس: "لَأَنَّهُ الْأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ، مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ، فَهَؤُلَاءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لَأَنفُسِهِمْ". يُعتبر ناموس العهد القديم عرضاً بنفس درجة وضوح وأصالة ناموس الله الذي يخضع له كل البشر.

ووفقاً لبولس، يُصدر ذلك الناموس حكماً مُرعباً بالموت الأبدي. "النَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ."؛ لا يتبرَّر سامعو الناموس بل من يعملون به. وللأسف، لا يعمل به أحد؛ الجميع أخطأوا. إن ناموس الله مُقدس وعادل وصالح؛ إنه لا يُلين؛ ولقد وَقَعْنَا تحت دينونته العادلة.

إن ذلك في النهاية هو ما تعنيه كلمات بولس، "الْحَرْفَ يَقْتُلُ". لا يَقصد بولس أن الانتباه إلى التفاصيل المُدققة يُميت النفس ويجعلها تَذْبُل. لا شك أن ذلك صحيح، على أقل في حدود مُعينة؛ إنها فكرة مُفيدة. لكنه بالطبع أمر عديم الأهمية بالمُقارنة بما يَقصده بولس. إن بولس يَقصد بعباراته أمراً أكبر عظمة بكثير، وأكثر رهبةً. إن "الحرف" الذي يَقصده الرسول بولس هو نفس لعنة ناموس الله التي يتحدَّث عنها في رسالة

غلاطية؛ إنها الكتابة المُربعة للفرائض التي ضدنا؛ والموت الذي تُسببه هو موتٌ أبدي للمُنْصَلِّين عن الله للأبد.

لكن ذلك ليس كل ما يقوله النص. يقول بولس: "الْحَرْفَ يَقْتُلُ وَلَكِنَّ الرُّوحَ يُحْيِي." لا يوجد شك فيما يقصده بتعبير "الروح". لا يقصد "روح الناموس" بالمُقارنة مع الحرف؛ بالطبع، لا يقصد التفسير المُتراخي لأوامر الله الذي تُمليه شهوة أو كبرياء الإنسان؛ بالتأكيد، لا يقصد روح الإنسان. أعتقد أنه لا يوجد تلميذ لبولس، مهما كانت وجهة نظره الدينيّة، يستطيع أن يشك في أن الرسول بولس يقصد روح الله. يأتي ناموس الله بالموت بسبب الخطيئة؛ لكن روح الله يُحيي، بتطبيقه على النفس الفداء الذي يُقدّمه المسيح. إن الأمر المكتوب يقتل؛ لكن الروح القدس، في الولادة الجديدة، أو كما يقول بولس، في الخليقة الجديدة، يُحيي.

توجد هذه المُقارنة في كل أنحاء العهد الجديد. على سبيل المثال، يُوصَف اليأس تحت الناموس في الأصحاح السابع من رسالة رومية. "وَيَحْي أَنَا الْإِنْسَانُ الشَّقِيّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ؟" لكن هذا اليأس يُرْفَع بواسطة رسالة الإنجيل. "لأنَّ نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ الْخَطِيئَةِ وَالْمَوْتِ." إن حُكم الدينونة العادل للناموس حُمِلَ بواسطة المسيح الذي تألم بدلاً منا؛ إن الصك الذي كان علينا في فرائض - "الحرف" المخيف - سُمِرَ على الصليب، وأصبح لنا بداية جديدة في كامل نعمة الله. وبالإضافة إلى هذه العلاقة الجديدة والصحيحة مع الله، يُعطي روح الله أيضاً للخاطي ولادة جديدة ويجعله خليقة جديدة. يتعامل العهد الجديد من البداية للنهاية بشكل مجيد مع عمل النعمة هذا. إن الإحياء الذي يتحدّث عنه بولس في هذا النص هو الولادة الجديدة، أو الخليقة الجديدة؛ إن المسيح هو مَنْ يَحْيَا فينا. هذا هو تتميم نبوة إرميا العظيمة: "بَلْ هَذَا هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَقْطَعُهُ مَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تِلْكَ الْأَيَّامِ، يَقُولُ الرَّبُّ: أَجْعَلُ شَرِيعَتِي فِي دَاخِلِهِمْ وَأَكْتُبُهَا عَلَى قُلُوبِهِمْ." لم يعد الناموس بالنسبة للمؤمن وصيةً يجب طاعتها بقوته، بل تتم مطالب الناموس من خلال القوة العظيمة للروح القدس. توجد حُرّيّة مجيدة في رسالة الإنجيل. لا تُبطل رسالة الإنجيل الناموس، لكنها تجعل البشر يُحبونه بكل قلوبهم.

كيف هو الأمر معنا؟ يقف ناموس الله فوقنا؛ لقد تعدّيناها بالفكر والقول والفعل؛ يُصدر "حرفه" الملوكي حُكمًا بالموت ضد خطيئتنا. هل نحصل على أمانٍ مُزيّف بتجاهلنا ناموس الله، وبإحتماء بناموس أسهل من ابتكارنا؟ أم سيقوم الرب يسوع، كما تُقدّمه رسالة الإنجيل لنا، بإلغاء حُكم الإدانة الذي ضدنا، وهل سيكتب الروح القدس ناموس الله على قلوبنا، ويجعلنا عاملين للناموس لا سامعين فقط؟ بهذه الطريقة وبها فقط سيتم تطبيق النص العظيم علينا: "الْحَرْفَ يَقْتُلُ وَلَكِنَّ الرُّوحَ يُحْيِي."

إن البديل وراء هذه الآية والذي يُصبح مُعلنًا صراحةً في رسالة غلاطية أيضاً، ليس بديلاً بين مسيحيّة طقسية أو خارجيّة وما قد يُسميه الناس الآن (في استخدام خاطئ لكلمة من العهد الجديد) مسيحيّة "روحية"،

رُغم أن ذلك بديلٌ هام بلا شك؛ بل بديلاً بين مسيحية الاستحقاق ومسيحية النعمة. تُوجّه رسالة غلاطية بنفس القدر ضد الفكرة المُعاصرة بخصوص "الخلاص من خلال الشخصية" أو الخلاص "بجعل المسيح سيّداً" على الحياة أو الخلاص بمُحاولة مُجردة لوضع "مبادئ يسوع" قيد التنفيذ، مثلما تُوجّه ضد اليهود الطقسيين من الزمن الماضي: لأن ما يهتم به الرسول بولس برفضه هو أي تدخل لاستحقاق الإنسان في العمل الذي يتحقق به الخلاص. وفقاً لرسالة غلاطية ولكل العهد الجديد، ذلك العمل هو عمل الله والله وحده.

عند هذه النقطة، تظهر الحجة الكاملة للرسالة العظيمة التي كنا نتعامل معها. لا يُجادل بولس فقط بأن الإنسان يتبرّر بالإيمان -مما لا شك فيه أن مُقاوميه، المُتهودين (The Judaizers) أقرّوا بذلك- لكنه كان يُجادل بأن الإنسان يتبرّر بالإيمان وحده. ما قاله المُتهودون لم يكن أن الإنسان يتبرّر بالأعمال، بل أنه يتبرّر بالإيمان والأعمال - وهو بالضبط ما تُعلّم به الكنيسة الكاثوليكية الرومانية اليوم. لا شك أنهم أقرّوا بأنه من الضروري أن يكون للإنسان إيمانٌ بالمسيح لكي يخلص: لكنهم تمسّكوا بأنه من الضروري له أيضاً أن يحفظ الناموس قدر استطاعته؛ وفقاً لهم، لم يكن الخلاص بالإيمان وحده ولم يكن بالأعمال وحدها، بل بالإيمان والأعمال معاً. لقد أكّدوا على أن طاعة الإنسان لناموس الله لم تكن بالتأكيد كافية للخلاص، لكنها كانت ضرورية؛ وأصبحت كافية عندما تمّ إضافة المسيح إليه.

في مواجهة هذه الحل التوفيقية للمشكلة، أصرّ الرسول بولس على بديل واضح: يُمكن أن يخلص الإنسان بالأعمال (إذا حفظ الناموس بشكل كامل)، أو يُمكن أن يخلص بالإيمان؛ لكنه لا يُمكن أن يخلص بالإيمان والأعمال معاً. وفقاً لبولس، سيقوم المسيح بكل شيء أو لا شيء؛ إن كان البر يتحقق بأقل قدر بطاعتنا للناموس، فالمسيح مات بلا سبب؛ إذا وثقنا بأقل قدر في أعمالنا الصالحة، فنحن ابتعدنا إذن عن النعمة ولا يُفيدنا المسيح بأي شيء.

قد يبدو ذلك الأمر صعباً بالنسبة للعالم: لكنه ليس صعباً بالنسبة للإنسان الذي كان من قبل عند الصليب؛ إنه ليس صعباً بالنسبة للإنسان الذي عرف أولاً عبودية الناموس، والمجهود الشاق لتثبيت بره الذاتي أمام الله، ثم فهم، كما في ومضة من النور، أن المسيح فعل كل شيء، وأن تلك العبودية الشاقة كانت بلا جدوى. يا له من لاهوتي عظيم قلب المؤمن - قلب المؤمن الذي لمستته النعمة الفادية! إن الرجل الذي شعر بجمل الخطيئة ينزاح بعيداً أمام الصليب، والذي قال عن الرب يسوع: "الذي أحبّني وأسلم نفسه لأجلي"، والذي أنشد مع توبلادي (Toplady): "لا شيء في يدي أحمل، فقط بالصليب أتمسك" - يعرف ذلك الرجل في أعماق قلبه أن الرسول بولس مُحقّ، وأن الثقة بالمسيح جزئياً ليست ثقةً به إطلاقاً، وأن برنا الذاتي لا يكفي حتى لأن يسد أصغر فجوة قد تظل موجودة بيننا وبين الله، أنه لا يوجد رجاء إلا إذا استطعنا بأمان أن نقول للرب يسوع، دون أي تحفظ، ودون أي ثقة بالنفس: "يجب أنك أنت تخلص، وأنت وحدك".

هذا هو مركز المسيحية - أن نعمة الله ذات السيادة وغير المستحقة تمامًا، تُخَلِّص الخُطاة بتقديم المسيح على الصليب. إن الدينونة تأتي على أساس الاستحقاق؛ يأتي الخلاص بالنعمة: يستحق الإنسان الدينونة؛ يُمنح الخلاص كعطية من الله. تَمُر حقيقة نعمة الله بكل أنحاء العهد الجديد مثل خيط ذهبي؛ يتواجد العهد الجديد بالتأكيد من أجلها. توجد النعمة في الكلمات التي قالها يسوع في أيام جسده، كما في أمثال العبد القادم من الحقل، وفِعلَة الكرم؛ توجد مشروحة بشكل أكمل بعدما تمَّ العمل الفدائي، بعدما نطق الرب عبارته الانتصارية "قد أكمل" على الصليب. يُعد أساس العهد الجديد هو نفسه في كل مكان - نعمة الله المذهلة والتي لا تُفحص والعجيبة. "لأنَّ أَجْرَةَ الْخَطِيئَةِ هِيَ مَوْتُ، وَأَمَّا هِبَةُ اللَّهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا".

إن الإيمان هو قبول تلك العطية: إن الإيمان لا يعني عَمَلٍ أمٍ ما بل قبول أمرٍ ما؛ إنه لا يعني استحقاق مكافأةٍ ما بل قبول عطيةٍ ما. لا يُمكن أن يُقال إن إنسانًا يكتسب شيئًا لنفسه إذا كان يناله بالإيمان؛ بالتأكيد، أن يُقال إنه يناله بالإيمان هو مجرد طريقة أخرى للقول بأنه لا يَكسبه بنفسه بل سمحَ لشخصٍ آخر أن يَكسبه له. بكلمات أخرى، إن الإيمان ليس فاعلاً بل مُستقبلاً؛ وأن يُقال إننا نَخْلُص بالإيمان هو أن نقول إننا لا نَخْلُص أنفسنا بل يُخَلِّصنا الشخص الذي نَضَع فيه إيماننا؛ إن إيمان الإنسان يفترض وجود نعمة الله ذات السيادة مُسبقًا.

حتى مع ذلك، لم تُردّد صدى كل أعماق تعليم العهد الجديد؛ لم نُقدِّم بعد بشكل كامل المكانة التي حدّدها العهد الجديد لنعمة الله في الخلاص. يبدو أنه ترك ملاذًا لكبرياء الإنسان فيما قلناه حتى الآن. لقد قلنا إن الإنسان لا يُخَلِّص نفسه؛ الله يُخَلِّصه. لكن الإنسان يقبل ذلك الخلاص بالإيمان؛ ورُغم أنه عمل سلبي، إلا أنه يبدو عملاً من نوع ما: يُقدِّم الله الخلاص مجانًا؛ لا يعتمد ذلك العرض على الإنسان إطلاقًا؛ مع ذلك، يبدو أن الإنسان يحصل على نوع من الاستحقاق عن طريق عدم مقاومة ذلك العرض بمجرد أن يُقدِّمه الله.

لكن حتى ذلك الملاذ الأخير للكبرياء البشري يُفحص ويُدمَّر بواسطة تعاليم كلمة الله؛ لأن الكتاب المقدس يُقدِّم حتى الإيمان نفسه - بدون أن ينطوي الأمر على أي استحقاق مُمكن - باعتباره عمل روح الله. وفقًا لخلاصة صحيحة للعهد الجديد، يُحدِّث الروح القدس الإيمانَ فينا وبذلك يُوجِّدنا بالمسيح في دعوته الفعّالة لنا؛ إن نعمة الله ذات سيادة ولا تُقاوم؛ وإيماننا هو مجرد الوسيلة التي يستخدمها الروح القدس ليُطبِّق فوائده أو بركات عمل المسيح الفدائي.

إن الوسيلة كانت من اختيار الله، لا اختيارنا؛ ولا يحق لنا أن نقول: "ما الذي تفعل؟" لكن أعتقد أنه حتى نحن الضُعفاء والجهلاء، نستطيع رؤية لماذا تم اختيار هذه الوسيلة المُحدَّدة لتُوجِّدنا بالمسيح؛ لماذا تم

اختيار الإيمان بدلاً من المحبة، مثلاً، لتكون القناة التي يصل بها الخلاص إلى حياتنا. إن الحب فاعلٌ أو نشيطٌ، لكن الإيمان مُستقيلٌ؛ لذلك تم اختيار الإيمان لا المحبة. لو كان الكتاب المقدس قد قال إننا نخلص بالمحبة، فمع أن المحبة كانت ستكون بالكامل عطيةً من الروح القدس، فقد نَظُن أنها محبتنا الشخصية، وربما كُنّا سنطالب بالخلاص كحقٍ لنا. لكن كما هو الأمر، لم نخلص فقط بالنعمة، بل أيضاً بسبب الوسيلة المُميّزة التي استخدمها الله ليخلصنا. لقد عرفنا أننا خَلَصنا بالنعمة؛ لقد كانت طبيعة الإيمان نفسها التي عَرَفْتنا أننا لا نُخلص أنفسنا. حتى قبل أن نُحب كما يجب أن نُحب، وحتى قبل أن نفعل أي شيء أو نشعر بأي شيء كما ينبغي، كنا قد خَلَصنا بالإيمان؛ خَلَصنا عن طريق التخلي عن أي ثقة بأفكارنا أو عواطفنا أو أفعالنا وببساطة عن طريق ترك أنفسنا ليخلصها الله.

بالتأكيد، من ناحية ما، خَلَصنا بالمحبة؛ إن تلك تُعد حقيقةً أعمق من أننا خَلَصنا بالإيمان. نعم، لقد خَلَصنا بالمحبة، لكننا خَلَصنا بمحبة أعظم من المحبة الموجودة في قلوبنا الخاطئة والباردة؛ لقد خَلَصنا بالمحبة، لكنها لم تكن محبتنا لله بل محبة الله لنا، محبة الله لنا التي بها بذل الرب يسوع ليموت لأجلنا على الصليب. **"في هذا هي المحبة: ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحببنا، وأرسل ابنه كفارة لخطايانا."** تلك المحبة وحده هي المحبة التي تُخلص. والوسيلة التي تُخلص المحبة بها هي الإيمان.

لذلك، لا تبدأ الحياة المسيحية بإنجاز ما بل باختبار؛ إن نفس الإنسان الذي يخلص، عند لحظة الخلاص، ليست فاعلة بل مُستقبلة؛ إن الخلاص هو عمل الله وعمله وحده. إن ذلك لا يعني أن المؤمن لا يكون واعياً عندما يدخل الخلاص حياته؛ إن ذلك لا يعني أنه يُوضع في غفوة، أو أن قدراته العادية مُعطلة؛ على العكس، غالباً ما يبدو التحول العظيم أمراً بسيطاً جداً؛ لا يتواجد الضغط العاطفي الطاعني دائماً بأي حال من الأحوال؛ ويكون الإيمان دائماً حالةً واعية للنفس. علاوة على ذلك، يوجد جانب إرادي للإيمان، والذي فيه يبدو للإنسان الذي يؤمن أنه ينتج عن مجهود واعٍ لإرادته به يُقرّر أن يتوقف عن محاولة تخلص نفسه ويُقرّر بدلاً من ذلك أن يقبل الخلاص الذي يُقدّمه المسيح. نعتقد أن الواعظ برسالة الإنجيل يجب أن يُناشد بكل طريقة مُمكنة الحياة الواعية للإنسان الذي يُحاول أن يربحه؛ يجب عليه أن يُزيل الاعتراضات الفكرية على حقيقة المسيحية، وأن يقدم حُجج إيجابية؛ يجب عليه أن يُناشد العواطف؛ يجب عليه أن يسعى لتحريك الإرادة من خلال النصح والحث. يُمكن استخدام كل تلك الوسائل، وتم استخدامها مرات لا تُحصى، بواسطة روح الله؛ وبالتأكيد، لم نقصد أن نستخف بها من خلال أي شيء قلناه. لكن ما نؤكد عليه هو أنه رُغم ضرورتها إلا أنها ليست كافية؛ لن تأتي أبداً بالإنسان إلى الإيمان بالمسيح إلا إذا صاحبها قوة روح الله العجيبة والمجددة. لا نُحاول هنا أن نتعامل مع سيكولوجية الإيمان؛ وبالتأكيد لا نعتقد أن تلك السيكولوجية المُتعلقة بالإيمان تُعد ضروريةً على الإطلاق للإنسان الذي يؤمن؛ بالطبع، كلما قلّ تفكيره في حالته الواعية وزاد تفكيره في المسيح كلما كان ذلك أفضل لنفسه. لكن يُمكن أن يُقال هذا القدر على الأقل: حتى الحالات

الواعية يُمكن أن تُحَثَّ بطريقة فوق طبيعِيَّة بواسطة روح الله، وتلك الحالة الواعية هي الإيمان الذي به يقبل الإنسان المسيح أولاً باعتباره مُخلَّصه من الخطيَّة.

لكن، إذا كانت الحياة المسيحيَّة لا تبدأ بإنجازٍ بل باختبارٍ، وإن لم يكن الإنسان في الحقيقة فاعلاً بل مُستقبلاً عندما يخلُص، وإذا كان يجب وَضْع الإيمان في مُقابلة حادة مع الأعمال، فما مصير الطابع الأخلاقي للمسيحيَّة، وما مصير التحفيز الذي قدَّمته المسيحيَّة على الدوام للفردانيَّة الإنسانيَّة وللإحساس بقيمة الإنسان، وما مصير النشاط القوي الذي حفَّزته في أتباعها دائماً، في مُقارنة واضحة مع بعض أديان العالم الأخرى الكبيرة؟ تُعد تلك الأسئلة مشروعة تماماً؛ وتُظهر أننا بعيدون جداً عن تقديم تقرير مُناسب، حتى الآن، عن العلاقة بين الإيمان والأعمال في المسيحيَّة أو بين العقيدة والحياة.

لذلك، يجب أن تُفحص تلك العلاقة الآن بشيء من التفصيل، حتى لو باختصار.

ربما من الأفضل أن يبدأ الفحص بالنظر إلى ما اعتبره بعض القراء الأتقياء للكتاب المُقدَّس صعوبة خطيرة، أي التناقض الظاهري بين الأصحاح الثاني لرسالة غلاطية والأصحاح الثاني لرسالة يعقوب. يقول بولس: "إِذْ نَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَبَرَّرُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ، بَلْ بِإِيمَانٍ يَسُوعَ الْمَسِيحِ"، ويقول يعقوب: "تَرَوْنَ إِذَا أَنَّهُ بِالْأَعْمَالِ يَتَبَرَّرُ الْإِنْسَانُ، لَا بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ". تُشكِّل هاتان الآيتان في تجاورهما صعوبة كتابية قديمة. في الآية من رسالة غلاطية، يُقال إن الإنسان يَتَبَرَّرُ أمام الله بالإيمان وحده بدون الأعمال؛ في الآية من رسالة يعقوب، يُقال إن الإنسان لا يَتَبَرَّرُ أمام الله بالإيمان وحده بل بالإيمان والأعمال معاً. إذا نُزعت الآيتان من سياقهما الأوسع ووضعت جنباً إلى جنب، لا يُمكن أن يوجد تناقض أكثر اكتمالاً.

إن عقيدة بولس بخصوص التبرير بالإيمان وحده، والتي تعاملنا معها باستفاضة كبيرة، هي كما رأينا أساس الحُرِّيَّة المسيحيَّة. إنها تجعل موقفنا أمام الله غير مُعتمد على ما فعلناه، بل بالكامل على ما فعله الله. إن اعتمدَ خلاصنا على ما فعلناه، فإذن وفقاً لبولس، سنظل مُستعبدين؛ سنظل نسعى بحماس لحفظ ناموس الله بكفاءة لكي نَنَمُكَ من أن ننال عطفه في النهاية. سيكون ذلك سعياً يائساً بسبب ذنب الخطيَّة المُميت؛ سنكون مثل أشخاص مديونين يسعون إلى السداد، ولكن في سعيهم لذلك يغوصون في الديون أكثر فأكثر. لكن كما هو الأمر، بحسب رسالة الإنجيل، لقد منحنا الله نعمته كعطيَّة مجانية تماماً؛ لقد أحضرنا إلى علاقة صحيحة معه، لا على أساس أي استحقاق فينا، بل بالكامل على أساس استحقاق المسيح. عظيم هو ذنب خطايانا؛ لكن المسيح حمله كله بنفسه عندما مات لأجلنا في الجُلُثَّة. لا نحتاج إذن لأن نجعل أنفسنا صالحين قبل أن نُصبح أولاداً لله؛ لكن يُمكننا أن نأتي إلى الله بالضبط كما نحن، مُحمَّلين بالكامل بخطايانا، ونكون متأكدين تماماً أن ذنب الخطيَّة سيُحى وأننا سنُقبَل. عندما ينظر الله إلينا، ليقبلنا أو ليُطرِدنا من أمامه، فهو لا ينظر إلينا نحن بل إلى شفيِعنا العظيم، المسيح يسوع الرب.

إن ذلك هو الضمان المجيد لرسالة الإنجيل. إن خلاص المؤمن مضمونٌ لأنه يعتمد بالكامل على الله؛ إن كان يعتمد بأقل مقدار علينا، فإن ضمان الخلاص سيختفي. تظهر هنا الأهمية الحيوية للعقيدة العظيمة للإصلاح بخصوص التبرير بالإيمان وحده؛ تقع تلك العقيدة في قلب المسيحية. إنها تعني أن القبول لدى الله ليس أمرًا نستحق أو نكتسبه؛ إنه ليس أمرًا مُعرَّضًا للشكوك البائسة للمساعي البشرية؛ لكنه عطية الله المجانية. قد يبدو أمرًا غريبًا أن يقبلنا الإله القدوس بصفتنا أولاده؛ لكن الله اختار أن يقبلنا؛ لقد تمَّ الأمر على مسؤوليته لا مسؤوليتنا؛ لديه الحق في أن يقبل الإنسان الذي يشاء أن يقبله إلى محضره؛ واختار الله في نعمته العجيبة أن يقبلنا.

يفترض كل العهد الجديد بالفعل تلك العقيدة المركزية للمسيحية؛ لكنها تتضح تحديدًا في رسائل بولس. إن مقاطع مثل الأصحاح الثامن لرسالة رومية، والأصحاحين الثاني والثالث لرسالة غلاطية، والأصحاح الخامس لرسالة كورنثوس الثانية، هي التي تُقدِّم بأوضح طريقة قلب رسالة الإنجيل.

لكن في رسالة يعقوب، يبدو للوهلة الأولى أنه توجد نعمة مُتتافرة في جوقة العهد الجديد العظيمة. يقول يعقوب: "تَرَوْنَ إِذَا أَنَّهُ بِالْأَعْمَالِ يَتَبَرَّرُ الْإِنْسَانُ، لَا بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ." إن كان ذلك يعني أن الإنسان يُعلن بارًا أمام الله جزئيًا بسبب استحقاق أعماله ويُعلن بارًا جزئيًا فقط بسبب ذبيحة المسيح التي يقبلها بالإيمان، فإن يعقوب حينها سيكون مُتمسكًا بموقف مُعارض بولس العنيفين الذين تتم مُقاومتهم في رسالة غلاطية. إن هؤلاء المُعارضين، المُتهودين كما يُدعون، يؤكِّدون كما رأينا على أن الإيمان بالمسيح ضروري للخلاص (في ذلك اتفقوا مع بولس)، لكنهم أكدوا على أن استحقاق الإنسان بسبب حفظه لناموس الله كان أيضًا ضروريًا. لا يخلص الإنسان بالإيمان وحده ولا يخلص بالأعمال وحدها، بل يخلص بالإيمان وبالأعمال معًا - يظهر أن تلك هي المُعادلة التي نادى بها المُتهودون مُعارضو بولس. لقد رأى الرسول بولس، على نحو صحيح، أن تلك المُعادلة كانت رجوعًا إلى العبودية. إن كان المسيح يُخلصنا جزئيًا فقط، ويترك فجوةً لثُشد عن طريق أعمالنا الصالحة، فلن يُمكننا أبدًا أن نتأكد من أننا خُلصنا. يرى الضمير الذي تمَّ إحيائه بوضوح أن طاعتنا لناموس الله ليست نوع الطاعة المطلوبة حقًا؛ إنها ليست نقاوة القلب التي تُطالب بها تعاليم ربنا ومثاله. إن طاعتنا للناموس لا تكفي لسد حتى أصغر فجوة؛ نحن عبيد بطَّالون أو غير مُثمرين، وإذا حاولنا أن نُراجع حساباتنا مع قاضينا فلن يكون لنا رجاء. لم يُقم المسيح بأي شيء من أجلنا أو أنه قام بكل شيء؛ أن نَعتمد حتى بأقل قدر على استحقاقنا الشخصي هو جوهر عدم الإيمان نفسه؛ يجب أن نثق بالمسيح من أجل لا شيء أو يجب أن نثق به من أجل كل شيء. هذا هو ما تُعلِّم به رسالة غلاطية.

لكن في رسالة يعقوب، يبدو للوهلة أننا أمام دائرة أخرى من الأفكار. يقول بولس: "إِنَّ الْإِنْسَانَ يَتَبَرَّرُ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ" ويقول يعقوب: "إِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَبَرَّرُ بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ." لقد شكَّل الأمر صعوبةً للكثير

من قُرَأَ الكتاب المُقَدَّس. لكن مثل التناقضات الظاهرية الأخرى في الكتاب المُقَدَّس، تتضح أنها مُجر تناقض من حيث الشكل لا المضمون؛ وتؤدي فقط إلى قيادة القارئ التقى إلى فهمٍ أعمق وأشمل للحق.

يَظهر حَلُّ الصعوبة في تعريف كلمة "الإيمان". نَتَجَّ التناقض الظاهري ببساطة بسبب حقيقة أنه عندما يقول يعقوب في هذا الأصاح إن "الإيمان" وحده لا يكفي فهو يَقصد بكلمة "الإيمان" أمرًا مُختلفًا عما يَقصده بولس بها عندما يقول إن الإيمان يكفي تمامًا. إن نوع الإيمان الذي يُعلن يعقوب أنه غير كافٍ يَتَّضح في الآية التاسعة عشر من نفس الأصاح: "أَنْتَ تُؤْمِنُ أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ. حَسَنًا تَفْعَلُ. وَالشَّيَاطِينُ يُؤْمِنُونَ وَيَقْشَعِرُونَ." إن نوع الإيمان الذي يُعلن يعقوب أنه غير كافٍ هو إيمان يوجد لدى الشياطين أيضًا؛ إنه مُجرد إدراك فكري للحقائق المُتعلِّقة بالله أو المسيح، ولا يَنطوي على أي قبول لتلك الحقائق باعتبارها عطية من الله لنفس الإنسان. لكنه ليس نوع الإيمان الذي يَقصده بولس عندما يقول إن الإنسان يَخْلُص بالإيمان وحده. يُعد الإيمان بالتأكيد أمرًا فكريًا؛ يَنطوي على إدراك لأمر مُحددة بصفاتها حقائق؛ ويُعد المجهود المُعاصر لفصل الإيمان عن المعرفة عديم الفائدة. لكن رُغم أن الإيمان أمرٌ فكري، إلا أنه ليس فكريًا فقط. لا يُمكن أن يكون لك إيمان بدون المعرفة؛ لكن لن يكون لك إيمان إذا كانت لديك فقط المعرفة. إن الإيمان هو قبول لعطية من أيدي المسيح. لا نستطيع قبول العطية بدون معرفة حقائق مُعينة عن العطية والعاطي. لكن يُمكننا معرفة كل هذه الأمور ومع ذلك لا نَقبل العطية. قد نَعرف ماهية العطية ومع ذلك لا نَقبلها. لذلك تُعتبر المعرفة ضرورية جدًا للإيمان، لكنها ليست كل ما هو ضروري. يأتي المسيح مُقَدِّمًا لنا تلك العلاقة الصحيحة مع الله التي حققها لأجلنا على الصليب. هل سَنَقبل العطية أم سننظر إليها باحتقار؟ يُسمى قبول العطية إيمانًا. إنه أمرٌ مُذهلٌ جدًا؛ يَنطوي الإيمان على تَغْيِير لطبيعة الإنسان بالكامل؛ يَنطوي الإيمان على كراهية جديدة للخطية وجوع وعطش جديدين للبر. إن ذلك التَغْيِير المُذهل ليس من عمل الإنسان؛ إن الإيمان نفسه يُعطى لنا بواسطة روح الله. لا يَجعل المؤمنون أنفسهم مؤمنين أبدًا؛ لكن يصيرون مؤمنين بواسطة الله.

يَتَّضح كل ذلك مما قِيلَ بالفعل. لكن من غير المعقول تمامًا أن يُعطى الإنسان هذا الإيمان بالمسيح، وأن يقبل هذه العطية التي يُقَدِّمها المسيح، وَيَسْتَمِر مع ذلك في الخطية باقتناع. لأن الأمر الذي يُقَدِّمها المسيح لنا هو الخلاص من الخطية - لا مُجرد الخلاص من ذنب الخطية، بل الخلاص أيضًا من سُلطة الخطية. لذلك، إن أول شيء يَفعله المؤمن هو حِفْظ ناموس الله؛ لا يَحفظه بعد الآن كطريقة للحصول على الخلاص - لأن الله أعطاه الخلاص مجانًا - بل يَحفظه بفرحٍ باعتباره جزءًا مركزيًا في الخلاص ذاته. إن الإيمان الذي يَتَحَدَّث عنه بولس، كما يقول بولس نفسه، هو إيمانٌ عاملٌ بالمحبة؛ والمحبة هي تكميل الناموس كله. كان بولس سَيَتَفَق بشكل كامل مع يعقوب على أن الإيمان الذي كان يعقوب يَتَحَدَّث عنه في المَقطع الذي أمامنا

ليس كافياً إطلاقاً للخلاص. إن الإيمان الذي يقصده بولس عندما يتحدث عن التبرير بالإيمان وحده هو إيمان عامل.

لكن الإيمان الذي يرى يعقوب أنه ليس كافياً، يختلف عن الإيمان الذي يمدحه بولس، كذلك تختلف الأعمال التي يمدحها يعقوب عن الأعمال التي يعتبرها بولس غير فعالة. يتحدث بولس عن أعمال الناموس، إنه يتحدث عن الأعمال التي قصد منها أن تنال الاستحقاق لكي يكسب الإنسان نعمة الله؛ على الناحية الأخرى، يتحدث يعقوب عن أعمال مثل تقديم إبراهيم إسحاق ذبيحة، الأعمال التي نتجت عن الإيمان وتُظهر أن الإيمان حقيقي.

إن الاختلاف إذن بين بولس ويعقوب هو اختلاف في المصطلحات، لا في المعنى. يظهر ذلك الاختلاف في المصطلحات أن رسالة يعقوب كتبت في وقت مبكر جداً، قبل أن بدأ الخلاف مع المتهودين وقبل أن تصبح المصطلحات مثبتة. لو كان يعقوب يكتب بعدما أصبحت المصطلحات مثبتة، فإن ما كان سيقوله هو أنه رغم أن الإنسان يتبرر بالإيمان وحده لا بالأعمال إطلاقاً، إلا أنه يجب على المرء أن يتأكد من أن إيمانه إيمان حقيقي وليس مجرد موافقة فكرية مثل موافقة الشياطين الذين يؤمنون ويقشعرون. ما فعله يعقوب هو أنه كان يقول ذلك بالضبط لكن بكلمات أخرى. إذن، لم يَعم يعقوب بتصحيح بولس؛ إنه لم يَعم حتى بتصحيح عرض خاطئ لفكر بولس؛ بل كان يُجهز بشكل غير مباشر لبولس؛ كان يُجهز جيداً للتعليم الأوضح والأمد للرسائل العظيمة.

يجب أن تأخذ رسالة يعقوب مكانها المناسب في تغذية الحياة المسيحية. لقد نُظر إليها في بعض الأحيان باعتبارها رسالة الأعمال. لكن ذلك لا يعني أن تلك الرسالة تتجاهل الجوانب الأعمق والأكثر تأملية في الحياة المسيحية. لا يدافع يعقوب عن "رسالة إنجيل تهتم بتنظيف الشوارع"؛ لا يدافع عما يدعى كذباً اليوم مسيحية "عملية"، بالمقارنة مع مسيحية عقائدية؛ إنه ليس رجلاً يسعي إلى إسكات قلق داخلي عن طريق عمل إنساني صاخب. على العكس، إنه مؤمن بشدة بقوة الصلاة؛ يمدد الإيمان ويستتكر الشك؛ يجعل الإنسان يتواضع ويمجد الله: "هَلُمَّ الْآنَ أَيُّهَا الْقَائِلُونَ: نَذْهَبُ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَوْ تِلْكَ، وَهَنَّاكَ نَصْرِفُ سَنَةً وَاحِدَةً وَنَنْجِرُ وَنَرْبِحُ. أَنْتُمْ الَّذِينَ لَا تَعْرِفُونَ أَمْرَ الْغَدِ! لِأَنَّهُ مَا هِيَ حَيَاتُكُمْ؟ إِنَّهَا بُخَارٌ، يَظْهَرُ قَلِيلاً ثُمَّ يَضْمَحِلُّ. عَوْضَ أَنْ تَقُولُوا: إِنْ شَاءَ الرَّبِّ وَعِشْنَا نَفْعَلْ هَذَا أَوْ ذَاكَ." إن الرجل الذي كتب تلك الكلمات لم يكن مجرد مدافع عن مسيحية "عملية" لهذا العالم؛ لم يكن مجرد مدافع عما يُسمَّى اليوم "رسالة الإنجيل الاجتماعية"؛ بل كان رجلاً رأى هذا العالم، كما يراه العهد الجديد، في ضوء الأبدية.

لذلك، يُمكن تعلُّم الدرس الذي يُقدِّمه يعقوب دون الإضرار بأعمق الأمور في الإيمان المسيحي – بالتأكيد، دون الإضرار برسالة الإنجيل التي يُعلنها بولس. لقد كان واضحاً لبولس وكذلك ليعقوب أن الأشخاص

الذين يخلصون بالإيمان لا يستمرون في عيش حياة غير طاهرة. يقول بولس: "لَا تَضِلُّوا: لَا زُناةً وَلَا عِبَدَةَ أَوْثَانٍ وَلَا فَاسِقُونَ ... وَلَا سَارِقُونَ وَلَا طَمَّاعُونَ وَلَا سَكِيرُونَ وَلَا شَتَّامُونَ وَلَا خَاطِفُونَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللَّهِ." من الصعب رؤية كيف كان يُمكن لأي شيء أن يكون أوضح من ذلك. إن بولس يُصر بجدية مثل يعقوب على الطابع الأخلاقي أو العملي للمسيحية؛ يُصر بولس وكذلك يعقوب على الطهارة وعدم الأنانية في السلوك باعتبارها علامة ضرورية جدًا للحياة المسيحية. وفقًا لبولس (ووفقًا ليعقوب بالفعل أيضًا)، لا يُخلص الإنسان نفسه بل يخلص بواسطة الله؛ لكن الله لا يخلصه لكي يستمر في الخطيئة، بل لكي يغلب الخطيئة ويصل إلى القداسة.

بالتأكيد، يُعد بولس جادًا للغاية بخصوص هذه المسألة لدرجة أنه في بعض الأوقات يبدو غالبًا كما لو أنه آمن بأن المؤمنين ينبغي أن يكونوا بلا خطيئة تمامًا حتى في هذه الحياة، كما لو أنه آمن بأنهم لو لم يكونوا بلا خطيئة فليسوا مؤمنين إطلاقًا. سيكون تفسير مثل هذا لرسائل بولس مُخطئًا بالتأكيد؛ إنه يتعارض بالتحديد مع العناية المُحبّة التي حثّ وشجّع بها الرسول بولس أعضاء رعيته الذين وقعوا في الخطأ. بصفته راعيًا للنفوس، أدرك بولس وجود الخطيئة في أولئك الذين كانوا في بيت الإيمان؛ ولم يتعامل مع وجودها بحدة فقط بل بصبر ومحبة أيضًا. مع ذلك، تُعتبر الحقيقة مهمة بشكل عميق لدرجة أنه في المقاطع العقائدية العظيمة في الرسائل، يُشير بولس قليلًا جدًا (رغم أن تلك الإشارة لا تغيب تمامًا) إلى وجود الخطيئة في حياة المؤمنين. كيف ينبغي تفسير تلك الحقيقة؟ أعتقد أنه ينبغي تفسيرها بالإشارة إلى اقتناع الرسول بولس العميق بأنه رغم وجود الخطيئة واقعيًا في المؤمنين إلا أنها لا تنتمي هناك؛ لا ينبغي الرضوخ لها للحظة واحدة أبدًا، بل يجب مُعاملتها على أنها انحراف رهيب والذي ببساطة لا ينبغي أن يحدث.

لذلك وفقًا لبولس، يتبع بداية الحياة الجديدة معركة – معركة ضد الخطيئة. في تلك المعركة، على عكس المسألة مع بدايتها، يتعاون المؤمن مع الله؛ يُساعد روح الله الإنسان، لكنه نفسه يكون فعالًا في الحرب، لا روح الله الذي بداخله فقط.

في بداية الحياة المسيحية، يوجد عمل يقوم به الله وحده. يُدعى في العهد الجديد الولادة الجديدة أو (كما يدعوه بولس) الخليقة الجديدة. لا يشترك الإنسان الذي يولد مُجددًا في ذلك العمل بأي جزء. ولا عجب! لأن رجلًا ميتًا – سواء كان ميتًا جسديًا أو "ميتًا بالذنوب والخطايا" – لا يستطيع القيام بأي شيء مهما كان، على الأقل في الدائرة التي هو ميت فيها. إذا استطاع القيام بأي شيء في تلك الدائرة فلن يكون ميتًا. إن رجلًا مثل هذا، وهو ميت بالذنوب والخطايا، يُقام إلى حياة جديدة في الولادة الجديدة أو الخليقة الجديدة. لا يُقدر أن يُسهم إلى تلك الولادة الجديدة إطلاقًا، تمامًا مثلما لم يُسهم إلى ولادته الجسدية. لكن الولادة يتبعها حياة؛ ومع أن الإنسان لا يكون فاعلًا نشيطًا في ولادته إلا أنه فاعل نشيط في الحياة التي بعد الولادة. هكذا هو الأمر في العالم الروحي. لم نُسهم إلى ولادتنا الجديدة إطلاقًا؛ ذلك كان عملاً قام به الله وحده.

لكن تلك الولادة الجديدة يتبعها حياة جديدة، وفي الحياة الجديدة، أعطانا الذي وَلَدَنَا من جديد القُدرة على العمل؛ إنها القوة التي اشتركت في الولادة. لذلك، تَبْدَأُ الحياة المسيحية بعمل يقوم به الله وحده؛ لكنها تُستكمل في تعاون بين الله والإنسان. إن إمكانية حدوث ذلك التعاون ترجع بالتأكيد إلى الله وحده؛ لم تتحقق بأقل قد بواسطتنا؛ إنها الأعجوبة الأعظم لنعمة الله. لكن ما أن يَمْنَحها الله، لا تَنْزَعُ أبدًا.

لذلك، لا تُعتبر الحياة المسيحية في هذا العالم غير نشيطة بل نشيطة؛ إنها تتطوي على معركة كبيرة ضد الخطيئة. إن تلك المعركة هي معركة رابحة، لأن الإنسان الذي يخوضها تم إحياءه في المقام الأول بواسطة الله، ولأن لديه رفيق عظيم يُساعده عند كل مُنعطف في الصراع. لكن، رُغم أنها معركة رابحة، تبقى في النهاية معركة؛ وليست معركة الله فقط بل معركتنا أيضًا. إن الإيمان الذي كُنَّا نَتحدّث عنه ليس عملاً لشيء ما بل قبولاً لشيء ما؛ لكن تتبعه دائماً حياة فيها تُعمل أشياء عظيمة.

يُقدِّم الرسول بولس هذا الجانب من الإيمان بطريقة كلاسيكية في عبارة مُدهشة في رسالة غلاطية. يقول بولس: "لَا الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئًا وَلَا الْغُرْلَةُ، بَلِ الْإِيمَانُ الْعَامِلُ بِالْمَحَبَّةِ". في تلك العبارة، "الْإِيمَانُ الْعَامِلُ بِالْمَحَبَّةِ"، أو حَرْفِيًّا، "الإيمان العامل من خلال المحبة"، تُضَعَطُ خبرة هائلة في نطاق خمس كلمات.

بالطبع، يُعد ذلك النص نصًا لعصر عملي؛ قد يُصبح العالم مُهتَمًّا من جديد بالإيمان إذا رأى أن الإيمان هو أمرٌ يَنْجَحُ في مُهمته. وبالتأكيد، لا يستطيع عصرنا العملي أن يتحمّل رفض المُساعدة أينما وُجدت؛ لأن الحقيقة هي أن هذا العصر العملي يبدو أنه يفشل حاليًا بوضوح في تحقيق النتائج حتى بمبادئه هو؛ يبدو أنه يفشل حاليًا بوضوح في أن "يجعل الأمور تسير".

من الغريب أن الفشل الحالي للعالم في أن يجعل الأمور تسير، يرجع فقط إلى التركيز على الكفاءة التي قد تبدو أنها تجعل الفشل مُستحيلًا؛ إنه التناقض الظاهري المُرتبط بالكفاءة التي يُمكن تحقيقها فقط بواسطة أولئك الذين لا يجعلونها الموضوع الصريح لرغبتهم. نعتقد أن التركيز الأحادي المُعاصر على الأمر العملي أعاق تقدّم البشريّة على الأقل بطريقتين.

لقد تمّ التعامل بالفعل مع الطريقة الأولى فيما سبق. لاحظنا أن البشر يتحمسون جدًا بخصوص العمل، لدرجة أنهم تجاهلوا الاختيار الصحيح للوسيلة التي ستُحقّقه؛ يعتقدون أنهم يستطيعون الاستفادة من الدين، كوسيلة لهدف ما، دون حل السؤال عن الحقيقة في أي دين مُحدد؛ يعتقدون أنهم يستطيعون الاستفادة من الإيمان باعتباره ظاهرة سيكولوجية مُفيدة دون تحديد ما إذا كان الأمر الذي آمنوا به صحيحًا أم زائفًا. إن المجهود كله، كما لاحظنا، عديم الفائدة؛ إن ذلك الاستخدام البرّجماتي للإيمان يُدمّر فعلاً الأمر الذي يُستخدم فيه. لذلك، إذا كان ينبغي استكمال العمل، لا نستطيع بهذه الطريقة البرّجماتيّة أن نتجنّب السؤال عن الوسيلة، بل يجب أولاً أن نواجه ذلك السؤال ونحلّه.

ثانيًا، يتحمس البشر جدًا اليوم بخصوص العمل، لدرجة أنهم لا يُبالون أحيانًا بالسؤال عما سيكون نوع العمل بالتحديد. كثيرًا ما يتم تقدير الإنسان الكُفُو والنشيط من قِبَل العالم أجمع، ومن قِبَل نفسه تحديدًا، بغض النظر تمامًا عن طبيعة إنجازاته. كثيرًا ما يبدو أنه لا يوجد فرق كبير فيما إذا كان الإنسان يَتَشَغَل بتراكم الثروة الماديّة أو بالسعي وراء القوة السياسيّة أو بإدارة المدارس والمُستشفيات والجمعيات الخيريّة. سواء كان يَشْتَرِك في السرقة أو في الإرساليات، من المؤكد أنه سينال التقدير، فقط بشرط أن يَنجح، فقط بشرط أن يكون "إنسانًا يقوم بأشياء ما". لكن مهما كانت تلك المُكافأة على العمل لأجل العمل في حد ذاته أمرًا مُحَقَّرًا للفرد، من الواضح أنها لا تُوَدِّي إلى أي تَقَدُّم كبير للبشريّة ككل. إن كان عملي سيتعارض مع عمل الآخر، قد نتمتع كلانا باستراحة جيدة، قديمة الطراز، ومُريحة، بِقَدْر ما يَتَعَلَّق الأمر بأي تَقَدُّم عام. إن مجهوداتنا تلغي بعضها البعض. نتيجةً لذلك، بالرغم من عَرْض قَدْر كبير من الطاقة أو المجهود في العالم اليوم، لا يستطيع الإنسان إلا أن يشعر بأن جزء كبير منها يُهدَر. إن الحقيقة هي أنه إذا كُنَّا عمليين بحق، يَجِب أن نكون مُنْظَرَيْن أولًا. يَجِب أولًا أن نَسْتَقِر على اختيار أحد المهام العظيمة وعلى قوةٍ عظيمة لأجل تنفيذها.

إن النص الذي كتبه بولس يُقدِّم اقتراحات بخصوص الاتجاهين. يقترح مُهمّة ما وقوة ما لتنفيذها. "الإيمانُ الْعَامِلُ بِالْمَحَبَّةِ" – المحبة هي العمل، والإيمان هو الوسيلة.

أولًا، ينبغي ملاحظة أن هذا الْعَمَل وهذه الوسيلة مُتاحة للجميع. لَأَنَّهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لَا الْخِثَانُ يَنْفَعُ شَيْئًا وَلَا الْغُرْلَةُ؛ لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلَا يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلَا حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى؛ لا يوجد شيء مطلوب سوى ما يشترك فيه كل البشر. إذا أعجبنا بالعمل لا نقدر أن نقول إنه أبعد من مُتناولنا.

إن العمل هو المحبة، ويشرح بولس ماهيّة ذلك في القسم الأخير من نفس الرسالة. إنها ليست مُجرد عاطفة، إنها ليست حتى مُجرد رغبة لفعل الخير؛ إنها أمرٌ عملي. نقول أحيانًا عن إنسانٍ عديم المبادئ وفاسق: "إنه إنسانٌ ضعيف، لكن لديه قلب صالح." إن ذلك الصلاح القلبي المُجرد ليس هو المحبة المسيحيّة. لا تَنطوي المحبة المسيحيّة على مُجرد الرغبة في خير الآخرين، أو حتى مُجرد الاستعداد لتقديم المُساعدة، بل تَنطوي على القوة أيضًا. لكي يُحِب الإنسان بالمعني المسيحي، لا يجب عليه أن يكون مُحسنًا فقط، بل أن يكون قويًا وصالحًا أيضًا؛ يَجِب أن يُحِب الآخرين بما يكفي لأن يُعَزِّز من قوته، لكي يستخدمها لأجل منفعتهم.

تختلف تلك المُهمّة عن الكثير من الأعمال التي تُعْمَل في العالم واقعيًا. أولًا، تُعد عملاً روحيًا لا ماديًا. إن عدد الأشخاص الذين تمتصهم غالبًا أشياء ماديّة تمامًا هو أمرٌ مُدهش حقًا. يبدو أن الكثير من الأشخاص ليس لديهم مفهوم للعمل أعلى من مفهوم إزالة الوحل: يُعتقد أن الدولة الأعظم هي الأمة التي

لديها الدخل الأكبر والسُّفن الحربيّة الأكبر؛ وحتى الجامعة الأعظم يُعتقد أنها الجامعة التي لديها أفضل المعامل. لا تحتاج هذه الماديّة العمليّة لأن تكون أنانيّة بالكامل؛ يُمكن للإنسان أن يرغب في إنتاج البضائع لأجل الآخرين ولأجل ذاته أيضًا. يُمكن أخذ الاشتراكيّة كمثال. إنها ليست أنانيّة بالكامل. لكنها -على الأقل في أشكالها الأكثر اتساقًا- تُخطئ في افتراض أن التوزيع العادل للثروة الماديّة سيكون حلًا لكل المشكلات. بالطبع، لم تكن هذه العادة في التفكير غائبة تمامًا عن الكنيسة نفسها. أينما تمّ الاعتزاز بفكرة أن تخفيف المُعاناة الجسديّة أمرٌ أكثر أهميّة -وأكثر عمليّة- بشكل ما من خير الروح الإنسانيّة، فإن الأشياء الماديّة يُنظر إليها باعتبارها الهدف الأساسي للسعي. وذلك ليس المحبة المسيحيّة. بالتأكيد، لا تتجاهل المحبة المسيحيّة الفائدة الجسديّة للإنسان؛ لا تُقدّم للإنسان عِظَةً عندما يحتاجُ خُبْرًا. إنها تُخفف المُحنة؛ إنها تفرح بتقديم حتى أبسط المباهج لطفلٍ. لكنها تقوم دائمًا بهذه الأشياء في إدراكٍ للعطيّة التي لا تُقدّر بثمن والتي ينالها المسيحي في المُقابل.

ثانيًا، لا تُعتبر المحبة المسيحيّة فكريّة أو عاطفيّة فقط، بل تُعتبر أخلاقيّة أيضًا. لا تتطوي على ما هو أقل من حفظ كل الناموس الأخلاقي. "لأنّ كُلَّ النَّامُوسِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يُكْمَلُ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ". قد تُقدّم المسيحيّة نظرةً كونيّةً مُرضيّةً، قد تُعطي للبشر تعزيّةً وسعادةً، قد تنزع المخاوف من الموت، قد تُنتج تمجيدًا للعواطف الدينيّة؛ لكنها ليست مسيحيّة إن لم تجعل البشر يتحسنون. علاوة على ذلك، المحبة هي نوع مُميز من حفظ الناموس الأخلاقي. إنها ليست أداءً مُجرّدًا لمجموعة من الأفعال الخارجيّة. يُمكن أن يكون ذلك رياءً أو نفعيّة. وليست تكريسًا مُجرّدًا للواجب من أجل الواجب. إن ذلك أمرٌ مُثير للإعجاب ويستحق المدح، لكنه مرحلة طفوليّة للأخلاق. لم يُعدّ المؤمن بعد تحت إشراف مُربٍّ؛ لا ينبغي تنفيذه للناموس من الطاعة لصوت الواجب الصارم بل من حافزٍ لا يُقاوم؛ يُحبّ المؤمن ناموس الرب؛ يفعل الصواب لأنه لا يستطيع عدم فعله.

ثالثًا، أعتقد أن المحبة تتضمّن مفهومًا مُميزًا لمحتوى الناموس. إنها تُعتبر الأخلاقيات في الأساس على أنها عدم أنانيّة. وكما يُعتبر جزءًا كبيرًا من ثقافة العالم، بكل عظمتها وبريقها، أنانيّا حتى النُخاع! يستغل العباقرة البُسطاء؛ مات المسيح لأجلهم: ويجب أن يتبع تلاميذه خطوات سيدهم.

رابعًا، لا تُعتبر المحبة المسيحيّة مُجرد محبة للبشر؛ إنها أيضًا، وحتى بشكل أساسي، محبةٌ لله. لقد لاحظنا أن المحبة لله ليست الوسيلة التي نخلّص بها: لا يقول العهد الجديد: "محبّتك خلّصتك"، بل "إيمانك قد خلّصك، إذ هبّي بِسَلَامٍ"؛ لا يقول: "أحبّ الرب يسوع المسيح فتخلّص"، بل: "آمنِ بِالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَتَخْلُصَ". لكن ذلك لا يعني أن العهد الجديد يَنْتَقِص من قَدْرِ المحبة؛ إن ذلك لا يعني أنه إذا أحبّ إنسانٌ بالفعل، وأحبّ دائمًا، الله الأب والرب يسوع المسيح والبشر الآخرين، كما ينبغي أن يُحبهم، لن يكون إنسانًا مُخلّصًا؛ إنه فقط يعني أنه بسبب الخطيّة، لم يفعل ذلك أي إنسانٍ غير مُجدّد من قَبْلِ في الواقع. وفقًا

للعهد الجديد، المحبة ليست الوسيلة للخلاص، لكنها أفضل ثماره؛ يخلص الإنسان بالإيمان، لا بالمحبة؛ لكنه يخلص بالإيمان لكي يحب.

هذا هو العمل إذن. كيف يمكن أن يتحقق؟ يقول الإنسان "العملي": "ببساطة عن طريق تنفيذه؛" "لا حاجة لأي استناد إلا على الإرادة القويّة؛ في أي مرة يرغب الإنسان في التوقّف عن طرقه الشريرة والبدء في خدمة الله والآخرين، يكون الطريق مفتوحًا تمامًا أمامه لفعل ذلك." لكن هذا هو الأمر الملفت للنظر: يُعتبر الطريق مفتوحًا تمامًا، ومعه ذلك لا يسلكه الإنسان أبدًا؛ يستطيع دائمًا، لكنه لا يفعل ذلك أبدًا. يشعر البعض منا بالضرورة المنطقية للبحث عن سبب مشترك لذلك التأثير المتماثل. والسبب المشترك الذي نجده هو الخطيئة.

بالطبع، إذا لم يكن هناك شيء اسمه خطيئة، فلن يوجد شيء مطلوب للتغلب عليها، ولا يوجد شيء يقف في طريق المحبة المسيحية. كما لاحظنا، فإن العالم المعاصر عامةً ينكر وجود الخطيئة. ينكر وجودها على الأقل بطريقتين. أولاً، يقول الناس أحياناً أنه في الواقع لا توجد خطيئة، بل خللٌ فقط؛ ما ندعوه "خطيئة" هو مجرد شكل من أشكال الخلل. إن كان ذلك صحيحاً، فمن الممكن المجادلة بأن الإرادة الإنسانية كافية لمهام الإنسان. يُقال إننا حققنا بوضوح بعض التقدم على الأقل؛ لقد تقدّمنا إلى ما هو أبعد من "العصر الحجري"؛ ومن المؤكد أن استمراراً لنفس المجهودات سيأخذنا في طريقنا إلى ما هو؛ وبالنسبة للكمال – فيستحيل علينا الوصول إليه بحسب طبيعة الأشياء مثلما هو الأمر مع اللانهاية. ثانياً، يُقال إنه لا توجد خطيئة بل خطايا. من المُعترف به أن الشر الأخلاقي يختلف في النوع عن الخلل، لكن يُعتقد أنه لا يمتلك أي وحدة؛ يُعتقد أن اختيار كل فردٍ يُعتبر اختياراً مستقلاً عن اختيار أي شخص آخر؛ يُعتقد أن الإنسان حرٌّ في كل مرة يختار فيها بين الخير والشر؛ يُقال إنه لا أحد يستطيع مساعدته، ولا يحتاج أحد إلى أن يُساعده.

يتعارض منظور بولس للخطيئة مع كلا هذين المنظورين. وفقاً لبولس، تُعتبر الخطيئة في المقام الأول ذنباً مُميّناً، وفي المقام الثاني، لا تكمن فقط في الأفعال الفردية. إنها قوة جبّارة، والإنسان عاجزٌ أمامها. "فَالآن لَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُ ذَلِكَ أَنَا، بَلِ الْخَطِيئَةُ السَّائِكَةُ فِيَّ." يُمكن الاعتراض هكذا: "لكن ما أخطر هذا النوع من التعبير! إذا لم أكن بعد أنا من يفعل ذلك، فإن مسؤوليتي اختفت؛ كيف يُمكنني أن أظل شاعراً بالذنب؟ إن كنتُ سأكون مُذنباً، فيجب إذن أن تكون الخطيئة ببساطة صفةً لأفعالي الواعية فقط." مع ذلك، تَعكس الخبرة تلك الحُجة الاستدلالية بشكل مُثير للفضول؛ يُعلّم التاريخ بأن البشر الذين شعروا واقعياً بذنب الخطيئة بشكل أعمق كانوا هم الأشخاص الذين نظروا إليها باعتبارها قوة كبيرة تكمن وراء الأفعال الفردية. ويكشف الفحص العميق السبب. إذا كان كل فعلٍ قائمٌ بمفرده، فإن أي اختيار خاطئ عند أي وقت مُحدد، سيكون أمراً تافهاً نسبياً؛ يُمكن تصحيحه بسهولة في المرة القادمة. يصعب أن تُنتج تلك الفلسفة أي رُعب أو خوف كبير من

الخطيئة. لكن إذا نُظر إلى الخطيئة باعتبارها قوة موحدة، مُعارضة للخير بدون مُصالحة ممكنة، فإن الأفعال الخاطئة، التي تبدو تافهة في حد ذاتها، تُظهر أننا واقعين تحت سُلطة تلك القوة؛ لا يُمكن النظر بعد الآن إلى الفعل الخاطئ الواحد في حد ذاته، بل ينطوي الفعل الخاطئ على رضوخ لقوة شيطانية، وهو ما يقود حينها منطقياً، بشكل لا يُمكن مُقاومته إلى تدمير أي شعور صحيح، وكل تحركٍ بمحبة، وشفقة وتعاطف. عندما نصل إلى رؤية أن ما كان بولس يُسميه الجسد هو قوة جبّارة، والتي تجذبنا بشكل لا يُمكن مُقاومته إلى أسفل، إلى هاوية من الشر التي لا قاع لها، سنشعر حينها بذنبنا وشقاءنا، وسنتطلع حينها إلى شيءٍ لِيُساعدنا أقوى من إرادتنا الضعيفة.

وجدَ الرسول بولس تلك القوة في الإيمان؛ يقول إن الإيمان هو ما يُنتج حياة المحبة أو يُظهر نفسه فيها. لكن، ما الذي يعنيه بولس عندما يقول إن "الإيمان يعمل"؟ بالتأكيد، لا يعني ما يعنيه البرجماتي المُتشكك المُعاصر عندما يستخدم نفس الكلمات؛ بالتأكيد، لا يعني أن الإيمان فقط، باعتباره ظاهرةً سيكولوجيةً، ومُستقلةً عن كون موضوعه صحيحاً زائفاً، هو الذي يقوم بالعمل. يتضح ما يعنيه بالفعل تماماً في القسم الأخير من رسالة غلاطية نفسها، حيث يتم تقديم حياة المحبة بشيءٍ من التفصيل. في ذلك القسم لا يُقال أي شيء عن الإيمان؛ إن الإيمان ليس هو مَنْ يُقدّم بصفته مَنْ يُنتج حياة المحبة بل روح الله؛ يُوصف روح الله بأنه يقوم بالضبط بما يُنسب للإيمان في عبارة "الإيمانُ العاملُ بِالمَحَبَّة". يقودنا التناقض الظاهري إلى المفهوم الصحيح عن الإيمان. إن الإيمان الحقيقي، بالمعنى الدقيق للكلمة، لا يفعل أي شيء؛ لا يُعطي، بل يستقبل. لذلك، عندما يُقال إننا نفعل أمراً ما بالإيمان هو طريقة أخرى للقول بأننا لا نفعل أي شيء - على الأقل لا نفعل أي شيء من تلقاء أنفسنا. إنه من طبيعة الإيمان نفسها، بالمعنى الدقيق للكلمة، ألا يفعل أي شيء. لذلك، عندما يُقال إن الإيمان يعمل من خلال المحبة، فإن ذلك يعني أنه من خلال الإيمان، بدلاً من القيام بأمير ما لأنفسنا، نسمح لشخصٍ آخر أن يُساعدنا. إن تلك القوة هي قوة روح الله، والتي تدخل حياتنا في البداية من خلال الإيمان، قبل أن نتمكن من فعل أي شيء على الإطلاق لإرضاء الله، والتي نُقوينا حينها وتَدعّمنا في المعركة التي مَكُنّتنا من بدئها.

لذلك، وسط عالمٍ عملي، يُظهر المؤمن حياةً محبةً عمليةً - حياةً مشغولة بتقديم المُساعدة، وإطعام الجائع، وتقديم الشراب للعطشان، واستقبال الغرباء، وكساء العريان، وزيارة المرضى والمسجونين. ولا يتحقّق كل ذلك عن طريق مجهوداته الذاتية، ولا حتى عن طريق إيمانه الشخصي فقط، بل عن طريق الموضوع العظيم لإيمانه، أي الله كلي القدرة.

يأتي إذن الواعظ المسيحي أمام العالمِ بِبديلٍ عظيمٍ. هل نَسْتَمِر في الاعتماد على مجهوداتنا الذاتية، أم سنستقبل قوة الله بالإيمان؟ هل سنَرْضَى عن المواد التي يُقدِّمها هذا العالمُ، مُحاولين بتركيبات جديدة لا تنتهي أن نُقيم بناءً سيصمّد؛ أما سنَبني بالمواد التي بلا عيب؟ هل سنُعطي الناس دوافعاً جديدة، أم سنطلب

من الله أن يُعطيهم قوَّةً جديدة؟ هل سنُحيي من العالم، أم سنُصلي إلى الله طالبين أن يخلق عالمًا جديدًا؟ لقد تمت تجربة الخيارات الأولى ووُجد أنها ناقصة: لا يستطيع أفضل المعمارين بناء مَبْنَى يدوم إذا كانت جميع المواد المُستخدمة معيبة؛ تُصبح الدوافع الجيدة بلا قوة عندما يكون القلب شريرًا. مهما حاولنا، فسنبقى جزءًا من هذا العالم الشرير إلى أن نصرخ بالإيمان قائلين: لَا بِالْقُدْرَةِ وَلَا بِالْقُوَّةِ، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ.

الفصل الثامن

الإيمان والرجاء

في الفصل السابق، تم توضيح أن الحياة المسيحية هي حياة محبة، وأنها تنتج بقوة روح الله الذي يقبل من خلال الإيمان بالمسيح. هذا هو العمل المسيحي، وهذه هي القوة التي تحقّقه. لكن، ما الهدف، وما هي الغاية التي يعمل العمل لأجلها؟

إن وجود هدف وراء ذلك هو ما يقترحه حتى طابع الوسيلة التي نحقق بها حتى هذه المهمة الحالية. كما أن سلطة الخطيئة لا تقف الأفعال الشريرة التي نعمل هنا والآن، هكذا أيضًا قوة الروح القدس لا تقف عند ثمره الحالي. مثلما يبدو أن الخطيئة تتطوي على مظهر مخيف معين للدينونة، هكذا يبدو أن قوة الروح القدس تمتد لما هو أبعد مما يحققه الآن. يوجد بداخل المؤمن قوة عجيبة للصلاح، والتي تقوده في طرق لا يعرفها إلى مكان مبارك وغير معروف. إن الإنسان "العملي" في هذا العالم لا يرى إلا القليل من الحياة الحقيقية للمؤمن. لا يرى إلا الإظهار الخارجي المجرد للقوة غير المحدودة بداخله. إنه ليس دليلًا على أن الحقيقة المطلقة للمسيحية جعلت العالم أفضل؛ لأنها ربما تشترك في هذا الإنجاز مع أديان أخرى، رغم أن تلك الأديان قامت بذلك الإنجاز بدرجة أقل بكثير. تجعل الأديان الأخرى البشر أفضل: لكن المسيحية وحدها تجعلهم صالحين؛ لأن المسيحية وحدها تستطيع أن تظهر حياة إنسانية صالحة بشكل مطلق، ومعها الوعد بأن حياة الآخرين ستشابهها يومًا ما. يوجد لدى المسيحي وحده اتصال حيوي وقريب فعلاً مع الصلاح المطلق - مع صلاح يحتوي في طبيعته ووجوده الوعد بأن كل أثر باقٍ للشر سيُمحى في النهاية.

لذلك، تبدو محبة المؤمن للآخرين، والتي يُقدِّرها العالم بشدة، بالنسبة للمؤمن نفسه مُنتجًا ثانويًا بشكل ما؛ ليست إلا تأثيرًا لمحبة الله العظمى، وليست إلا خطوة واحدة في اكتشافها. إن علاقة المؤمن بتلك القوة التي تسنده وتُرشده ليست علاقة أداة جامدة بيد العامل، بل علاقة إنسانٍ حُرٍ بأبيه المُحب. نشعر بأن العمل عملنا بشكل كبير لأنه أيضًا عمل الله. لا يرى العالم علاقة المحبة الشخصية تلك بين المؤمن وإلهه، لكنها بالنسبة للمؤمن، تحتوي وحدها على الوعد بالصلاح النهائي.

يعيش المسيحي إذن حياة المحبة العملية في طريقه نحو أمرٍ أعظم؛ يعيش المؤمن على رجاءٍ ما. يُلام ذلك الأمر أحيانًا. يُقال إن المؤمن يصنع ما هو صحيح بسبب مكافآت السماء. كم هو إنسانٌ أنبل، والذي يصنع ما هو صحيح ببساطة لأنه صحيح، أو لأنه سيؤدي إلى سعادة أجيال لم تولد بعد، حتى بالرغم من أنه يؤمن أن القبر سينتهي كل شيء! ربما يُمكن تبرير اللوم إذا كانت السماء تتطوي فقط على تمتعٍ أناني.

لكن في الواقع، لا تتطوي السماء فقط على التمتع، أو السعادة، بل على الصلاح أيضًا، ويصل الإنسان إلى الصلاح في الشركة مع الشخص الذي وحده صالح. إن النظر إلى تلك الشركة على أنها مُنقطعة للأبد عند الموت، لا يؤدي في الممارسة العملية، مثلما قد يبدو للوهلة الأولى وكما لو أنها ستقود طبيعيًا، إلى مستوى من الخدمة غير الأنانية التي فيها سيعيش الإنسان من أجل الجنس البشري، بدون التفكير في النجاة الفردية. لأن البشرية تستحق خدمة الإنسان والذي تُشبه حياته بشكل أساسي حياة الحيوانات، لا إذا كانت البشرية تتشكّل من مجرد كائنات تعيش حياة مؤقتة، بل فقط إذا كانت تتشكّل من أشخاص لهم نفوس خالدة. إن منظورًا مُتدنيًا للحياة البشرية فيها تُحرّم من أهميتها الأبدية لا يؤدي على المدى البعيد إلى خدمة غير أنانية، بل يؤدي إلى انحطاط ويأس. بأي حال من الأحوال، ورغم ما يُقال اليوم، يقع رجاء السماء في مركز المسيحية. إن ذلك الرجاء ليس أنانيًا، لكنه ربما يُعد أسمى وأنبّل فكرة فهِمها عقل الإنسان؛ إنها أسمى وأنبّل فكرة لأن السماء لا تتطوي على مجرد تمتع أناني بل على مجد الله. فيما يتعلّق بمجد الله، والذي ستُدركه المخلوقات التي خلقها، لن تكون الأبدية طويلة جدًا. إن غاية الإنسان العظمى ليست مجرد تمجيد الله، والتمتع به، بل هي "تمجيد الله، والتمتع به إلى الأبد."

توجد تلك الفكرة عن السماء في كل أنحاء العهد الجديد؛ وهي بارزة بالتحديد في تعاليم يسوع. علاوة على ذلك، لا تُعتبر هامة في ذاتها فقط، بل لها أيضًا تأثير هام جدًا على موضوع هذا الكتاب الصغير. يرتبط الإيمان ارتباطًا وثيقًا بالرجاء في العهد الجديد؛ ويُقارَن في مقاطع مُهمة مع العيان. في مقارنة مع العيان، يُقدّم الإيمان باعتباره طريقة نستطيع أن نعرف بها الأشياء التي ستكون لنا في العالم المستقبلي. لذلك، إذا كان ينبغي علينا أن نفهم بأي طريقة مناسبة ما يقوله العهد الجديد عن الإيمان، فيجب أن ننتبه بحرص إلى ما يقوله العهد الجديد عن السماء.

لكننا لا نستطيع أن نفهم كل ما يقوله العهد الجديد عن السماء، إلا إذا انتبهنا أيضًا إلى ما يقوله العهد الجديد عن الجحيم؛ يظهر كلّ من السماء والجحيم في تباين في العهد الجديد. يظهر ذلك التباين في أوضح صوره على الإطلاق في تعاليم يسوع، رغم أن ذلك يبدو غريبًا للبعض. لم يتحدّث يسوع فقط عن السماء، بل أيضًا عن الجحيم في صراحة كبيرة. قال ربنا (لكي نقتبس قولاً نموذجياً): "وَلَا تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلَكِنَّ النَّفْسَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كُلِّيهِمَا فِي جَهَنَّمَ."

لم ينطق جوناثان إدواردز بتلك الكلمات؛ لم ينطق بها كوتون ماثر؛ لم ينطق بها كالفن، أو أوغسطينوس، أو بولس. بل نطق بها يسوع.

وعندما تُوضع بجانب الكثير من الكلمات المُشابهة لها في الأناجيل، تُظهر الزيف المُطلق لصورة يسوع التي تم رسمها في الأعوام الأخيرة. وفقاً لتلك الصورة، وعظَّ يسوع ما يُعتبر جوهرياً دينياً لهذا العالم؛ لقد أُيدَ توجه بنوي نحو الله، وروَّج لحياة بها وفرة أكبر للإنسان، دون الاهتمام بالتفاصيل الشعبية مثل التفاصيل المُرتبطة بما يحدث بعد القبر؛ بكلمات الأستاذ إلود: "لم يشغل يسوع نفسه كثيراً بالسؤال عن الوجود بعد الموت."

لكي تتحطَّم هذه الصورة، لا يلزم سوى النظر إلى تناغم الأناجيل ومُلاحظة المقاطع التي يتحدَّث فيها يسوع عن البركات والويلات في الحياة المستقبلية. إذا فعلت ذلك، فقد تتفاجأ من النتيجة؛ بالتأكيد ستتفاجأ من النتيجة إن تأثرت من قبل بأقل مقدار بسوء التمثيل الذي يتعرَّض له يسوع ويُسيطر على الأدب الديني في عصرنا. ستكتشف أنه لا توجد فقط فكرة السماء في كل أنحاء تعاليم يسوع، بل كذلك فكرة الجحيم.

إنها توجد في أكثر أمثال يسوع تميزاً – الأمثال الرسمية مثل: لعازر والغني، ووكيل مال الظلم، والأمناء، والوزنات، والحنطة والزوان، والعبد الشرير، وعُرس ابن الملك، والعشر عذارى. إنها فكرة بارزة في باقي تعاليم يسوع. يُعتبر مشهد الدينونة في الأصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متى مجرد الذروة لما يوجد في كل مكان في الأناجيل: "فَيَمُضِي هَؤُلَاءِ إِلَى عَذَابٍ أَبَدِيٍّ وَالْآخَرُونَ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ". لا يوجد شيء غريب إطلاقاً في هذا المقطع في وسط أقوال يسوع. إن كان هناك مُعلم ديني لا يُمكن الاستناد إليه لدعم ديانة هذا العالم، إن كان هناك مُعلم رأى إلى العالم من منظور الأبدية، فهو يسوع الناصري.

توجد تلك المقاطع ومجموعة كبيرة من المقاطع الأخرى التي تُشبهها في كل مكان في الأناجيل. على حد علمي، لم تُحاول حتى أكثر الانتقادات تطرفاً إزالة ذلك الجانب من تعاليم يسوع. لكن ليس مجرد مقدار تعاليم يسوع عن الحياة المستقبلية هو ما يُعتبر مُبهراً؛ ما يُعتبر مُبهراً حتى بشكل أكبر هو طبيعة تلك التعاليم. لا تظهر كزائدة للأناجيل، كشيء يُمكن إزالته وتُترك باقي التعاليم غير مُتأثرة. إذا أُزيل هذا الجانب، ما الذي سيبقى؟ بالتأكيد، لن يتبقى الإنجيل نفسه، لن تتبقى بالتأكيد الأخبار السارة بخصوص عمل يسوع الخلاصي؛ لأن ذلك يتعلَّق بتلك القضايا السامية عن الحياة الأبدية والموت الأبدى. لكن لن تتبقى حتى تعاليم يسوع الأخلاقية. لا يُمكن أن يوجد خطأ أكبر من افتراض أن يسوع فصلَ تعاليمه اللاهوتية عن الأخلاق، أو أنه إذا أزلت تعاليمه اللاهوتية فما آمن به عن الله والدينونة، وعن الويلات المستقبلية للشرير والبركات المستقبلية للبار – يُمكنك حينها أن تترك تعاليمه الأخلاقية غير مُتأثرة. على العكس، توجد الجدية الهائلة لتعاليم يسوع الأخلاقية في قلب الفكرة الثابتة عن عرش دينونة الله. "وَأَنْ أَعِزَّنَاكَ عَيْنُكَ فَأَقْلَعَهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ عَيْنَانِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ النَّارِ". إن تلك الكلمات تُميِّز كل تعاليم يسوع؛ ترتبط الجدية الهائلة لوصاياه بشكل حميم بالتبديلين الأبديين للسعادة أو العذاب.

استخدم يسوع هذين البديلين لإثارة الخوف لدى الناس: "وَلَا تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلَكِنَّ النَّفْسَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا، بَلْ خَافُوا بِالْخَرِي مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ." يُسَجَّل لوقا قولاً مماثلاً ليسوع: "وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ يَا أَحِبَّائِي: لَا تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ لَيْسَ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ أَكْثَرَ. بَلْ أُرِيكُمْ مِمَّنْ تَخَافُونَ: خَافُوا مِنَ الَّذِي بَعْدَ مَا يَقْتُلُ، لَهُ سُلْطَانٌ أَنْ يُلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ. نَعَمْ، أَقُولُ لَكُمْ: مِنْ هَذَا خَافُوا." يوجد هؤلاء الذين يُخبروننا بأنه يجب إبعاد الخوف من الدين تماماً؛ يُقال إنه يجب ألا نُقَدِّم الخوف من الجحيم أمام الناس بعد الآن؛ يُقال إن الخوف أمرٌ حقير. ليس لدى الذين يتحدَّثون بتلك الطريقة أي حق في الاستناد إلى يسوع؛ لأن يسوع بالتأكيد وظَّفَ، وبإصرار، دافع الخوف. إذا تَجَنَّبَ في المسيحية ذلك الدافع بالكامل، فأنت في تعارضٍ صارخ مع يسوع. هنا، ومثل الكثير من النقاط، يجب الاختيار بين يسوع الحقيقي والكثير من الأمور التي تَحْمِلُ اسمه اليوم. لكن أيهما على حق؟ هل يسوع على حق، أم أولئك الأشخاص الذين يُخْرِجون من عقولهم الخوف من الجحيم؟ هل الخوف أمرٌ حقير بالكامل؛ هل كَوْنُ الإنسان خائفاً بالضرورة يُهينُه؟

أعتقد أنه يَعْتَمِدُ بالكامل على الأمر الذي يَخَافُ منه الإنسان. إن كلمات النص الذي كنا نَنْظُرُ إليه، مع العَرس الرسمي للخوف، تُعْتَبَرُ أيضاً إدانةً رثانةً للخوف؛ تُؤَاوَنُ عبارة "مِنْ هَذَا خَافُوا" مع عبارة "لَا تَخَافُوا". تُقَدِّمُ مَخَافَةُ اللَّهِ باعتبارها طريقةً للتغلب على الخوف من البشر. ولقد قَدِّمَتْ القرون البطولية للتاريخ المسيحي شهادةً وافرةً لفاعلية تلك الطريقة. في ظل وجود مَخَافَةِ اللَّهِ أمام أعينهم، وقف أبطال الإيمان بشجاعةٍ أمام ملوكٍ وحُكَّامٍ وقالوا: "هذا هو موقفي، لا أستطيع أن أُغَيِّرَه، لِيُسَاعِدَنِي اللَّهُ! آمين." إنه بالتأكيد أمرٌ حقير أن يكون الإنسان خائفاً من القيود والموت على أيدي البشر؛ إنه بالتأكيد أمرٌ حقير أن يَخَافَ الإنسان من أولئك الذين يستخدمون القوة لقمع الحق. لقد تَغَلَّبَ رجالُ الإيمان الحقيقيين دائماً على ذلك الخوف.

بالتأكيد، حتى مخافة الله قد تكون مُهَيِّنَةً للإنسان. يَعْتَمِدُ الأمر كله على كيف تَنْظُرُ إلى طبيعة الله. إن كنت تعتقد أن الله شخصٌ مثلك بالكامل، فإن خوفك منه سيكون أمراً مُهَيِّئاً. إن كنت تعتقد أنه طاغيةٌ مُتَقَلِّبٌ وحاقد على كل المخلوقات التي خلقها، فلن ترتفع أبداً فوق مخاوف كاليبان (Caliban) المُهَيِّنَةِ. لكن الأمر يختلف تماماً، عندما تَقِفُ في مُحَضَرِ النظام الأخلاقي في الكون؛ يختلف الأمر تماماً، عندما يأتي الله ماشياً في الجنة بينما أنت بلا عُذْرٍ؛ يختلف الأمر تماماً، عندما تُفَكِّرُ في ذلك اليوم المُرْعِبِ عندما تَسْقُطُ خِدْعُكَ التافهة وتَقِفُ بلا دفاع أمام عرش الدينونة العادلة. يختلف الأمر تماماً، عندما تُحَاكِمُ خطاياك أنت لا خطايا الآخرين. أَيْمَكُنَّا حَقًّا أن نأتي أمام عرش دينونة الله ونَقِفُ بلا خوف على أساس ما نستحق؟ أو هل سَيُمْكِنُنَا حَقًّا أن نُكْرِرَ كلمات هينلي (Henley) المشهورة:

خارجاً من الليل الذي يغطيني

أَسود كحفرة من القطب إلى القطب

أشكر الآلهة أيًا كانت

على نفسي التي لا تفهر

أو هذه:

لا يهمني أن الباب ضيق

لا يقلقني أن لفافة الأحكام زاخرة بالعقاب

أنا سيد قدري

أنا ربّانُ روحي

هل هذه هي طريقة التغلب على الخوف؟ بالتأكيد لا. يُمكننا أن نُكرّر مثل تلك الكلمات فقط في جُبنٍ مُقنّع لتجاهل الحقائق.

في الواقع، ليس صحيحًا أن نفوسنا لا تُفهر؛ لسنا أسياد أقدارنا أو ربّانة أرواحنا. كثيرًا ما فُكّر أحدهم في عملٍ قدر في البداية بخوفٍ وقال: "هل أنا كلبٌ لأفعل مثل هذا الأمر؟" وبعد ذلك جاء الانحدار السهل إلى الحفرة، والانحلال التدريجي للنسيج الأخلاقي، بحيث أن ما بدا فظيعةً بالأمس يبدو اليوم مُبرّرًا؛ حتى يستفيق أخيرًا، في ساعةٍ حزينة، مع ذكرى لفضاعة أو رُعب الخطيئة عالقة في ذهنه، يستفيق إلى الإدراك بأنه كان يَتمرّغ فعلاً في الوحل. هذا هو التصلّب المُخيف الذي يَنبُج عن الخطيئة. حتى في هذه الحياة، نحن لسنا أسياد أقدارنا؛ إننا بالتأكيد في ذواتنا لسنا ربّانة أجسادنا، وأخاف من أننا في ذواتنا لسنا حتى ربّانة أرواحنا.

إنه جُبنٌ يستحق الشفقة أن يُحاول الإنسان التغلب على الخوف عن طريق تجاهل الحقائق. لا تُصبح أسياد أقدارنا عن طريق قولنا إننا كذلك. ومثل هذه الكبرياء الصارخة لا فائدة من ورائها، ليست حتى أمرًا نبيلًا في عدم جدواها. سيكون التمرد على طاغيةٍ مُتقلب أمرًا نبيلًا؛ لكن التمرد على ناموس الله الأخلاقي ليس أمرًا نبيلًا.

هل نحن إذن مُعرضون دائمًا للخوف؟ هل يتبقى لنا نحن الخطاة أي شيء، غير قبول دينونةٍ مُخيفٍ، وغيرة نارٍ عتيقة؟ جاء يسوع ليُقول لنا: لا! جاء ليُنقذنا من الخوف. بالتأكيد، لم يفعل ذلك عن طريق إخفاء

الحقائق؛ لم يرسم صورةً مُزيّفةً للحياة المُستقبلية باعتبارها حياة عبثٍ لا يُمكن تمييزها مثل التي يُعلنها "الوسطاء"؛ لم يُشجّع أي فكرة زائفة عن إلهٍ غير مُبالٍ والذي كان بإمكانه الاتفاق مع الخطيئة. لكنه أنقذَ البشرَ من الخوف عن طريق قيادتهم إلى الوثوق به. إن قضية الحياة الأبدية والموت الأبدي قضية مُرعبة؛ ويلٌ للإنسان الذي يَقترب من تلك القضية على أساس بره الذاتي؛ لكن المسيح يستطيع أن يُمكننا من مواجهة حتى ذلك.

صحيحٌ أنه يجب حتى على المؤمن أن يخاف الله. لكنه نوعٌ جديد من الخوف. إنه خوفٌ، على أقصى تقدير، من التأديب والتوبيخ، لا من الهلاك النهائي؛ بالتأكيد، يُعتبر خوفًا مما كان من الممكن أن يحدث لا مما هو حادثٌ؛ إنه خوفٌ مما كان سيحدث لو لم نكن في المسيح. بدون ذلك الخوف، لا يُمكن أن توجد محبة حقيقية لنا نحن الخُطاة؛ لأن محبة المُخلص تتناسب مع حجم المخاوف التي يُنقذ الإنسان منها. وما مدى قوة الحياة التي تمتلئ بهذه المحبة! إنها ليست حياة شجاعة بسبب تجاهل الحقائق، بل لأنه تمت مواجهةُها؛ إنها حياة تأسست على الأساس الراسخ لنعمة الله. إذا كان ذلك هو أساس حياتنا، لن نخاف عندما نأتي إلى الساعة التي من الحكمة أن نخافها. إنه أمرٌ جميل عندما يأتي مسيحي قَبْلَ يسوع بصفته مُخلصه إلى لحظة الموت؛ إنه أمرٌ جميل أن يَرُفد الإنسان وهو مؤمنٌ بيسوع، وبينما يدخل الإنسان الوطنَ المُظلم التي لا يستطيع أحد الكلام عنها، وأن يثق بالرب والمُخلص الغالي ويؤمن أننا هناك سنرى وجهه.

لذلك لا يتأسس الإيمان فقط على المعرفة؛ بل يقود أيضًا إلى المعرفة. إنه يُقدّم معلومات عن عالمٍ مُستقبلي والذي لولا ذلك لكان مجهولًا. لن تكون مناقشتنا كاملة إذا لم نَحْصِ بشكل أشمل هذا الجانب من الإيمان.

يُمكن أن يستند الفحص على أحد الآيات العظيمة في رسالة العبرانيين، في الأصحاح الذي يُناقش الإيمان صراحةً. يقول كاتب رسالة العبرانيين في بداية ذلك الأصحاح: "وَأَمَّا الْإِيمَانُ فَهُوَ النِّقَةُ بِمَا يُرْجَى وَالْإِيقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى".

لا تُعتبر هذه الكلمات تعريفًا أو بيانًا كاملاً عن الإيمان: إنها تتحدث عما هو الإيمان، لكنها لا تتحدث عن كل ماهيته، ولا تفصله عن كل ما هو ليس إيمانًا. توجد عبارات أخرى أيضًا في العهد الجديد، والتي تُعامل أحيانًا على أنها تعريفات لكنها ليست تعريفات إطلاقًا. لذلك عندما يقول يعقوب: "الدِّينَانَةُ الطَّاهِرَةُ النِّقْيَةُ عِنْدَ اللَّهِ الْآبِ هِيَ هَذِهِ: افْتِقَادُ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ فِي ضِيقَتِهِمْ، وَحِفْظُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِلَا دَنْسٍ مِنَ الْعَالَمِ"، لا يُقدّم تعريفًا أو وصفًا كاملاً للديانة؛ يتحدث يعقوب عما هي الديانة، لكنه لا يتحدث عن كل ماهيتها؛ الدِّينَانَةُ الطَّاهِرَةُ هِيَ افْتِقَادُ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ، وَحِفْظُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِلَا دَنْسٍ مِنَ الْعَالَمِ، لكنها أكثر من ذلك. أو عندما يُقال إن "اللهَ مُحَبَّةً"، فإن ذلك لا يعني إطلاقًا أن الله محبة فقط. إنه خطأ منطقي كبير

أن يُعزل تأكيدٌ مثل هذا ويُعامل كما لو كان تعريفاً؛ يلزم وجودُ العديد من هذه التأكيدات للحصول على أي شيء يُمثّل بياناً كاملاً عن الله؛ إن الله محبةٌ، لكنها يتّصف بأمور أخرى أيضاً.

لذلك، عندما يُقال إن الإيمان هو "الثِّقَةُ بِمَا يُرْجَى وَالْإِيْقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى"، فإن ذلك لا يعني أن جوهر الثِّقَةُ بِمَا يُرْجَى أو الإِيْقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى، هو دائماً الإيمان، أو أن الإيمان هو فقط ما قيلَ هنا. ما يوجد لدينا هنا، ليس هو كل الإيمان، بل جانب مُحدّد له. لكن، بما أن هذا الجانب هو جانب يتم تجاهله عادةً اليوم، فربما يُمكن النظر إلى هذا النص الآن لأجل فائدةٍ خاصة. إن جانب الإيمان الذي يُوضَع في المقدمة هنا هو جزء خاص من الجانب الفكري للإيمان؛ يُنظر إلى الإيمان هنا باعتباره مُساهمًا في حصيلّة معرفة الإنسان.

في الوقت الحاضر، يُعتبر من النمط السائد أن يتم تجاهل جانب الإيمان هذا: بالطبع، كثيراً ما يتم فصل الإيمان عن المعرفة، كما لاحظنا بالفعل؛ تتم مُعاملتهما كما لو أنهما ينتميان إلى دائرتين مُختلفتين بالكامل، ولذلك لا يُمكن بأي طريقة أبداً أن يكون بينهما رابطة أو تعارض. لقد تم النظر في هذا الفصل بين الإيمان والمعرفة فيما يتعلّق بأساس الإيمان؛ لقد لاحظنا أن الإيمان الحقيقي يتأسّس دائماً على المعرفة. لكن الإيمان الحقيقي لا يتأسّس فقط على المعرفة بل يقود أيضاً إلى معرفة أكبر؛ وأن جانب الإيمان هذا هو ما يتم تقديمه بشكل كلاسيكي في الآية العظيمة التي في بداية الأصحاح الحادي عشر من رسالة العبرانيين.

يقول كاتب رسالة العبرانيين: "وَأَمَّا الْإِيْمَانُ فَهُوَ الثِّقَةُ بِمَا يُرْجَى". إن الكلمة المُترجمة هنا إلى (substance) أي "جوهر"، تُترجم في الترجمة الأمريكيّة المُنقّحة (American Revised Version)، إلى كلمة (assurance) أي "التأكد". لكن الفرق ليس هاماً. إن المسألة في كلا الحالتين هي أنه يتم التأكد من الأحداث المُستقبلية بالإيمان؛ تصيغ فقط الترجمة الأقدم الأمر بشكل أقوى قليلاً: إنها تعني أن الأحداث المُستقبلية تُصبح بالإيمان أكيدة جداً كما لو أنها حدثت بالفعل؛ تُصبح الأمور الموعودة لنا، بالإيمان بالوعد، أكيدة جداً كما لو أن جوهرها أصبح في أيدينا الآن. في كلا الحالتين، سواء كانت الترجمة الصحيحة "جوهر" أو "التأكد"، فإنه يُنظر إلى الإيمان هنا باعتباره يُقدّم معلومات عن الأحداث المُستقبلية؛ يُقدّم الإيمان على أنه طريقة للتنبؤ بالمستقبل.

توجد طرق عديدة للتنبؤ بالمستقبل؛ الإيمان واحدٌ منها، لكنه ليس الطريقة الوحيدة. على سبيل المثال، تتوفّر طريقة أخرى في علم الفلك. في يوم الرابع والعشرين من شهر يناير، ١٩٢٥، كان كسوفٌ كامل للشمس ظاهراً في الجزء الشرقي للولايات المتحدة. تم إجراء الاستعدادات المُتقنة لكي يتم القيام بالأرصَاد؛ كان الخبراء مقتنعين بقوة بأن الكسوف سيحدث لدرجة أن الكثير من المال تم إنفاقه على أساس ذلك الاقتناع. بارتباط بكسوفٍ آخر حدثَ قبلها بأعوام، تم إجراء استعدادات أكثر تكلفةً. في تلك المرّة، كان

الكسوف ظاهرة في منطقة يصعب الوصول إليها، وكان من اللازم إرسال العديد من البعثات آلاف الأميال لكي يتم القيام بالأرصاد؛ بدى علماء الفلك بالتأكيد مُقتنعين بقوة بأن الكسوف سيحدث.

صحيح أنه في بعض الحالات ضاع كل المجهود هباءً. في الأماكن التي ذهبت إليها بعض البعثات أمطرت السماء أو كانت غائمة؛ أتلّف الطقس السيء تلك البعثات العلميّة المُتقنة بنفس الفاعليّة كما لو أنها كانت رحلات عاديّة لمدارس الأحد. بالطبع، ربما سيَتعلّم العلماء أن يستبعدوا حتى مصدر الخطأ هذا؛ ربما سيَتعلّمون التنبؤ على وجه اليقين، أو حتى التحكّم، بالطقس. نرجو بالتأكيد ألا يحدث ذلك في أيامنا. لأنه إذا حدث في أيامنا، لا شك أن جبهة المزارعين ستُربح في نوع مُعين للطقس وسيُربح عمال الصناعة في نوع آخر، لدرجة أن ما يُعتبر الآن غالبًا الموضوع الوحيد الآمن للمناقشة العادية، سيُصبح سببًا للحرب الأهليّة. لكن رُغم عدم إمكانيّة التنبؤ بالطقس مُسبقًا بفترة طويلة، ورُغم أنه حجب الكسوف، إلا أنه لا شك في أن الكسوف حدث في الوقت المُحدد له. أعتقد أنه في المرة الأخيرة، كان الكسوف مُتأخرًا أربعة ثوانٍ: لكن تلك الثواني الأربعة لم تُزعجني بقدر ما أزعجت علماء الفلك؛ من منظوري باعتباري رجلًا عاديًا، أنا مُلزم بقول إنني أعتقد أن علماء الفلك نجحوا بشكل جيد في طريقتهم للتنبؤ بالمستقبل.

لكن رُغم أن علم الفلك يُعتبر طريقةً للتنبؤ بالمستقبل، وطريقة جيدة جدًا أيضًا، إلا أنها ليست الطريقة الوحيدة. يُعتبر الإيمان طريقةً أخرى. وما يجب ملاحظته بحرص خاص هو أن الإيمان أمرٌ علميٌّ بنفس قدر علم الفلك. يتم التنبؤ بالمستقبل بواسطة الإيمان عندما يعتمد الإنسان في معرفته للمستقبل على كلمة كائن شخصي. ويتم توظيف طريقة التنبؤ تلك في الحياة العمليّة باستمرار. على سبيل المثال، يعتمد عليها كل السلوك المُنظم للحياة الاقتصاديّة والسياسيّة الاجتماعيّة. تتم الأعمال عن طريق الائتمان، وهو أمرٌ علميٌّ تمامًا أن تتم هكذا؛ إنه أمرٌ علميٌّ تمامًا أن نعتبر أن رجال الأعمال أصحاب السمعة الطيبة سيقومون بالتزاماتهم، خصوصًا عندما يُزيلون الخصوصيّات الشخصيّة بالتصرف بشكل جماعي. لا تكون الحياة السياسيّة مُمكنة إلا بالإيمان بالحكومة، ومتى تحطّم ذلك الإيمان سيعاني الإنسان من الفوضى اليائسة. لا تكون الحياة الاجتماعيّة مُمكنة إلا بسبب الإيمان - الحياة الاجتماعيّة في جوانبها الأوسع وكذلك في التفاصيل الأكثر تواضعًا وفردية. إنه فعلاً أمرٌ علميٌّ أن يتنبأ المرء بأن أحد الأمهات ستُعطي الدواء لطفلها المريض في الميعاد المُحدّد بنفس قدر التنبؤ بكسوفٍ للشمس. لا شك أنه توجد عوامل مُزعجة أكثر في الحالة الأولى عن الأخيرة، ولا شك أنه يجب أن تؤخّذ تلك العوامل المُزعجة في الاعتبار؛ لكن ذلك لا يؤثّر على الطابع العلمي السليم جوهريًا لذلك التنبؤ. في أي خريطة علميّة كاملة بشكل مثالي للمسار المستقبلي للعالم، فإن احتماليّة إعطاء الأم الدواء للطفل يجب أن تؤخّذ في الاعتبار، بصفتها صحيحةً بنفس قدر صِحّة احتماليّة حدوث كسوف الشمس.

يُمكن أحيانًا بناء تنبؤ بالسلوك المستقبلي لشخصٍ ما بدرجة مُعينة من الدقة الحسابية: تم اكتشاف أن شخصًا ما قام بالتزاماته في تسعة وتسعين من أصل مئة موقف سابق؛ لذلك، سيُقال إن الاحتمالات تَميل بقوة لصالح إيفائه بالتزاماته في موقف مُماثل في المستقبل. أتخيل أن أشكلاً مُعينة من تأمين المسؤولية (مع أنني لا أعرف الكثير عنها)، تتأسس على بعض الحسابات. لكن كثيرًا ما تكون تنبؤات الإنسان بخصوص السلوك المستقبلي لشخصٍ ما، غير مؤسّسة على منطق حسابي فقط، رُغم وصولها بالتأكيد إلى درجة عالية من الاحتمالية: يدفع الشخصُ الآخرين أحيانًا للثقة به بكامل تأثيره الشخصي؛ تتحدث النفس للنفس؛ وحتى بعيدًا عن الخبرة الطويلة لمصادقية الشخص، يعرف الإنسان أنه يُمكن الوثوق بذلك الشخص. بالمناسبة، يتمتّع ذلك النوع من الثقة بمساحة أكبر في إنتاج القنوات المسيحية أكثر مما يُفترض. يُعتبر حتى ذلك النوع من الثقة منطقيًا بشكل عميق؛ إنه يُضيف إلى حصيلة المعرفة، ويُعتبر "علميًا" بمعنى حقيقي للكلمة. تثبت الخبرة المُشتركة صحة كلمات النص القائل بأن الإيمان هو "الثقة بما يُرجى".

يقول النص أيضًا إن الإيمان هو "الإيقانُ بِأُمُورٍ لَا تُرى". إن ذلك التأكيد يتضمّن التأكيد الآخر. إن الأمور المستقبلية -ما يُرجى- هي دائمًا أيضًا "أُمُورٌ لَا تُرى". على سبيل المثال، عندما يُفكر المؤمن في الشركة مع المسيح في السماء، يكون سالكًا بالإيمان لا بالعيان؛ لأنه لا يرى السماء الآن. ليس لديه يقينٌ ناتج عن الرؤية، بل يحتاج إلى الثقة بالمسيح بأنه سيجعل السماء حقيقةً له. لكن هذا التأكيد الثاني للنص، رُغم أنه يتضمّن الأول، يمتد إلى ما هو أبعد منه؛ يحتاج الإنسان أحيانًا للإيمان، لا ليتنبأ فقط بالمستقبل، بل ليُقدّم أيضًا للإنسان معلومات عن أمورٍ لا ترى والتي توجد بالفعل. سواء كانت تتعلّق بالمستقبل أو بالحاضر، فإن المعلومات تتأسس على الإيمان إذا كانت تعتمد على كلمة كائن شخصي.

إن الإيمان إذن، رُغم أن له جوانب أخرى، هو دائمًا طريقة للحصول على المعرفة، إذا كان إيمانًا حقيقيًا؛ ينبغي ألا يُوضع أبدًا في تعارض مع العلم. بالطبع، في أي علم كوني حقيقي -علم يُزيل الحدود الإدارية الاصطناعية التي أنشأناها من أجل ما يُناسبنا وكروضخ للحدود البشرية - في أي علم كوني حقيقي، سيكون للثقة بالكائنات الشخصية مكانًا مُعتبرًا بصفتها وسيلةً صحيحة للحصول على المعرفة بنفس قدر صحة ميزان كيميائي أو تليسكوب.

لذلك، نستطيع بالكثير من الحرص فقط، أن نقبل التمييز الذي صنعه تينيسون (Tennyson) في بداية قصيدة "في ذكرى" (In Memoriam):

ابن الله القوي، الحب الخالد،

الذي لم نرى وجهه،

بالإيمان، وبالإيمان وحده، نتمسك به،

مؤمنين بما لا نستطيع أن نُثبِّته.

"مؤمنين بما لا نستطيع أن نُثبِّته" - يعتمد الأمر كله على ما نقصده بكلمة "نُثبِّته". إذا كنت نقصد بها "الحصول على المعرفة عن طريق قيامنا بالملاحظة دون الاعتماد على المعلومات التي نستقبلها من الآخرين"، فبال تأكيد، يُعد التمييز بين التصديق (أو الإيمان) والإثبات تمييزاً سليماً، ويمكن الاعتراف بسهولة أنه بهذا المعنى، تعتمد المسيحية على الإيمان بدلاً من الإثبات. لكن ما يجب الإصرار عليه فوق كل الأشياء هو أن "التصديق" أو الإيمان، بحسب معنى تينيسون، يمكن أن يُوفّر درجة عالية من اليقين العلمي مثلما يُوفّر "الإثبات" - بالمعنى الضيق للكلمة. بالتأكيد، تُوفّر درجة أعلى من اليقين في حالات لا تُحصى. ربما قد يُعذّر القارئ استخدام توضيح من الحياة العادية. لدي حساب في أحد بنوك برينستون. إنه ليس حساباً كبير كما أتمنى، لكنه موجود. يُرسل البنك لي في كل شهر تقريراً عن رصيدي. أحصل على المعلومات أيضاً عن نفس الأمر عن طريق الحسابات التي أقوم بها على أعقاب دفتر الشيكات الخاص بي. إن المعلومات التي أحصل عليها عن طريق حساباتي، هي معلومات توفّرت بالإثبات بحسب معنى تينيسون (أو المعنى الذي نُسبناه لتينيسون، سواء بشكل صحيح أو خاطئ). على الناحية الأخرى، تُعتبر المعلومات التي حصلتُ عليها من البنك هي معلومات توفّرت بالإيمان - إنها تعتمد على ثقتي بدقة ونزاهة موظفي البنك. ليس لدي أي فكرة عن كيفية وصول البنك إلى هذه الدرجة المذهلة من الدقة. أعتقد أن أحد أوائل مُدرسي الرياضيات الذين علّموني أخبرني شيئاً فيما معناه أن موظفي البنك أحياناً ما يمضون الليلة كلها يفحصون السجلات بحثاً عن سنتٍ واحدٍ مفقودٍ. أعتقد أنني قرأتُ مؤخراً في جريدة مساء السبت أو جريدة مثلها، مما أدى أصابني بخيبة أمل كبيرة، أنهم إذا كانوا مُخطئين بمقدار سنتٍ واحدٍ فقط، فإنهم يذهبون إلى منازلهم. لقد كانت معبوداً شابياً مُحطماً. بأي حال من الأحوال، لا أعرف كيف يفعلون ذلك؛ لم أتبع أبداً خطوات حساباتهم لرصيدي: لكنني أقبل النتيجة بثقة كاملة. إنها مسألة إيمانٍ خالصة. يؤسفني أن أقول، إنه كثيراً ما تنشأ اختلافات في الرأي في نهاية الشهر بين البنك وبينني فيما يتعلق بقيمة رصيدي؛ إن "الإيمان" في تقرير البنك يقف ضد "الإثبات" المؤسّس على حساباتي الشخصية. ويُعتبر الأمر المُثير للفضول أن الإيمان أقوى، وأكثر علمية من الإثبات. لقد اعتادتُ أن أظن أن حساباتي قد تكون صحيحةً وتقرير البنك مُخطئاً، لكني الآن أثق بالبنك في كل مرة. صحيح أنني أرغب في أن أجعل طريقي الحصول على المعرفة تتفقان؛ لديّ الرغبة العقلية في أن أوجد عالمي المالي. لكنني لا أفعل ذلك عن طريق تصحيح تقرير البنك بل عن طريق تصحيح حساباتي. أقوم بتصحيح "الإثبات" لأنني حصلت على معلومات أفضل "بالإيمان".

أعتقد أن تلك الحالة، في بساطتها، توضّح مبدأً عظيمًا والذي يسري في شرايين الدين. ليس من الصحيح أن القناعات المؤسّسة على كلمة الآخرين يجب أن تكون بالضرورة أقلّ حسماً وأقلّ علميّة من القناعات المؤسّسة على حسابات الشخص وملاحظاته. قد يتّضح أن حسابات الشخص وملاحظاته خاطئة مثل ثقته بكلمة شخص آخر.

هكذا هو الأمر في حالة المسيحيّة. إن القناعات المركزيّة في المسيحيّة، على الأقلّ فيما يتعلّق برسالة إنجيل الخلاص، ليست مؤسّسة على ملاحظتنا، بل على الشهادة؛ إنها مؤسّسة في المقام الأول على شهادة كُتّاب الكتاب المقدّس بخصوص الأمور التي قيلت وفُعِلت في القرن الأول الميلادي في أرض فلسطين. من المعقول أن تكون تلك الشهادة حقيقيّة ومن المعقول أن تكون زائفة؛ لكن أن يقول الإنسان مُسبقاً إنه لا يمكن أن تكون حقيقيّة هو وقوعٌ في خطأ فكري خطير جدّاً. إذا كانت الشهادة حقيقيّة، فإن رفضها أمرٌ غير علمي وقبولها أمرٌ علمي، بنفس قدر رفض أو قبول النتائج المؤكّدة في مجال العلوم المعمليّة.

في الواقع، نعتقد نحن المسيحيون أن تلك الشهادة حقيقيّة. لماذا نعتقد ذلك؟ لا شك أنه توجد أسبابٌ متعددة؛ نختبر تأكيدات كُتّاب الكتاب المقدّس بطُرق عديدة قبل أن نقبلها أخيراً باعتبارها حقيقيّة. لكن أحد الأسباب لم يحظى أحياناً بدرجة الاهتمام التي يستحقها. يُعتبر أحد الأسباب الهامة جدّاً وراء قبول شهادة العهد الجديد عن المسيح هو أننا نتعرّف شخصياً على الكُتّاب الذين أعطونا الشهادة وعلى أساس تلك المعرفة يصبح لدينا انطباعٌ طاعٌ بأنهم يُخبروننا بالحقيقة. إن كنت مُنزعجاً بالشكوك حول مصداقيّة العهد الجديد، إذا بدت تلك الأمور المُدهشة أغرب جدّاً من أن تكون قد حدثت فعلاً على هذه الأرض، أودّ أن أوصيك بتدريبٍ كان مُفيداً لي؛ أودّ أن أقترح عليك خطة القراءة السريعة لأجزاء كبيرة من الأناجيل كما لو أنها المرة الأولى لك. على سبيل المثال، يلائم إنجيل مرقس بسهولة هذا الغرض؛ ربما لهذا أعطانا الله إنجيلاً قصيراً جدّاً. اقرأ إذن إنجيل مرقس كله، في جلسة واحدة؛ لا تدرسه في هذه المرة (ستكون الدراسة التفصيليّة مُهمة في مرات أخرى)، لكن ببساطة اقرأه؛ اسمح ببساطة لكل انطباعه أن يصل إلى ذهنك. إذا فعلت ذلك، ستشعر بأنك أصبحت تعرف الكاتب جيّداً؛ وسيكون لديك انطباعٌ طاعٌ بأنه يقول الحقيقة. سنقول إنه ليس من المعقول أن تكون هذه الصورة المُذهلة عن يسوع نتاج اختراع أو خيال الكنيسة الذي يصنع الأسطورة؛ إذا أمكن إيقافه على منصة الشهود، فإن كاتب إنجيل مرقس سيكون شاهداً جيّداً بشكل طاعٍ، وسيتمكّن من أن يُقنع عقول أي هيئة مُحلفين مُفتحة على الحقائق.

يمكن عمل نفس الأمر مع سفرٍ يُهاجم بشدة مثل الإنجيل الرابع. خلال حياتي، إذا كان مُمكن السماح بتقديم إشارة شخصيّة، قرأت الكثير مما كُتب ضد المصداقيّة التاريخيّة لذلك السفر. إن بعض ما كُتب، بدا لي معقولاً في بعض الأوقات؛ لقد انزعجت في بعض الأوقات بسبب شكوك جادة. لكن في تلك الأوقات،

ابتعدت عما كُتِبَ عن السفر وذهبتُ إلى السفر نفسه؛ حاولتُ أن أقرأه كما لو أنها المرة الأولى. وعندما فعلتُ ذلك، كان الانطباع في بعض الأحيان طاغياً إلى حد كبير. من الواضح أن كاتب الإنجيل يُصرِّح بأنه شاهد عيان، ومن الواضح أنه يُشَدِّد بشكل خاص على شهادة الحواس الواضحة. إن لم يكن حقاً شاهد عيان لحياة يسوع، فهو يُقدِّم نموذجاً مُخادعاً مُنقحاً، وأبشع بكثير مما لو كان وضع فقط اسماً مُزيّفاً في بداية السفر. قد يبدو من المعقول أنه يُقدِّم نموذجاً مُخادعاً مثل ذلك، عندما يقرأ المرء فقط ما كتبه الآخرون عن الكاتب؛ لكنها تبدو فَرَضِيَّة شنيعة حقاً عندما يتعرَّف المرء على الكاتب بقراءة السفر بنفسه. عندما يفعل المرء ذلك، يُصبح الاقتناع طاغياً بأن هذا الكاتب كان فعلاً، كما يُصرِّح، شاهد عيانٍ للأمور العجيبة التي يحكي عنها، وبأنه عاين فعلاً مجد الكلمة المُتجسِّد، وأن الشخص المُذهل الذي كتب عنه سار فعلاً على هذه الأرض.

نؤكد على أن تجاهل هذا النوع من الدليل -نوع الدليل الذي يستند على الشهادة الشخصية- هو أمرٌ غير علمي تماماً. هناك اتساع وانفتاح عقلي بخصوص العلم الحقيقي والذي يبدو أن الكثيرون ليس لديهم أي إدراك له. لقد أصبحوا مُغمسين في نوع واحد من الأدلة؛ تُعتبر ملاحظاتهم جيدة ضمن دائرة واحدة محدودة؛ لكنهم عميان تماماً فيما يتعلَّق بالأنواع الأخرى للأدلة. يجب التغلب على ذلك العمى، إذا أردنا الوصول إلى أي تقدُّمٍ علمي؛ لا يُعتبر عقل العالم الحقيقي مُنفتحاً فقط أمام بعض الحقائق، بل أمامها كلها. وإذا كانت عيناه مُنفتحة أمام كل الحقائق، فلن يتجاهل ما يُقال له بخصوص يسوع المسيح بواسطة شهودٍ موثوق فيهم.

ما زال بإمكاننا تجاهل الكلمات التي قالها يسوع بنفسه، إذا كُنَّا علميين بحق. يُخبرنا كُتَّاب العهد الجديد عن يسوع؛ إننا مُقتنعون، على أساس شهادتهم، بأن يسوع العهد الجديد عاش فعلاً في هذا العالم، وأنه مات فعلاً من أجل خطايانا، وأنه قام فعلاً من الأموات، وهو حيٌّ الآن لكي يكون مُخلِّصنا. إذا قبلنا تلك الشهادة عن يسوع، فلدينا يسوع نفسه؛ وإذا كان لدينا يسوع نفسه، فمن المنطقي أن نثق به، لا بخصوص هذا العالم فقط، بل بخصوص العالم الآتي أيضاً.

لذلك، من المُضلل جداً، أن يقول أحدهم إن المسيحية والعلم مُنفصلان، وإن الكتاب المُقدَّس لا يهدف إلى تعليم العلوم. لا شك في أن ذلك التأكيد على أن الكتاب المُقدَّس لا يهدف إلى تعليم العلوم يحتوي على جانب من الصواب: صحيحٌ بالتأكيد أنه توجد فروع عديدة للعلوم لا يتطرَّق إليها الكتاب المُقدَّس؛ وربما يكون من المفيد فصل فروع مُعينة مؤقتاً ومُتابعة الأبحاث في تلك الفروع دون التفكير في الفروع الأخرى في هذه اللحظة. لكن ذلك الفصل، في أفضل الأحوال، مُجرد فصل مؤقت؛ ويجب في النهاية أن يكون هناك تجميعٌ للحقيقة. من حيث المبدأ، لا يُمكن إنكار أن الكتاب المُقدَّس يُعلِّم أموراً مُعينة والتي يحق للعلم أن يتحدَّث فيها. يتضح الموضوع بالتحديد في دائرة التاريخ. يوجد في قلب الكتاب المُقدَّس تأكيدات

بخصوص أحداث في العالم الخارجي في أرض فلسطين في القرن الأول الميلادي - تُكوّن رواية تلك الأحداث "رسالة الإنجيل"، وهي الجزء المرتبط بالأخبار السارة التي يتأسس عليها إيماننا المسيحي. لكن الأحداث التي وقعت في أرض فلسطين في القرن الأول الميلادي، تُعتبر موضوعاً مُلائماً للتاريخ العلمي بالضبط بنفس قدر مُلائمة الأحداث التي وقعت في اليونان أو روما. وفي تقرير علمي كامل ومثالي بخصوص الكون المادي، فإن خروج أو عدم خروج جسد يسوع من القبر - وهو سؤال يعتمد عليه وجود المسيحية - سيكون من اللازم تسجيله تماماً مثل الملاحظات التي تحدث في المعمل.

لذلك، سيحتّم علينا رفض الدفاع السهل عن المسيحية، الذي يعلن ببساطة أن الدين والعلم ينتميان إلى دائرتين مُستقلّتين، وأن العلم لا يمكن أن يناقض الدين أبداً. بالطبع، لا يمكن للعلم الحقيقي أن يناقض أبداً أي دين حقيقي؛ لكن القول، قبل حسم السؤال عما إذا كان ذلك الدين صحيحاً أم زائفاً، بأن العلم لا يمكن أن يناقضه، هو أمر يُسيء لكل من الدين والعلم. إنه دينٌ مسكينٌ، ذلك الذي يستطيع أن يتخلّى للعلم عن كل مجال الحق الموضوعي، لكي يحتفظ بنفسه فقط بمجال المثل العليا. بأي حال من الأحوال، ومهما كان تقديرنا له، لا يُعتبر بالتأكيد ذلك الدين هو المسيحية؛ لأن المسيحية تأسست بشكل مُباشر على الحقائق، لا على المثل العليا فقط. لكن إذا كانت المسيحية تأسست على الحقائق، فلا تكون مستقلة عن العلم بالكامل؛ لأن كل الحقائق ينبغي أن تكون في نوع من العلاقة. عندما تدخل أي حقيقة جديدة إلى عقل الإنسان، يجب أن تبدأ في التصرف على أساس أنها في بيتها؛ يجب أن تبدأ في تقديم نفسها إلى سكان البيت السابقين. إن تلك العملية لتقديم الحقائق الجديدة لنفسها تُسمى التفكير. وعلى عكس ما يُفترض عامةً، لا يستطيع المسيحي أن يتجنّب التفكير. بدون العلاقات المتبادلة مع دوائر المعرفة الأخرى، لا تُعد المسيحية بدون العلاقات المتبادلة مع دوائر المعرفة الأخرى، ظاهرة ثانوية بريئة بل ظاهرة ثانوية عديمة الفائدة، لكن يجب عليها أن تُبرّر مكانتها في مجال الحقائق، رُغم كل المجهود الذي سيُكلّفه ذلك.

مع ذلك، دعونا لا نخاف. تتأسس ديانتنا حقاً على كلمات الرزانة والحق؛ لا تُعاني ديانتنا الآن من تفكير مُفرط، بل من قصورٍ مُحزن في التفكير، وسيقود توسيع حقيقي للمعرفة إلى الإيمان مُجدداً. بالطبع، من الخطأ أن تُطبّق في أحد العلوم وسائل علم آخر؛ ربما هذا هو سبب أن الخبراء في مجال العلوم المعملية كثيراً ما يكونون غير علميين عندما يتعاملون مثلاً مع التاريخ. علاوة على ذلك، إن الأدلة على حقيقة المسيحية متنوعة للغاية، وليس كلها من النوع الذي يمكن اختزاله بسهولة للقياس. علي سبيل المثال، تُعد شهادة الأنجيل عن يسوع مُقنعة بشكل رائع عندما ينتبه المرء إليها بالطريقة التي يتطلّبها مثل ذلك الدليل؛ إنها مُقنعة بشكل رائع عندما يربطها المرء مع الحقائق المتعلقة بالروح. علاوة على ذلك، يُعتبر الدليل الذي في صالح شهادة الأنجيل دليلاً تراكمياً؛ لن يرفضه بسهولة أي شخص ذهنه مُفتوح. وعند قبول تلك الشهادة عن يسوع، يكون لدينا يسوع نفسه، ولكننا نستطيع بشكل أكثر وضوحاً أن نثق به بخصوص هذا الزمن

وبخصوص الأبدية. تتأكد الشهادة هنا والآن بواسطة الخبرة الحالية؛ يعرف المؤمن الشخص الذي آمن به. لا يحتاج الإيمان أن يكون متواضعاً للغاية أو دفاعي للغاية بحسب معيار المنطق؛ إن الإيمان المسيحي أمرٌ منطقي تماماً؛ كما تصيغه رسالة العبرانيين، هو "النِّقَّةُ بِمَا يُرْجَى وَالْإِيْقَانُ بِأُمُورٍ لَا تُرَى".

يقترب استعراضنا لموضوع الإيمان من نهايته. لكن يبقى سؤال عملي جداً. لقد رأينا أن الإيمان هو الوسيلة المُحدَّدة للخلاص؛ بدونَه لن يكون -على الأقل بالنسبة للذين لهم سنوات من الحذر- هناك أي اتصال خلاصي بالمسيح. لكن الإيمان يكون أحياناً قوياً وأحياناً ضعيفاً: كم ينبغي أن يكون قوياً إذن، لكي تخلص النفس؟

عند الإجابة على هذا السؤال، يجب بالتأكيد الاعتراف بأن العهد الجديد يعترف بوجود درجات مختلفة للإيمان؛ ويسعى في صراحةٍ كبير إلى جعل الإيمان قوياً بدلاً من ضعيفاً. وفقاً للعهد الجديد، يُعتبر الإيمان القوي والثابت وغير المُختلط بالشكوك أمراً يستخدمه الله لتحقيق أمور عظيمة. يتضح الأمر بالتحديد في مسألة الصلاة؛ وفقاً للعهد الجديد، تعتمد فاعلية الصلاة إلى حد ما على درجة الإيمان التي يُعطى للإنسان الذي يُصلي؛ إن الإيمان الضعيف والمُتقلقل ليس عادةً الأداة التي تنقل الجبال وتطرحها في البحر. لكن، يوجد جانب آخر لتعاليم العهد الجديد؛ ولا ينبغي تجاهله إذا أردنا أن نجد أي راحة في الحياة المسيحية. رغم أن الله يستطيع أن يستخدم إيماناً قوياً وثابتاً يُمارس في الصلاة، إلا أنه كثيراً ما يستخدم إيماناً ضعيفاً جداً. إنه خطأ كبير أن يعتقد المرء أن الصلاة تعمل بطريقة ميكانيكية؛ فيعتقد أنه بينما تأتي الصلاة الجيدة بنتائج جيدة، تأتي الصلاة الضعيفة بنتائج ضعيفة. على العكس، لا تعتمد فاعلية الصلاة في النهاية على تفوق الصلاة بل على نعمة الله، وكثيراً ما يُسرُّ الله بأن يُكرم صلوات ناقصة بالتأكيد. حمداً لله، أن الأمر كذلك؛ حمداً لله، أنه رغم أننا "أَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لِأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلَكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنْتَاتٍ لَا يُنْطَقُ بِهَا"؛ حمداً لله، أنه لا يعمل لنا حسبما نَسأل، بل "أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ".

هكذا هو الأمر إذن مع الصلاة: يجب أن يوجد بعض الإيمان إن كانت ستكون الصلاة صلاةً فعلاً، وليست شكلاً بدون معنى للكلمات؛ لكن أحياناً حتى الإيمان الضعيف، في رحمة الله غير المحدودة، يُستخدم لتحقيق أمورٍ عظيمة. لكن إذا كان الأمر هكذا مع تفاصيل الحياة المسيحية، وإذا كان الأمر هكذا مع الصلاة، كيف يكون الأمر مع الخلاص؟ يُعد الإيمان ضرورياً للخلاص، لكن ما مقدار الإيمان الضروري؟ كيف يُعامل الله الإنسان صاحب الإيمان القليل؟

للإجابة على هذا السؤال، توجد لدينا في الأنجيل واقعة رائعة، يُمكن أن تُختم بها بشكلٍ لائق هذه المحاولة الصغيرة لتفسير تعليم العهد الجديد عن الإيمان.

إن الواقعة هي شفاء غلامٍ به شيطان، في الأصحاح التاسع من الإنجيل بحسب مرقس. يحتوي إنجيلي متى ولوقا عليها مثل مرقس، لكن في شكل أكثر اختصارًا. إن إنجيل مرقس فقط هو من يرسم الصورة بالتفصيل؛ إن إنجيل مرقس أكثر من الإنجيليين الآخرين، هو الذي يُمكننا من الرؤية بعيون الأشخاص الذين كانوا حاضرين في الحدث. إذا كان تقليد الكنيسة المبكرة صحيحًا، ولا شك أنه كذلك، في تصريحه بأن الإنجيل الثاني يُجسّد الوعظ التبشيري لبطرس، فيتّضح إذن الطابع الحيوي لسرد القصة. يُمكننا البشير مرقس من الرؤية لبطرس. كان بطرس وتلميذان آخران على جبل التجلّي؛ لقد رأى الرب في المجد مع موسى وإيليا؛ ويُخبرنا بعد النزول من الجبل، من خلال كلمات الإنجيل الثاني، بما رآه بالضبط عند أسفل الجبل. لقد احتفظ مرقس بالتفاصيل؛ لم يُحاول أن يُحقّق النعمة الأسلوبية؛ يُعتبر سرده للقصة خشن وقوي وطبيعي. لا يوجد مكان يظهر فيه أسلوب مرقس في إنجيله أكثر من هنا.

وكما تم تصويره، فإن المشهد هو مشهد للبؤس والحاجة الإنسانية. كان رجلٌ في مِحنة؛ كان ابنه في قبضة روح شرير، وكان يُزبد ويصُرُّ بأسنانه، وكان الآن يتمرّغ على الأرض. في ظل هذه المِحنة، كان البشر عاجزين عن المساعدة؛ حتى تلاميذ يسوع، لم يتمكّنوا من عمل أي شيء، رغم كل قدرة مُعلمهم. إنها صورة للحاجة الإنسانية وعجز البشر. ولم يصبح المشهد اليوم قديمًا. أعتقد أن سبب المرض حينها كان مختلفًا عما يُرى في الوقت الحالي؛ لكن البؤس الناتج كان نفسه من جوانب هامة. لم يتخلّص الطب من البؤس الإنساني بعد؛ وليس من المعقول إلى حد كبير أنه سينجح في ذلك أبدًا. لا شك في أن شكل البؤس قد يتغيّر؛ من المعقول تمامًا، رغم عدم احتماليته، أنه سيتم التغلّب على الأمراض. لكن على الأقل، سيبقى الموت موجودًا في النظام الحالي؛ ومع الموت والفقد ستكون هناك الصرخة الحزينة للنفس البشرية.

إن الرجل الذي في المشهد الذي سجّله مرقس، كان في قمة المُعاناة. لقد فشلت كل مصادر المساعدة، وكان البؤس في قمته. وحينها نزل يسوع من على الجبل. فيه كان مصدرًا جديدًا للمساعدة بل والأخير. لكن يسوع لم يُقدم المساعدة مباشرة. كان الإيمان هو الوسيلة لاستقبال مساعدته، فهل آمن والد الغلام؟ قال الرجل: "إِنْ كُنْتُ تَسْتَطِيعُ شَيْئًا"؛ ولقد كانت "إِنْ" يائسة لا واثقة. لكن يسوع لم ييأس. لم يكن الإيمان ظاهرًا، لكنه عرّف كيف يُخرجه؛ لقد أحضر الإيمان الذي كان لدى الرجل إلى النور. قال يسوع: "كَمْ مِنَ الزَّمَانِ مُنْذُ أَصَابَهُ هَذَا؟" ثم قال بعدها، لكي يأتي بالإيمان إلى الخارج: "كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ".

تُعتبر إجابة الرجل واحدة من عبارات النفس البشرية التي لا تُنسى؛ ستبقى عبارة كلاسيكية ما دام الجنس البشري باقيا. إنها ليست صوت إنسانٍ واحد، بل تنقل العبارة صرخة الجنس البشري. لذلك، أفترض أنه من المِحنة الجامعة، يُنطق بعبارات عظيمة عديدة. يُغطي الكلام العادي الفكر بالزخارف التقليدية؛ لكن في أوقات العاطفة الطاغية، يُنسى شكل التعبير وتأتي صرخة غير متوقّعة وغير مُرتّبة من أعماق النفس.

هكذا كان الأمر مع الرجل الذي في هذه الواقعة. لقد نُسي التخيّي؛ لم يكن هناك ادعاءً بثقة لم يملكها؛ لم تكن هناك محاولة للتوفيق المنطقي بين الإيمان وعدم الإيمان الذين تصارعوا بداخل النفس دون مُصالحة. قال الرجل: "أومنُ يا سيّد، فأعِنْ عَدَمَ إيماني". ذلك كان الإيمان الذي تولّد عن الحاجة، حتى لو أنه إيمانٌ ضعيف.

أفترض، أن أي إيمان ينبغي أن يتولّد هكذا. لا أعني أن الإيمان بالمسيح لا يمكن أن يأتي بدون مُعانة مُسبقة للنفس. يؤمن بعض أبناء البيوت المسيحيّة بمُخلّصهم بمجرد أن يبدأ الوعي الكامل؛ ويبقى ذلك الإيمان البسيط أحيانًا غير مُترعزع بشكل كبير خلال كل عواصف الحياة. لكن كثير من الناس اليوم، لا يؤمنون بالمسيح على الإطلاق. كيف سيتم اقتيادهم إلى الإيمان به؟ لقد رأينا بالفعل ما هي الإجابة؛ يمكن اقتيادهم فقط من خلال الإحساس بالاحتياج.

إن احتياج الرجل الذي في إنجيل مرقس كان واضحًا. كان ابنه يُصرّ بأسنانه ويتمرّع على الأرض. لكن احتياج كل البشر واضح بنفس القدر، لو أنهم فقط أدركوا الحقائق. يوجد الاحتياج الشديد للنفس البشريّة الذي يقود إلى الإيمان بالمسيح، كما رأينا، في حقيقة الخطيّة. لا يقبل الإنسانُ المسيحَ أبدًا بصفته المُخلّص إلا إذا عرف الإنسانُ أنه نفسه في قبضة شيطان الخطيّة ورغب في أن يتحرّر. قد يُجادل المرء مع إنسانٍ حول موضوع الدين بطول الحياة؛ قد يأتي المرء بحُجج تدعم وجودَ إلهٍ شخصي؛ قد يُحاول المرء أن يُثبت على أساس الدليل الوثائقي أن وحده المنظور المسيحي بخصوص المسيح وأن وحدها قيامته من القبر، يستطيعان أن يُفسّرا نشأة المسيحيّة. سيستمع البشر، إذا كانوا واسعي الأفق (مع أنه نادرًا ما يكونوا كذلك اليوم)؛ لكن، لأن طبيعة الأمر الذي نطلب منهم أن يُصدّقوه تصدّهم، سيرفضون كل حُججنا ولن تتكون القناعات. لكن بينما نياس من إحضارهم إلى الإيمان، نستقبل أحيانًا حليفًا غير مُتوقّع. بطريقة غير مُتوقّعة، يُدركون فراغ وعجز حياتهم؛ يُدركون الذنب الرهيب أو الخطيّة. وعندما يأتي ذلك الإدراك، تنال أدلة المسيحيّة فجأة حُجّة جديدة بالنسبة لهم؛ يتواجد كل شيء في النظام المسيحي بالنسبة لهم في مكانه الصحيح؛ ويؤمنون. إن الإيمان بالمسيح، اليوم كما هو الحال دائمًا، يُمكن أن يتحقّق فقط عندما يكون هناك شعورٌ بالاحتياج.

لا يعني ذلك أننا نحتقر الأدلة الخارجيّة للمسيحيّة. إنها ضروريّة بالتأكيد؛ بدونها سيؤدي الشعور بالاحتياج إلى اليأس فقط. إنه أحد الأخطاء الجذريّة في يومنا هذا، أن يفترض المرء أنه لأن الأساسات الفلسفيّة والتاريخيّة لمسيحيّتنا ليست كافيةً لتوليد الإيمان، فهي لذلك غير ضروريّة. إن الحقيقة هي أن عدم كفايتها ليست ناتجةً إطلاقًا عن ضعفٍ ذاتي بل ناتجةً عن ضعفٍ أذهاننا. ينبغي أن يتجنّب المؤمن البرجمانيّة بكل طاقته، كما ينبغي بالتأكيد أن يتجنّبها أي شخص لن يرضخ للتدهور الفكري الحالي المؤسف والذي

تَسَبَّبَتْ فِيهِ الْبَرَجَمَاتِيَّةُ. تَبْقَى حَقَائِقُ الْمَسِيحِيَّةِ حَقَائِقُ سِوَا قَدْرِنَاهَا أَمْ لَا: إِنَّهَا حَقَائِقُ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ؛ إِنَّهَا حَقَائِقُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ؛ إِنَّهَا حَقَائِقُ الْآنَ، وَتَبْقَى حَقَائِقُ إِلَى مَا بَعْدَ نَهَايَةِ الزَّمَنِ.

لَكِنْ، كَمَا لَاحِظْنَا فِي جُزْءٍ سَابِقٍ مِنْ مُنَاقَشَتِنَا، نَعْتَبِرُ الْحَقَائِقَ شَيْئًا، وَإِدْرَاكَ تِلْكَ الْحَقَائِقِ شَيْئًا آخَرَ. وَإِدْرَاكَ الْحَقَائِقِ هُوَ الَّذِي يَعْتَمِدُ بِالنِّسْبَةِ لَنَا عَلَى الشُّعُورِ بِالْإِحْتِيَاجِ. إِنْ الرَّجُلُ الَّذِي تَوَصَّلَ إِلَى إِدْرَاكِ خَطِيئَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، وَالَّذِي خَلَعَ الْأَعْذَارَ الْمُعْتَادَةَ الْبَائِسَةَ لِلْخَطِيئَةِ وَرَأَى نَفْسَهُ كَمَا يَرَاهُ اللَّهُ، هُوَ مِثْلُ مَنْ يَغْرُقُ فَيَنْتَزِعُ لَوْحًا خَشْبِيًّا قَدْ يُنْقِذُهُ مِنَ الْهَالِيَةِ. بَدُونِ الشُّعُورِ بِالْإِحْتِيَاجِ الشَّدِيدِ، لَنْ تُصَدِّقَ الْأَحْدَاثَ الْمُعْجِزِيَّةَ وَالْعَجِيبَةَ لِمَجِيءِ وَقِيَامَةِ يَسُوعَ، لِأَنَّهَا خَارِجُ النِّظَامِ الْمُعْتَادِ؛ لَكِنْ بِالنِّسْبَةِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَعْرِفُ الْحَاجَةَ الرُّهِيْبَةَ الَّتِي سَبَّبَتْهَا الْخَطِيئَةُ، سَتَكُونُ تِلْكَ الْأُمُورُ غَالِيَةً فَقَطْ لِأَنَّهَا خَارِجُ النِّظَامِ الْمُعْتَادِ. يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ الْوَاقِعَ تَحْتَ تَبْكِيَتِ الْخَطِيئَةِ أَنْ يَقْبَلَ مَا هُوَ فَوْقَ طَبِيعِيٍّ؛ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ هُنَاكَ فُرْصَةً مَنَاسِبَةً لِدُخُولِ تِلْكَ الْأُمُورِ إِلَى مَسَارِ الْعَالَمِ.

أَحْضَرُ حَتَّى الْأَشْخَاصَ الْمُعَاَصِرِينَ إِلَى شُعُورٍ حَقِيقِيٍّ بِالْخَطِيئَةِ، وَرُغْمَ كُلِّ التَّحْيِيزِ ضِدَّ قِصَّةِ الْإِنْجِيلِ، سَيَصْرُخُونَ عَلَى الْأَقْلَ قَائِلِينَ: "أُؤْمِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنِ عَدَمَ إِيمَانِي." إِنْ تِلْكَ الصَّرِخَةُ لِلرَّجُلِ الْمُوجَّعِ فِي إِنْجِيلِ مَرْقَسَ، لَمْ تَكُنْ صَرْخَةً إِيمَانٍ مِثَالِي. لَكِنْ مِنْ خِلَالِهَا خَلَّصَ الرَّجُلَ. هَكَذَا سَيَكُونُ الْأَمْرُ الْيَوْمَ. حَتَّى الْإِيمَانُ غَيْرُ الْمِثَالِيِّ وَالضَّعِيفِ جَدًّا، يُعَدُّ كَافِيًّا لِلخَّلَاصِ؛ لَا يَعْتَمِدُ الْخَّلَاصُ عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِنَا، بَلْ يَعْتَمِدُ عَلَى الْمَسِيحِ. عِنْدَمَا تَرُغِبُ فِي ضَمَانٍ لِلخَّلَاصِ، لَا تُفَكِّرْ فِي إِيمَانِكَ، بَلْ فِي الشَّخْصِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعُ إِيمَانِكَ. إِنْ الْإِيمَانُ لَيْسَ قُوَّةً تَفْعَلُ شَيْئًا مَا، بَلْ قَنَاءً يُسْتَقْبَلُ مِنْ خِلَالِهَا شَيْئًا مَا. بِمُجَرَّدِ أَنْ تُفْتَحَ الْقَنَاءُ، سَيَأْتِي الْخَّلَاصُ وَلَنْ يُغَادِرَ أَبَدًا. إِنَّهُ خَطَأٌ كَبِيرٌ أَنْ يَفْتَرِضَ الْمَرْءُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَبِّحُونَ الْخَلَاصَ فِي النِّهَايَةِ لِأَنَّهُمْ بِمَجْهُودَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ عَلَى تَوَجُّهِ إِيمَانِي. عَلَى الْعَكْسِ، إِنْ الْإِيمَانُ الْمُخْلِصَ يَعْنِي أَنْ يَضَعُ الْإِنْسَانُ ثِقَتَهُ فِي الْمَسِيحِ مَرَّةً وَاحِدَةً وَإِلَى الْأَبَدِ. لَنْ يَتَخَلَّى الْمَسِيحُ عَنِ الَّذِينَ يَتَمَسَّكُونَ بِهِ، بَلْ سَيَحْفَظُهُمْ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَفِي الْعَالَمِ الْآتِي أَيْضًا.

فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ كِتَابِ سِيَاحَةِ الْمَسِيحِيِّ (Pilgrim's Progress) لَكَاتِبِهِ بَنِيَانْ، تَوْجَدُ وَاحِدَةً مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي لَا تُنْسَى، وَالَّتِي جَعَلَتْ كِتَابَ ذَلِكَ الْوَاعِظِ الْمُتَجَوِّلِ -أَرْقَ كِتَابَ إِنْجِلِيزِي وَالْأَعْمَقَ لَاهُوتِيًّا- وَاحِدًا مِنْ رَوَائِعِ الْأَدَبِ الْعَالَمِيِّ بِحَقِّ. إِنَّهَا صُورَةُ "السَّيِّدِ خَائِفٍ" كَانَ لَدَى السَّيِّدِ خَائِفٍ "جَوْهَرُ الْأَمْرِ" بِدَاخِلِهِ؛ كَانَ مَسِيحِيًّا حَقِيقِيًّا. لَكِنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى رَاحَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ مَسِيحِيَّتِهِ. عِنْدَمَا وَصَلَ عِنْدَ بَيْتِ الْمُفَسِّرِ، كَانَ خَائِفًا مِنَ الدُّخُولِ؛ جَلَسَ مُرْتَبِعًا بِالْخَارِجِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَتَضَوَّرَ جَوْعًا. لَكِنْ عِنْدَمَا أُدْخِلَ إِلَى الْبَيْتِ، تَلَقَّى تَرْحِيبًا حَارًّا. قَالَ "الْقَلْبُ الْكَبِيرُ": "سَأَقُولُ ذَلِكَ عَنْ سَيِّدِي، لَقَدْ حَمَلَهُ إِلَيْهِ بِمَحَبَّةٍ عَجِيبَةٍ." وَهَكَذَا ذَهَبَ سَيِّدُ خَائِفٍ فِي طَرِيقِهِ مُتَأَوِّهًا؛ وَعِنْدَهَا أَتَى إِلَى وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ. قَالَ الْمُرْشِدُ: "ظَنَنْتُ أَنَّي فَقَدْتُ الرَّجُلَ." وَفِي النِّهَايَةِ عِنْدَمَا أَتَى إِلَى النِّهْرِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَعْبُرَهُ الْجَمِيعُ، هُنَاكَ كَانَ أَمَامَ مَسْأَلَةٍ ثَقِيلَةٍ. "الْآنَ، الْآنَ، قَالَ الرَّجُلُ،

قد يَغرق إلى الأبد، وبذلك لن يرى في عزاء، ذلك الوجه الذي أتى كل هذه الأميال ليراه. " لكن يُقال لنا، إن مياه النهر لم تكن أبدًا بهذا الانخفاض من قَبْل، في يوم عبور سَيِّد خائف. "وهكذا عبر في النهاية، في منسوبٍ ليس أعلى بكثير من قدميه. عندما كان يَصعد إلى البوابة، بدأ السَيِّد القلب الكبير في المُغادرة، وتمنى له أنا يلقى قبولًا جيدًا بالأعلى. فقال: سألقى ذلك، سألقى ذلك."

كانت هذه هي النهاية المُباركة حتى للإنسان صاحب الإيمان الضعيف. لن يَنقل الإيمانُ الضعيف الجبال، لكن يوجد شيء واحد سيفعله الإيمانُ الضعيف على الأقل؛ سيُحضر الخاطي إلى سلام مع الله. لا يعتمد الخلاص على قوة إيماننا؛ إن الإيمان المُخلص قناة لا قوة. إذا تمسكت حقًا بالمسيح من قَبْل، فبالرغم من شكوكك ومخاوفك التي جاءت بعد ذلك، أنت له إلى الأبد.